أبناءِ النبوةِ والوحي

تأليف

د. خالد النجار

شبكة الألوكة
www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

أبناء النبوة والوحي

من أهم محاولات توليد الرغبات ودفع الأفراد نحو البناء والإنتاج والعطاء أن ظهر من وسائل الترغيب أحيانا أن الشعوب التي لا تجد لها ماضياً يذكر أو حضارة تعرف، تصطنع لأبنائها أبطالاً أسطوريين، وتنسج حولهم ملاحم شعرية أو قصصاً خيالية لا تعدو أن تكون من وضع الأدباء، وخيال المفكرين والكتاب المؤرخين- فيتناقل الناس أخبارهم وتقام لهم التماثيل، وتسمى بأسمائهم الشوارع والميادين، ويردد أناشيد بطولاتهم الأطفال في مدارسهم، وقد ينتقل صيتهم، وتذاع شهرتهم في الأقاليم المجاورة.

ونحن والله الحمد بتاريخنا القريب الثابت بالنسبة للأمم الغابرة أثرياء بأبطالنا الحقيقيين، وبالذات في حقبة المئة الأولى من ظهور الإسلام التي كانت من معجزات التاريخ.

ومعرفة سير هؤلاء السلف الصالح تفصيلا لا تقل أهمية -في تقديري- عن معرفة أحكام القرآن والسنة النبوية؛ لأنهم كانوا التراجمة الأمناء لعقيدتهم، ومثلوا الصورة الحية الشاخصة لمبادئ الإسلام. فبمقدار نجاحهم وإخلاصهم في تمثل تلك المبادئ أصبحوا عناوينها، وحكم عليها بالأصالة والمتانة والسلامة فيما تخطط وتهدف وتصور وتحقق: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]

ولقد اخترت في هذا الكتاب المتواضع أربع شخصيات: اثنين من الصحابة (عبادة بن الصامت، وعمرو بن العاص) واثنين من التابعين (محمد ابن الحنفية، وسعيد ابن المسيب) من رجالات القرن الثاني الهجري الذين صدق قول الله تعالى فيهم:

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: 3–4]

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: 75]

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ تَسْبِقُ أَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ وَشَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ) [أحمد، صحيح]

ولقد لاح لي هذا الاختيار باعتبار غياب أخبارهم عن الكثيرين من أبناء عصرنا خاصة مع تفشي الأمية الثقافة التي أكلت الأخضر واليابس وجرفت الفكر وأوهنت العمل إلا من رحم الله وتداركه بنور علمه.

ولقد استفدت كثيرا من أربعة كتب في هذا العمل ونقلت عنهم نقلا كبيرا، ألا وهي:

1. كتاب «عبادة بن الصامت» صحابي كبير وفاتح مجاهد.. د. وهبة الزحيلي
2. كتاب «عمرو بن العاص الأمير المجاهد».. د. منير الغضبان.
3. كتاب «تصحيح ما يتعلق بشخصية أبي القاسم محمد ابن الحنفية رحمه الله».. لحمد بن رمزي بن عبد الرازق
4. كتاب «سعيد بن المسيب سيد التابعين».. د. وهبة مصطفى الزحيلي

إن هذا العمل لا أدعي فيه التجديد ولا التعمق بإتيان ما لم يأت به الأوائل، ولكنه محاولة متواضعة لتنشيط الذاكرة التاريخية للقارئ سائلا المولى –عز وجل– أن يذيع صيته

ويتلاقاه الناس بالقبول، وأن يسامحني عن أي خطأ ورد فيه عن غير قصد مني، فما كان فيه صوابا فمن الله ولطفه ورحمته بي، وما كان فيه من زلل فمن نفسي ومن الشيطان.

فاللهم اجعله عملا خالصا لوجهك وارزقنا ثوابه في الدنيا والآخرة

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

مصر

00201229596658

00201155581175

بسم الله الرحمن الرحيم

عبادة بن الصامت

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وقفات في سطور

** ارجع إلى مكانك، فقبح الله أرضاً لست فيها ولا امثالك. [عمر بن الخطاب]

** شهد عبادة بدراً واحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. [ابن سعد في الطبقات الكبرى]

** كان بايع رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أن لا يخاف في الله لومة لائم. [ابن عساكر في تاريخه]

** غزا أرض الروم مع معاوية –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، وحضر فتوحات الشام وثغورها وسواحلها، وفتح اللاذقية وجبلة وطرطوس وقبرص، اشترك في فتح مصر والإسكندرية. [ابن ماجه في سننه وفتوح البلدان]

** كاتب الوحي وجامع القرآن في عهد الرسول ﷺ، ومعلم القرآن وراوي الحديث وفقيه الشام وقاضي فلسطين. [ابن حجر في تهذيب التهذيب وابن حبان وغيرهما]

** كان عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– الأنصاري الخزرجي من سادات الصحابة وأحد النقباء الاثنى عشر ليلة العقبة. [النقيب: العريف، وشاهد القوم وسيدهم]

ومصدر عبقرية عبادة وعظمته في التاريخ أنه عمل كثيراً، وأجاد في كل عمل، وجال في كل ميدان، رغم أنه خافت الذكر، صامت الشهرة بين الناس، وكان صمت أبيه قد انعكس عليه، فمنع انتشار صيته وإشاعة سمعته.

وهذه سمة المخلصين من العظماء الذين يؤثرون التواضع والركود على الشهرة وإذاعة الأحاديث المطولة عن أعمالهم. فابن الصامت وإن لم ينصفه التاريخ وقلت التراجم والأخبار عنه، إلا أن القليل منها كثير معبر، له مدلول كبير، فهو لا يقل أهمية وأثراً في رحاب البطولات والفتوحات عن خالد بن الوليد وأمثاله من كبار الفاتحين الشجعان وميزته البارزة: عقيدة لا تتجزأ، ومتانة في الوازع الديني، واستقامة في الحياة.

** إن الغالب على إنسان هذا العصر انحصاره في زاوية واحدة معينة من الحياة، لا يكاد يستطيع مغادرتها إلى زوايا أخرى، فهو يعيش متميزاً في جانب معين طوال حياته، ويصبح أسير مهنته في أكثر أيام دهره، وإن طولب بتغيير عمله ضاق ذرعاً، وامتلأ هما، وكبرت الدنيا في عينيه وكأنه حينئذ يكابد الموت، أو يصارع المستحيل عقلا أو عادة.

أما إنسان الإسلام الأول فيعجب المرء اليوم كيف تهيأ له التميز في عدة جوانب من الحياة، والتحليق في أجواء مختلفة من العلوم، والإبداع والابتكار في عدة ألوان من الاختصاصات.

ويتساءل كل منا حينئذ عن السبب الذي أبدع به الأوائل في كل ميدان خاضوه، فلا يجد تفسيراً لهذه الظاهرة الرائعة إلا أنها بنت الإسلام في صفائه الأول، فهو يمنح ذويه عقيدة لا تتجزأ، ومتانة في الوازع الديني وقوة الضمير، واستقامة في الحياة.

وبعبارة مجملة: إن ثبات المسلمين الأوائل على العقيدة هو الذي صنع منهم رجالاً في كل ميدان، غيروا به وجه الدنيا، وبدلوا معالم التاريخ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]

وتمثل هذا المعنى – على صعيد الواقع الذي يمس علاقة المسلمين بغيرهم – في قول عبادة بن الصامت للمقوقس في مفاوضته للمجاهدين قبل فتح مصر: "إنما رغبتنا وهمتنا في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا لعدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا ولا طلب للاستكثار منها، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة".

وعبادة بن الصامت رضوان الله عليه من أولئك القلة المؤمنة التي صحبت رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والذين غيروا وجه الحياة، فكان والياً، وقائداً محارباً، ونقيباً من سادات الصحابة، وفقيها، وقاضياً، ومحدثاً، وفاضلا خيراً، وعابداً ورعاً، مستغفراً أواباً، عاملاً في البناء والتجارة، معلماً للقرآن، وناشراً مبادئ الإسلام.

فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بن الصامت، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ [الأمر الذي ينشط إليه ويؤثر فعله] وَالْمَكْرَهِ [الأمر الذي تكرهه النفس]، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا [الأثرة الاستئثار بالشيء، والمراد أن نفي ببيعتنا ولو منعنا حقنا من الغنائم والفيء]، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ [ألا ننازع ولاة الأمور إلا أن نرى كفرا بواحا ومنكرا محققا]، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» [مسلم]

أضف إلى ذلك أن الإسلام ربى عبادة وأمثاله على التزام أحسن صلة مع الإله القدير مانح النصر والعون، ومجري المعجزات والأعاجيب على يد أوليائه.

فلقد كان عبادة في قمة الورع والتقوى والعبادة، كغيره من الصحابة الموصوفين جميعاً بالعدالة والخيرية. وكان أيضاً من أمهر الرماة في معارك الحرب الساخنة، وحض الإسلام على تعلم الرماية معروف مشهور.

ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَيٍّ: أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ».

وروى أحمد في مسنده عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَنْ عُلِّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ بَعْدَمَا عُلِّمَهُ، فَهِيَ نِعْمَةٌ كَفَرَهَا) [حسن]

وفي مسلم عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ: أَنَّ فُقَيْمًا اللَّخْمِيَّ قَالَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: تَخْتَلِفُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ وَأَنْتَ كَبِيرٌ يَشُقُّ عَلَيْكَ. قَالَ عُقْبَةُ: لَوْلَا كَلَامٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَمْ أُعَانِهِ، قَالَ الْحَارِثُ: فَقُلْتُ لِابْنِ شُمَاسَةَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَالَ: (مَنْ عَلِمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى)

وإعداد الإسلام المناسب رجاله للحروب كان أيضاً من أهم أسباب إحراز النصر وكسب التفوق، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65] ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: 78]

فلا عجب بعدئذ أن يكون عبادة بألف، كما شهد له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

** ولد عبادة في يثرب وعاش 72 سنة وأدرك الجاهلية والإسلام، وأمه قرة العين الخزرجية أسلمت وبايعت النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وليس في الصحابيات من يسمى بهذا الاسم سواها.

** كان عبادة عربياً قحاً أسمر اللون جميلاً طويلاً جسيماً ضخماً. قال الوليد بن عبادة: كان أبي رجلا طوالا جسيماً جميلا.

وقال عنه النووي في تهذيب الأسماء: كان فاضلا خيراً جميلاً طويلاً جسيماً.

وقال سعيد بن عفير: كان طوله عشرة أشبار". أي أنه كان يزيد عن ٢٠٠ سم، فهو مديد القامة طويلها.

وهذا يشعر بأنه كان رجلا مهيباً، قد ساعدته القوة الجسدية والضخامة على تحمل أعباء القيادة وأعمال الحرب، وهذا يشبه حالة القائد الاسرائيلي «طالوت» الذي بعثه الله ملكاً على بني إسرائيل، وزاده بسطة في العلم حتى يكون واسع الإدراك نافذ البصيرة، وبسطة في الجسم حتى يقوى على القيادة وأعمال الحرب، وحتى يكون مهاباً يملأ العين والنظر، قال الله تعالى حاكياً لنا قصته: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247]

ويظهر من القرائن أن عبادة كان يهتم بأناقة لباسه، وحسن الله منظره، بدليل وصفه بالجمال، واهتمامه بوصف لباس النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

** تزوج عبادة بامرأة صالحة هي أم حَرام بنت مِلحان، أخت أم سُليم، وممن بايع رسول الله ﷺ، وهي خالة خادمه أنس بن مالك، وصحابية من الأنصار من أهل قباء، كان النبي إذا ذهب إلى قباء استراح عندها.

ترجم لها الأصبهاني بقوله: أم حرام بنت ملحان، حميدة البر، شهيدة البحر، التواقة إلى مشاهدة الجنان، خالة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من الرضاعة.

ولأم حرام سبعة أحاديث عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، من أهمها عليه تلك القصة التي تعتبر من أعلام النبوة ومعجزات الرسالة بإخبار النبي لها عن غزو البحر، وصنع الأسطول البحري، بعد أن صحا في بيتها من قيلولته ضاحكاً، وتناقلها المحدثون في الكتب الصحاح.

ففي رواية البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رضي الله عنه يَقُولُ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا، ثُمَّ ضَحِكَ، فَقَالَتْ: لِمَ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: (نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ [هو البحر الأبيض المتوسط] فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَثَلُهُمْ مَثَلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ [جمع سرير، إيذان بأنهم يرتكبون هذا الأمر العظيم مع وفور نشاطهم وتمكنهم من منامهم، وقيل: هو صفة لهم لسعة حالهم وكثرة عدوهم]). فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ). ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ، فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ، أَوْ مِمَّ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: (أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَلَسْتِ مِنَ الْآخِرِينَ). قَالَ: قَالَ أَنَسٌ: فَتَزَوَّجَتْ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فَرَكِبَتِ الْبَحْرَ مَعَ بِنْتِ قَرَظَةَ، فَلَمَّا قَفَلَتْ، رَكِبَتْ دَابَّتَهَا، فَوَقَصَتْ بِهَا [وثبت بها]، فَسَقَطَتْ عَنْهَا فَمَاتَتْ».

ولقد اتفق العلماء على أنها كانت محرما له –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، واختلفوا في كيفية ذلك، فقال ابن عبد البر وغيره: كانت إحدى خالاته من الرضاعة، وقال آخرون: بل كانت خالة لأبيه أو لجده، لأن عبد المطلب، كانت أمه من بني النجار [شرح مسلم]

لقد تحققت أمنية أم حرام بالاستشهاد أثناء غزو البحر، إذ صرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، وقصتها بغلة لها شهباء، فماتت. وتم ذلك بقيادة معاوية بن أبي سفيان لجيشه عقب إنشائه الأسطول الإسلامي الأول في التاريخ، حين غزا قبرص ففتحها سنة ٢٧ أثناء خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. ودفنت في قبرص.

وكان عبادة مع زوجته راكباً البحر، مشتركاً معها في فتح قبرص، فانطبق على كل واحد منهما بشارة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– له بأنه «ملك على السرير».

** ساهمت أسرة عبادة كلها في نصرة الإسلام، سواء بالنسبة لزوجته كما بينا، أو بالنسبة لإخوته، أو أولاده.

فهذا أوس بن الصامت، الأنصاري الخزرجي، شهد موقعة بدر الكبرى، وروى حديثين فقط عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

مات أيام عثمان، وله خمس وثمانون سنة، وكان به شيء من جنون، فأصابه بعض حالاته، فظاهر من زوجته لأنها امتنعت منه مرة، فقال لها: "أنت علي كظهر أمي" وزوجته هي خولة بنت خويلد الخزرجية أو بنت ثعلبة، وهي التي جادلت النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– واشتكت له بحرارة من أثر الظهار لكبر سنها، وانقطاع ولدها، وخوفها على أولادها من الضياع أو الجوع، فأنزل الله في شأنها كفارة الظهار في أوائل سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: 1]

** آخى النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بين عبادة وبين أبي مرثد الغنوي، في رواية محمد بن اسحاق ومحمد بن عمر فأصبحا كأخوي النسب في المال والميراث والمناصرة على الحق والمؤاساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، كما آخى بين باقي أصحابه من المهاجرين والأنصار قبل بدر.. وكانوا تسعين رجلا: ٤٥ من المهاجرين و٤٥ من الأنصار، ويقال: كانوا مائة: خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار، وتمت المؤاخاة بينهم في دار أنس بن مالك رضي الله عنه.

وبعد موقعة بدر حينما تقوى المهاجرون أنزل الله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ﴾ [الأنفال: 75]، فنسخت هذه الآية ما كان قبلها، وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه، وورثه ذوو رحمه، وأولو الأرحام: أصحاب القرابة، فصارت أولوية القرابة النسبية مفضلة على ما هو أهم منها من ولاية الإيمان وولاية الهجرة في عهدها، وأصبح الأقارب أجدر وأحق بالتناصر والتعاون من المهاجرين والأنصار الأجانب، وكذا التوارث في دار الهجرة في عهد وجوب الهجرة وفي كل عهد أصبح منسوخاً برابطة القرابة، واعتبر الأقارب أولى بذلك.

قال الحسن البصري: "كان التوارث بالحلف، فنسخ بآية المواريث"، وهو المقصود بقوله عليه السلام فيما يرويه مسلم عن جبير بن مطعم: (لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ) أي حلف التوارث، وأما المؤاخاة في الإسلام والمخالفة على طاعة الله تعالى والتناصر في الدين والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق، فهذا باق لم ينسخ.

** وروى أحمد عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَعُودُهُ، وَبِهِ مِنَ الْوَجَعِ مَا يَعْلَمُ اللهُ شِدَّةً، ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَشِيِّ، وَقَدْ بَرَأَ أَحْسَنَ بُرْءٍ، فَقُلْتُ لَهُ: دَخَلْتُ عَلَيْكَ غُدْوَةً وَبِكَ مِنَ الْوَجَعِ مَا يَعْلَمُ اللهُ شِدَّةً، وَدَخَلْتُ عَلَيْكَ الْعَشِيَّةَ وَقَدْ بَرَأَتَ! فَقَالَ: (يَا ابْنَ الصَّامِتِ، إِنَّ جِبْرِيلَ رَقَانِي بِرُقْيَةٍ بَرِئْتُ، أَلَا أُعَلِّمُكَهَا؟ "قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: (بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ حَسَدِ كُلِّ حَاسِدٍ وَعَيْنٍ، بِاسْمِ اللهِ يَشْفِيكَ) [صحيح لغيره]

** وروى أحمد عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ أَنَّهُ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ دِمَشْقَ وَهَجَّرَ بِالرَّوَاحِ، فَلَقِيَ شَدَّادَ بْنَ أَوْسٍ. وَالصُّنَابِحِيُّ [تابعي] مَعَهُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ تُرِيدَانِ يَرْحَمُكُمَا اللهُ؟ قَالَا: نُرِيدُ هَاهُنَا إِلَى أَخٍ لَنَا مَرِيضٍ نَعُودُهُ. فَانْطَلَقْتُ مَعَهُمَا حَتَّى دَخَلَا عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ [في رواية: عبادة بن الصامت]، فَقَالَا لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ بِنِعْمَةٍ. فَقَالَ لَهُ شَدَّادٌ: أَبْشِرْ بِكَفَّارَاتِ السَّيِّئَاتِ وَحَطِّ الْخَطَايَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (إِنَّ اللهَ عز وجل يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عز وجل: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ) [صحيح لغيره]

** عَنْ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ الْجَنْبِيِّ، أَنَّ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ وَعُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ حَدَّثَاهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَفَرَغَ اللهُ مِنْ قَضَاءِ الْخَلْقِ، فَيَبْقَى رَجُلَانِ، فَيُؤْمَرُ بِهِمَا إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمَا فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: رُدُّوهُ، فَيَرُدُّونَهُ: قَالَ

لَهُ: لِمَ الْتَفَتَّ؟ قَالَ: إِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ، حَتَّى لَوْ أَنِّي أَطْعَمْتُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مَا عِنْدِي شَيْئًا). قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذَا ذَكَرَهُ يُرَى السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ. [أحمد بسند ضعيف]

هذه الخصائص الذاتية لعبادة، والتي من أهمها مهابته كعملاق ضخم، وسلامة عقيدة وقربه من النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، إذ هو زوج خالته: أكسبته شهرة عالية، وبوأته أن يكون في مركز حساس متميز بين الصحب الأباة الذين رسخوا بنية الإسلام، وثبتوا قواعده وأحكامه في بداية غرسه وسط الأعداء الأشداء العتاة، فما أشقها مهمة، وما أصعبها قضية، وما أحوجها إلى الإيمان الراسخ والصبر والكفاح، والعقل، والتوجيه، والتخطيط!!

** كان عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أحد السباقين إلى الإسلام، ومن أوائل الأنصار الذين أعلنوا إسلامهم في السنة العاشرة من البعثة النبوية، وقد كان خيار الصحابة رضى الله عنهم، وأعلاهم في الشرف: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]

أما السابقون من المهاجرين فهم الذين صلوا إلى القبلتين: (إلى الكعبة وإلى بيت المقدس)، وقيل: هم المهاجرون قبل صلح الحديبية. وإذا كان السبق في الإيمان والهجرة والجهاد والبذل والنصرة، كان أفضل السابقين: الخلفاء الأربعة على ترتيب خلافتهم، ثم باقي العشرة المبشرين بالجنة.

وأما السابقون من الأنصار، فهم الذين أسلموا قبل أن يكون للمسلمين قوة مرهوبة الجانب، وقيل: هم أصحاب البيعة الأولى وكانوا اثني عشر رجلا، وأصحاب البيعة الثانية وكانوا ثلاثاً وسبعين رجلا وامرأتين. وعبادة بن الصامت كان من أوائل هؤلاء السابقين إلى إعلان الإسلام ومن أعلام بيعة العقبة الأولى.

** لما أراد الله إظهار دينه، ونصر نبيه وإنجاز ما وعده، ساقه إلى هذا الحي من الأنصار، لما أراد الله به من الكرامة، فانتهى إلى نفر منهم وهم يحلقون رؤوسهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فاستجابوا لله ولرسوله، فأسرعوا وآمنوا وصدقوا وآووا ونصروا وواسوا.

وكانوا والله أطول الناس ألسنة، وأحدهم سيوفاً. وكانوا ستة نفر كلهم من الخزرج، وهذا هو الأصح في التاريخ.

وذكر موسى بن عقبة – فيما رواه عن الزهري وعروة ابن الزبير–: أن أول اجتماعه عليه السلام بهم، كانوا ثمانية وهم: معاذ بن عفراء، وأسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان وهو ابن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، وأبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعُوَيْمر بْنِ سَاعِدَةَ. والأخيران من الأوس.

فعرض عليهم رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الإسلام فأسلموا. وقال لهم رسول الله: تمنعون لي ظهري حتى أبلغ رسالة ربي؟ فقالوا: يا رسول الله، نحن مجتهدون لله ولرسوله، نحن –فاعلم– أعداء متباغضون، وإنما كانت وقعة بعاث [من الأيام المشهورة التي اقتتل فيها الأوس والخزرج]، عام الأول، يوم من أيامنا اقتتلنا فيه، فإن تَقْدَمْ، ونحن كذا، لا يكون لنا عليك اجتماع، فدعنا حتى ترجع إلى عشائرنا، لعل الله يصلح ذات بيننا، وموعدك الموسم المقبل. ثم قدموا إلى المدينة، فدعوا قومهم إلى الإسلام، فأسلم من أسلم، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر من رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وفي العام المقبل –أي في السنة الحادية عشرة من البعثة– وافي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاء: عشرة من الخزرج فيهم عبادة بن الصامت، واثنان من الأوس، فبايعهم الرسول ﷺ عند العقبة بيعة النساء: وهي بيعة العقبة الأولى.

فعلى الرواية الأصح: لم يكن عبادة مع الخزرجيين في أول لقاء الأنصار مع الرسول الله. وعلى رواية موسى بن عقبة، كان معهم، فهو من أوائل الأنصار إسلاماً.

** عن عبادة بن الصامت–رضي الله عنه–قال: كنت ممّن حضر العقبة الأولى، اثنا عشر رجلا، بايعنا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض الحرب.

وعن أبي ادريس الخولاني، قال: إنه سمع عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يذكر البيعة. قال: بايعنا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في مجلسه. فقال: (تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا. فقرأ علينا الآية، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا، فعوقب به فهو كفّارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا، فستره الله تعالى عليه، فهو إلى الله–عز وجل –إن شاء عذّبه، وإن شاء غفر له).

وفي صحيح مسلم عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَتْ: "كَانَتِ الْمُؤْمِنَاتُ إِذَا هَاجَرْنَ إِلَى رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُمْتَحَنَّ بِقَوْلِ اللهِ عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ}. إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ فَقَدْ أَقَرَّ بِالْمِحْنَةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذَا أَقْرَرْنَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِنَّ قَالَ لَهُنَّ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: انْطَلِقْنَ، فَقَدْ بَايَعْتُكُنَّ. وَلَا وَاللهِ مَا مَسَّتْ يَدُ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ، غَيْرَ أَنَّهُ يُبَايِعُهُنَّ بِالْكَلَامِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللهِ مَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَلَى النِّسَاءِ قَطُّ إِلَّا بِمَا أَمَرَهُ اللهُ تعالى، وَمَا مَسَّتْ كَفُّ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كَفَّ امْرَأَةٍ قَطُّ، وَكَانَ يَقُولُ لَهُنَّ إِذَا أَخَذَ عَلَيْهِنَّ: قَدْ بَايَعْتُكُنَّ كَلَامًا".

وفي العام المقبل أي في السنة الثانية عشرة من البعثة، وافي مصعب الموسم مع ثلاثة وسبعين رجلاء، وامرأتين من نسائهم، وتمت معهم بيعة العقبة الثانية أو الآخرة. أما المرأتان: فهما أم عمارة نسيبة بنت كعب بن عمرو، وأسماء بنت عمرو بن عدي.

قال عبادة: لما حضر الحج مشى أصحاب رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الذين أسلموا بعضهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج وموافاة رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ- والإِسلام يومئذ فاش بالمدينة، فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلًا أو رجلين في خَمَر [جماعة الناس وزحمتهم] الأوس والخزرج وهم خمسمائة، حتى قدموا على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مكة، فسلموا على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثم وعدهم «منى» وسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل أن يوافوه في الشِّعب الأيمن إذا انحدروا من «منى» بأسفل العقبة حيث المسجد اليوم.

وأمرهم أن لا ينبهوا نائما ولا ينتظروا غائبا، قال: فخرج القوم بعد هدأة يتسللون الرجل والرجلان وقد سبقهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى ذلك الموضع معه العباس بن عبد المطلب ليس معه أحد غيره.

فكان أول من طلع على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رافع بن مالك الزرقي، ثم توافى السبعون ومعهم امرأتان، قال أسعد بن زرارة: فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه، ومحمَّد من أعز الناس في عشيرته، يمنعه والله منا من كان على قوله، ومن لم يكن منا على قوله يمنعه للحسب والشرف، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ترميكم عن قوس واحدة، فارتأوا رأيكم وأتمروا بينكم ولا تفترقوا إلا عن ملأٍ منكم واجتماع، فإن أحسن الحديث أصدقه.

فقال البراء بن معرور: قد سمعنا ما قلت وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قال: وتلا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عليهم القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم في الإِسلام وذكر الذي اجتمعوا له، فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق ثم قال: يا رسول الله بايعنا فنحن أهل الحلقة ورثناها كابرًا عن كابر.

قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم. فقالوا: يا رسول الله نبايعك. قال: تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط

والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم، وأزواجكم، وأبناءكم، ولكم الجنة.

ويقال إن أبا الهيثم بن التيهان كان أول من تكلم وأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وصدقه، وقالوا: نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف.

فقام إليه الأنصار، وأخذ بيده أسعد بن زرارة –وهو صغر الثلاثة والسبعين– فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم ضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن خراجه اليوم مناوأة للعرب كافة، وقتل خياركم، وتعضكم سيوف. فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على لله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا لك فهو أعذر لكم عند الله.

فأجابه البراء بن معرور بالإيمان والتصديق. ثم قال: يا رسول الله بايعنا، وأخذ بيد الرسول عليه السلام، وقال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا [نسائنا]، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهـل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر.

وقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها – يعني اليهود– فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. [قال ابن قتيبة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف الجوار: دمي دمك، وهدمي هدمك، أي ما هدمت من الدماء قدمته أنا. وقال ابن هشام: ويقال: الهدم الهدم: يعني تحرمه، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم]

ولغطوا، فقال العباس بن عبد المطب: وهو أخذ بيد رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أخفوا حرسكم فإن علينا عيونا، وقدموا ذوي أسنانكم، فيكونون هم الذين يلون كلامنا منكم، فإنا نخاف قومكم عليكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم.

فتكلم البراء ابن معرور فأجاب العباس بن عبد المطلب، ثم قال: ابسط يدك يا رسول الله، فكان أول من ضرب على يد رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، البراء بن معرور، ويقال أول من ضرب على يده أبو الهيثم بن التيهان، ويقال أسعد بن زرارة، ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه

فقال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيبا [العرفاء والأسياد] فلا يجدن منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره، فإنما يختار لي جبريل، فلما تخيرهم قال للنقباء: أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي، قالوا: نعم.

وقال كعب بن مالك: قال رسول الله ﷺ: أخرجوا إلي رؤوس منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً.

وهؤلاء النقباء – أي العرفاء والأسياد– هم تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

أما نقباء الخزرج: فهم أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حرام (وهو سيد من ساداتهم وشريف من أشرافهم)، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو بن خنيس.

وأما نقباء الأوس: فهم أسيد بن حضير، وسعد بن حيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر بن زبير.

فلما بايع القوم وكملوا صاح الشيطان على العقبة بأبعد صوت سمع: يا أهل الأخاشب، هل لكم في محمَّد والصباة معه قد أجمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: انفضوا إلى رحالكم، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لئن أحببت لنميلن على أهل منى بأسيافنا، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيره، فقال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إنا لم نؤمر بذلك فانفضوا إلى رحالكم، فتفرقوا إلى رحالهم، فلما أصبح القوم غدت عليهم جلة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة

وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا، وأيم الله ما حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينه الحرب منكم، قال: فانبعث من كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما علمنا، وجعل ابن أبي يقول: هذا باطل وما كان هذا وما كان قومي ليفتأتوا علي بمثل هذا، ولو كنت بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يؤامروني، فلما رجعت قريش من عندهم رحل البراء بن معرور فتقدم إلى بطن يأجج وتلاحق أصحابه من المسلمين، وجعلت قريش تطلبهم في كل وجه ولا تعدوا طرق المدينة، وحزبوا عليهم، فأدركوا سعد بن عبادة، فجعلوا يده إلى عنقه بنسعة وجعلوا يضربونه ويجرون شعره، وكان ذا جمة، حتى أدخلوه مكة، فجاءه مطعم بن عدي والحارث بن أمية بن عبد شمس فخلصاه من بين أيديهم، وأثمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عبادة أن يكروا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم، فرحل القوم جميعا إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: وكانت بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في القتال شروطًا سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة.

** شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة مع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في السنة السادسة من الهجرة قبيل صلح الحديبية، وعبارة مسلم في صحيحه: بايعناه على أن لا نفر.

فبايع رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الناس، ولم يتخلف عليه أحد من المسلمين، إلا الجد بن قيس أخو بني سلمة استتر بناقته وكان منافقا.

وكان يقال لمن حضرها: «شجري». فَقَالَ لَهم رَسُولُ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أَنْتُمُ اليَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ» [مسلم وأحمد]

وفي مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ، ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ، فَإِنَّهُ يُحَطُّ عَنْهُ مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ

صَعِدَهَا خَيْلُنَا خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ. فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. فَقَالَ: وَاللهِ لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ. قَالَ: وَكَانَ رَجُلٌ يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ»

وفي سنن أبي داود عَنْ جَابِرٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ» [صححه الألباني]

** كان عبادة ذو منزلة عالية بين صحابة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، لأنه شهد المشاهد كلها مع الرسول، فهو من جماعة بيعة العقبة الأولى كما أشرنا، والعقبة الثانية، ومن أهل بدر وأحد والخندق، ومن أهل بيعة الرضوان، وهو أحد الشجعان المشهورين والفصحاء المتكلمين، وهو فقيه مرموق بين الصحابة، وهو من العدول الثقات حتى عند الشيعة الذين يستثنون –بعد علي وبعض آله– سلمان الفارسي وأبا ذر، والمقداد بن عمرو، وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وأبا الهيثم بن التيهان، وسهل بن حنيف، وعبادة بن الصامت، وأبا أيوب الأنصاري، وخزيمة بن ثابت، وأبا سعيد الخدري.

وعبادة من الأنصار الذين امتدحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]

وثبت في السنة عدة أحاديث في فضائل الأنصار، منها ما رواه البخاري عَنْ أَنَسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: رَأَى النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ مُقْبِلِينَ – قَالَ: حَسِبْتُ أَنَّهُ قَالَ – مِنْ عُرُسٍ، فَقَامَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مُمْثِلًا [منتصبا وقائما] فَقَالَ: (اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ). قَالَهَا ثَلَاثَ مِرَارٍ [مرات]. زاد مسلم: «يَعْنِي الْأَنْصَارَ»

وفي البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (الْأَنْصَارُ كَرِشِي [بطانتي والذين أعتمد عليهم في أموري.] وَعَيْبَتِي [عيبة الرجل: خاصته وموضع سره]، وَالنَّاسُ سَيَكْثُرُونَ وَيَقِلُّونَ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ).

وفي مسلم عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ).

وعند أحمد في المسند عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (حُبُّ الْأَنْصَارِ إِيمَانٌ، وَبُغْضُهُمْ نِفَاقٌ). [صحيح لغيره]

وفي البخاري عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَبْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ).

** وتعرف منزلة عبادة من تصنيف طبقات الصحابة، وهو المشهور الذي ذهب إليه الحاكم، وهو ما يأتي:

1. السابقون إلى الإسلام بمكة، كالخلفاء الراشدين الأربعة.
2. الصحابة الذين أسلموا قبل تشاور أهل مكة في دار الندوة.
3. مهاجرة الحبشة.
4. أصحاب العقبة الأولى.
5. أصحاب العقبة الثانية، وهم من الأنصار.
6. أول المهاجرين الذين وصلوا إلى النبي بقباء قبل أن يدخل المدينة.
7. أهل بدر.
8. الذين هاجروا بين بدر والحديبية.
9. أهل بيعة الرضوان في الحديبية.
10. من هاجر بين الحديبية وفتح مكة، كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.
11. مسلمة الفتح، الذين أسلموا في فتح مكة.

12. صبيان وأطفال رأوا النبي يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرها.

وأفضل الصحابة، بل أفضل الخلق بعد الأنبياء –عليهم السلام–: أبو بكر الصديق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي.

ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أهل أحد والعقبتين: الأولى والثانية، ثم أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية. قال الإمام أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة: ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة، ثم البدريون، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية.

واستدرك ابن الصلاح على هذا الترتيب فقال: وفي نص القرآن تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار: وهم الذين صلوا إلى القبلتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة.

وفي قول الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان. وعن محمد بن كعب القرظي وعطاء بن يسار أنهما قالا: هم أهل بدر، روى ذلك عنهما ابن عبد البر فيما وجدناه عنه، والله أعلم.

وبناء عليه فإن عبادة بن الصامت إما في الرتبة الثانية من الصحابة بعد العشرة المبشرين بالجنة، لأنه بدري أحدي عقبي شجري.

وإما في المرتبة الأولى على قول الشعبي ومحمد بن كعب وعطاء بن يسار، لأنه، بدري شجري. لذا وصفه المؤرخون بأنه «كان من سادات الصحابة، وكان فاضلاً خيراً جميلا طويلاً جسيماً».

** شهد الله تعالى له ولمن اشترك في بيعة الرضوان بالإيمان وأسبغ عليهم رضوانه، فقال عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18]

** ومن مناقبه ما ذكره في المغازي لابن إسحاق: حدّثني أبي إسحاق بن يسار، عن عبادة بن الصّامت، قال: لما حارب بنو قينقاع بسبب ما أمرهم عبد اللَّه بن أبي، وكانوا حلفاءه، فمشى عبادة بن الصّامت، وكان له من الحلف مثل الّذي لعبد اللَّه بن أبيّ، فخلعهم وتبرّأ إلى اللَّه ورسوله من حلفهم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51]

قال محمد بن إسحاق: فحدثني أبو إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: لما حاربت بنو فينقاع رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تشبث بأمرهم عبد الله بن أُبي، وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وكان أحد بني عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذي لعبد الله بن أُبي، فجعلهم إلى رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار، وولايتهم، ففيه وفي عبد الله بن أُبي نزلت الآيات في المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ} إلى قوله: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة:56]

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بنو قينقاع، فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أُبي بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد أحسن في موالي وكانوا حلفاء الخزرج، قال: فأبطأ عليه رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فقال: يا محمد أحسن في موالي، قال: فأعرض عنه. قال: فأدخل يده في جيب درع رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فقال له رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "أرسلني"، وغضب رسول الله حتى رأوا لوجهه ظللًا، ثم قال: "ويحك أرسلني" قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر،

وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدني في غداة واحدة إني امرؤ أخشى الدوائر، قال: فقال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (هم لك) [سيرة ابن هشام]

** وإيمان عبادة الصادق هو الذي عرفه طريق الجنة، فعمل لله، وجاهد في سبيل الله، ودعا إلى الله، وحدد للناس أصو الإيمان، وفقاً لما حدث به عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ففي صحيح البخاري عَنْ عُبَادَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ).

** له مواقف كثيرة ومحن تدل على إيمانه العميق منها ما أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق، عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه أن عبادة بن الصامت مرت عليه قطارة [أن تشد الإبل على نسق واحد خلف واحد] وهو بالشام تحمل الخمر فقال ما هذه أزيت؟ قيل لا بل خمر تباع لفلان فأخذ شفرة من السوق فقام إليها فلم يذر فيها راوية إلا بقرها وأبو هريرة إذ ذاك بالشام فأرسل فلان إلى أبي هريرة فقال ألا تمسك عنا أخاك عبادة بن الصامت أما بالغدوات فيغدوا إلى السوق فيفسد على أهل الذمة متاجرهم وأما بالعشي فيقعد بالمسجد ليس له عمل إلا شتم أعراضنا وعيبنا فأمسك عنا أخاك فأقبل أبو هريرة يمشي حتى دخل على عبادة فقال يا عبادة ما لك ولمعاوية ذره وما حمل فإن الله يقول ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134]

قال يا أبو هريرة لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بايعناه على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن نقول في الله لا تأخذنا في الله لومة لائم وعلى أن ننصره إذا قدم علينا

يثرب فنمنعه مما نمنع منه أنفسنا وأزواجنا وأهلنا ولنا الجنة ومن وفى وفى الله له الجنة مما بايع عليه رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

فلم يكلمه أبو هريرة بشيء فكتب فلان إلى عثمان بالمدينة إن عبادة بن الصامت قد أفسد علي الشام وأهله فإما أن يكف عبادة وإما أن اخلي بينه وبين الشام فكتب عثمان إلى فلان أن أرحله إلى داره من المدينة فبعث به فلان حتى قدم المدينة فدخل على عثمان الدار وليس فيها إلا رجل من السابقين بعينه ومن التابعين الذين أدركوا القوم متوافرين فلم يفج عثمان به [لم يهجم عليه] إلا وهو قاعد في جانب الدار فالتفت إليه فقال ما لنا ولك يا عبادة فقام عبادة قائما وانتصب لهم في الدار فقال إني سمعت رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أبا القاسم يقول سيلي أموركم بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون فلا طاعة لمن عصى فلا تعتلوا [تضلوا] بربكم فو الذي نفس عبادة بيده إن فلانا لمن أولئك فما راجعه عثمان بحرف.

وعن رجل من أهل البصرة عن الحسن قال كان عبادة بن الصامت بالشام فرأى آنية من فضة تباع. الإناء بمثلي ما فيه أو نحو ذلك فمشى إليهم عبادة فقال أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا عبادة بن الصامت ألا وإني سمعت رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في مجلس من مجالس الأنصار ليلة الخميس في رمضان لم يصم رمضان بعده يقول (الذهب بالذهب مثلا بمثل سواء بسواء وزنا بوزن يدا بيد فما زاد فهو ربا والحنطة بالحنطة قفيز بقفيز يد بيد فما زاد فهو ربا والتمر بالتمر قفيز بقفيز يد بيد فما زاد فهو ربا) قال فتفرق الناس عنه فأتى معاوية فأخبر بذلك فأرسل إلى عبادة فأتاه فقال له معاوية لئن كنت صحبت النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وسمعت منه لقد صحبناه وسمعنا منه فقال له عبادة لقد صحبته وسمعت منه فقال له معاوية فما هذا الحديث الذي تذكره فأخبره فقال له معاوية اسكت عن هذا الحديث ولا تذكره فقال له عبادة بلى وإن رغم أنف معاوية قال ثم قام فقال له معاوية ما نجد شيئا أبلغ فيما بيني وبين أصحاب محمد –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من الصفح عنهم.

وفي سنن ابن ماجة عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ قَبِيصَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيَّ النَّقِيبَ، صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: غَزَا مَعَ مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الرُّومِ، فَنَظَرَ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ يَتَبَايَعُونَ كِسَرَ الذَّهَبِ بِالدَّنَانِيرِ، وَكِسَرَ الْفِضَّةِ بِالدَّرَاهِمِ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ الرِّبَا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «لَا تَبْتَاعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ، إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ، لَا زِيَادَةَ بَيْنَهُمَا وَلَا نَظِرَةً» فَقَالَ: لَهُ مُعَاوِيَةُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، لَا أَرَى الرِّبَا فِي هَذَا، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ نَظِرَةٍ، فَقَالَ عُبَادَةُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَتُحَدِّثُنِي عَنْ رَأْيِكَ لَئِنْ أَخْرَجَنِي اللَّهُ لَا أُسَاكِنُكَ بِأَرْضٍ لَكَ عَلَيَّ فِيهَا إِمْرَةٌ، فَلَمَّا قَفَلَ لَحِقَ بِالْمَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؟ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، وَمَا قَالَ مِنْ مُسَاكَنَتِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ إِلَى أَرْضِكَ، فَقَبَحَ اللَّهُ أَرْضًا لَسْتَ فِيهَا وَأَمْثَالُكَ، وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: لَا إِمْرَةَ لَكَ عَلَيْهِ، وَاحْمِلِ النَّاسَ عَلَى مَا قَالَ، فَإِنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ [صححه الألباني]

وعن حميد بن زياد أبو صخر أنه بلغه أن عبادة بن الصامت حين ذكر الناس من شأن عثمان ما ذكروا قال والله لا أحضر هذا الأمر أبدا فخرج من المدينة حتى لحق بعسقلان فمكث حتى فرغ من عثمان ثم أقام حتى استخلف معاوية فقام معاوية على المنبر فخطب الناس فذكر أبا بكر بن أبي قحافة فصلى عليه ثم قال إنه وطئ عقب نبيه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- واتبع أثر صاحبه ثم مات له الفضل من ذلك لا عليه ثم مكث عثمان ثمان سنين لا يخالف أمر نبيه وصاحبيه ثم أخذ وترك فمات فالله أعلم به ثم وليت فأخذت حتى خالط لحمي ودمي فهو خير مني وأنا ممن بعدي ويا أيها الناس إنما أنا لكم جُنّة فقام عبادة بن الصامت فقال أرأيت إن احترقت الجنة قال إذا تخلص إليك النار قال من ذلك أفر قال فأمر به فأخذ فأضرط بمعاوية [عمل بفمه كالضراط وهزئ به] ثم قال علمت كيف كانت البيعتان حين دعينا إليهما دعيت على أن نبايع على أن لا نزني ولا نسرق ولا نخاف في الله لومة لائم فقلت أما هذا فاعفني يا رسول الله ومضيت أنا عليها فبايعت رسول الله -صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولأنت يا معاوية أصغر في عيني من أن أخافك في الله عز وجل فقال معاوية صدقت قد كان هذا في شأن البيعتين فأمر به فأرسل.

وعن عبادة بن الصامت أنا معاوية قال لهم: يا معشر الأنصار، مالكم لم تلقوني مع إخوانكم من قريش؟ قال عبادة: الحاجة. قال: هلاّ على النواضح [البعير يستقى عليه]. قال: أنضيناها [أنضى البعير: هزله] مع رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يوم بدر، فما أجابه. قال: وقال لنا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إنها ستكون أثَرَه بعدي. قال معاوية: فما أمَرَكُمْ؟ قال: أمرنا أن نصبر. قال: فاصبروا حتى تَلْقَوه.

عن عمرو بن قيس قال أتى عبادة بن الصامت حجرة معاوية بن أبي سفيان وهو بأنطرطوس [بلدة من سواحل الشام] فألزم ظهره الحجرة وأقبل على الناس بوجهه وهو يقول بايعت رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ألا أبالي في الله لومة لائم ألا إن المقداد بن الأسود قد غل بالأمس حمارا قال وأقبلت أوسق من مال فاشرأب الناس إليها فقال عبادة أيها الناس ألا إنها إنما تحمل الخمر والله ما يحل لصاحب هذه الحجرة أن يعطيكم منها شيئا ولا يحل لكم أن تسألوه وإن كانت مَعبلة [نصل طويل عريض] يعني سهما في جنب أحدكم قال فأتى رجل المقداد بن الأسود في يده قرصافة فجعل يتل بها [يقتاد] الحمار وهو يقول يا معاوية هذا حمارك شأنك به حتى أورده الحجرة.

عَنْ يَعْلَى بْنِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: ذَكَرَ مُعَاوِيَةُ الْفِرَارَ مِنَ الطَّاعُونِ فِي خُطْبَتِهِ، فَقَالَ عُبَادَةُ: أُمُّكَ هِنْدٌ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَأَتَمَّ خُطْبَتَهُ، ثُمَّ صَلَّى، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عُبَادَةَ، فَنَفَرَتْ رِجَالٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مَعَهُ، فَاحْتَبَسَهُمْ، وَدَخَلَ عُبَادَةُ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَلَمْ تَتَّقِ اللَّهَ وَتَسْتَحِي إِمَامَكَ؟ فَقَالَ عُبَادَةُ: «أَلَيْسَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ، إِنِّي لَا أَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ» ، ثُمَّ خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عِنْدَ الْعَصْرِ، فَصَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ أَخَذَ بِقَائِمَةِ الْمِنْبَرِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي ذَكَرْتُ لَكُمْ حَدِيثًا عَلَى الْمِنْبَرِ، فَدَخَلْتُ الْبَيْتَ فَإِذَا الْحَدِيثُ كَمَا حَدَّثَنِي عُبَادَةُ، فَاقْتَبِسُوا مِنْهُ، فَهُوَ أَفْقَهُ مِنِّي [المعجم الأوسط للطبراني]

** كان عبادة كثير الصلاة والعبادة، شديد الخوف والخشية الله، ملتزماً جانب التقوى لله، يؤدي واجبه خير الأداء، ويكثر الدعاء والاستغفار، وينفر من المعاصي والمحرمات.

ومن الأحاديث التي رواها عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في هذا الشأن:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصُّنَابِحِيّ، قَالَ: زَعَمَ أَبُو مُحَمَّدٍ أَنَّ الْوِتْرَ وَاجِبٌ، فَقَالَ: عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ كَذَبَ أَبُو مُحَمَّدٍ أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ تعالى مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ» [صحيح: أبو داود]

عَنْ أَبِي أُبَيٍّ ابْنِ امْرَأَةِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «إِنَّهَا سَتَكُونُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي أُمَرَاءُ تَشْغَلُهُمْ أَشْيَاءُ عَنِ الصَّلَاةِ لِوَقْتِهَا حَتَّى يَذْهَبَ وَقْتُهَا فَصَلُّوا الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُصَلِّي مَعَهُمْ؟، قَالَ: «نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ» – وَقَالَ سُفْيَانُ: إِنْ أَدْرَكْتُهَا مَعَهُمْ أُصَلِّي مَعَهُمْ؟ – قَالَ: «نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ» [صحيح: أبو داود]

عن عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ) [البخاري]

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذَا رَأَى الْهِلَالَ، قَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الشَّهْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْقَدَرِ، وَمِنْ سوءِ الْحَشْرِ". [أحمد: ضعيف]

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللهَ بِدَعْوَةٍ، إِلَّا

آتَاهُ اللهُ «إِيَّاهَا، أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ، أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ) [أحمد: صحيح لغيره]

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (الْجَنَّةُ مِئَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مَسِيرَةُ مِئَةِ عَامٍ – وَقَالَ عَفَّانُ: كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ – وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً، وَمِنْهَا تَخْرُجُ الْأَنْهَارُ الْأَرْبَعَةُ، وَالْعَرْشُ مِنْ فَوْقِهَا، وَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ) [أحمد: صحيح]

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ: (مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ) [أحمد: صحيح]

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، قَالَ: (لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ). [أحمد:صحيح لغيره]

عن يزيد ابن أبي سودة عن أخيه عثمان بن أبي سودة. قال: رأيت عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وهو على هذا الحائط – حائط المسجد المشرف على وادي جهنم – واضعا صدره عليه وهو يبكي، فقلت: يا أبا الوليد ما يبكيك؟ قال: هذا المكان الذي أخبرنا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنه رأى فيه جهنم. [حلية الأولياء]

** وفي سير أعلام النبلاء قال عبد الحميد بن بهرام: عن شهر، سمع عبد الرحمن بن غنم يقول:

لما دخلنا مسجد الجابية [قرية من أعمال دمشق] أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ بشماله يميني، وبيمينه شمال أبي الدرداء، فقال:

إن طال بكما عمر أحدكما أو كلاكما، فيوشك أن تريا الرجل من ثبج [وسط] المسلمين قد قرأ القرآن، أعاده، وأبداه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، ونزل عند منازله، أو قرأ به على لسان أحد لا يحور فيكم إلا كما يحور رأس الحمار الميت. [لا يرجع فيكم بخير ولا ينتفع بما حفظه من القرآن، كما لا ينتفع بالحمار الميت صاحبه]

فبينا نحن كذلك، إذ طلع علينا شداد بن أوس، وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد:

إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس، لما سمعت من رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول في الشهوة الخفية والشرك.

فقال عبادة، وأبو الدرداء: اللهم غفرا، أو لم يكن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد حدثنا: أن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب، فأما الشهوة الخفية فقد عرفناها، فهي شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذي تخوفنا به يا شداد؟ قال: أرأيتكم لو رأيتم أحدا يصلي لرجل، أو يصوم له، أو يتصدق له، أترون أنه قد أشرك؟

قالوا: نعم.

قال: فإني سمعت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: (من صلى يرائي؛ فقد أشرك، ومن صام يرائي؛ فقد أشرك، ومن تصدق يرائي؛ فقد أشرك).

فقال عوف: أو لا يعمد الله إلى ما ابتغي فيه وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل منه ما خلص له، ويدع ما أشرك به فيه؟

قال شداد: فإني سمعت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول عن الله، قال: (أنا خير قسيم، فمن أشرك بي شيئا، فإن جسده وعمله، قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني) [إسناده ضعيف]»

** مر عبادة بن الصامت مَرَّ بقرية يقال لها دُمَّر [ضاحية دمشق]، من قرى الغوطة، فأمر غلامه أن يقطع له سواكاً من صفصاف على نهر بردى، فمضى ليفعل، ثم قال له: ارجع فإنه إلا يكن بثمن، فإنه يبس فيعود حطباً بثمن.

وعن مالك بن شرحبيل قال: قال: عبادة بن الصامت: ألا تروني لا أقوم إلا رِفداً [يريد لا يقوم إلا يعان على القيام حتى ينهض]، ولا آكل إلا ما لوّق لي [إلا ما لُيْن من الطعام حتى يصير كالزُّبد في لينه.]، وقد مات صاحبي منذ زمان [يعني: ذكره] وما يسرني

أني خلوت بامرأة لا تحل لي وأنَّ لي ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتي الشيطان فيحركه علي، إنه لا سمع له ولا بصر.

** روى ابن ماجة بسند صحيح عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْقُرْآنَ وَالْكِتَابَةَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا، فَقُلْتُ: لَيْسَتْ بِمَالٍ [أي لم يعد في العرف عد القوس من الأجرة فأخذها لا يضر]، وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَنْهَا، فَقَالَ: «إِنْ سَرَّكَ أَنْ تُطَوَّقَ بِهَا طَوْقًا مِنْ نَارٍ فَاقْبَلْهَا»

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُشْغَلُ، فَإِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنَّا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ، فَدَفَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– رَجُلًا، فَكَانَ مَعِي فِي الْبَيْتِ أُعَشِّيهِ عَشَاءَ أَهْلِ الْبَيْتِ، فَكُنْتُ أُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ فَانْصَرَفَ انْصِرَافَةً إِلَى أَهْلِهِ، فَرَأَى أَنَّ عَلَيْهِ حَقًّا، فَأَهْدَى إِلَيَّ قَوْسًا لَمْ أَرَ أَجْوَدَ مِنْهَا عُودًا، وَلَا أَحْسَنَ مِنْهَا عِطْفًا، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقُلْتُ: مَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ فِيهَا؟ قَالَ: (جَمْرَةٌ بَيْنَ كَتِفَيْكَ تَقَلَّدْتَهَا " أَوْ " تَعَلَّقْتَهَا) [أحمد: إسناده حسن]

** عن عيسى بن حمّاد. قال: لما حصر المسلمون الحصن [حصن بابليون في أم دُنين بمصر]، كان عبادة بن الصامت في ناحية يصلّى وفرسه عنده، فرآه قوم من الروم فخرجوا إليه وعليهم حلية وبزّة فلما دنوا منه سلّم من صلاته، ووثب على فرسه، ثم حمل عليهم، فلما رأوه غير مكذّب عنهم ولّوا راجعين، واتّبعهم، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم، ولا يلتفت إليه حتى دخلوا الحصن، ورمى عبادة من فوق الحصن بالحجارة، فرجع ولم يعرض لشيء مما كانوا طرحوا من متاعهم حتى رجع إلى موضعه الذي كان به، فاستقبل الصلاة، وخرج الروم إلى متاعهم يجمعونه [فتوح مصر والمغرب: أبو القاسم المصري]

فعن عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (مَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللهِ وَهُوَ لَا يَنْوِي فِي غَزَاتِهِ إِلَّا عِقَالًا، فَلَهُ مَا نَوَى) [أحمد: حسن لغيره]

** قال تعالى في شأن الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]

ومن أمثلة إيثار وجود عبادة، هذه القصة: قال الوليد بن عبادة: أهديت لعبادة هدية، وإن معه في الدار اثني عشر، أهل بيته، فقال عبادة: اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهو أحوج إليها منا، قال الوليد: فأخذتها، فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون: اذهبوا بها إلى آل فلان، فهم أحوج منا إليها، حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح.

فعن عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تبارك وتعالى أَنَّهُ قَالَ: (حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَحَابِّينَ فِيَّ – يَعْنِي نَفْسَهُ – وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَنَاصِحِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ) [أحمد: صحيح]

** كان عبادة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– متواضعا وهو الذي روى حديث النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في النهي عن القيام للقادم، فروى أحمد عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبَاحٍ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ يَقُولُ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُومُوا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لَا يُقَامُ لِي، إِنَّمَا يُقَامُ لِلَّهِ) [ضعيف]

وعَنْ مَكْحُولٍ: أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ دَعَا نَبْطِيًّا يُمْسِكُ لَهُ دابَّتَهُ عِنْدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَبَى، فَضَرَبَهُ فَشَجَّهُ، فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ: مَا دَعَاكَ إِلَى مَا صَنَعْتَ بِهَذَا؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَمَرْتُهُ أَنْ يُمْسِكَ دَابَّتِي فَأَبَى، وَأَنَا رَجُلٌ فِيَّ حِدَّةٌ فَضَرَبْتُهُ، فَقَالَ:

اجْلِسْ لِلقِصَاصِ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: أَتَقِيدُ عَبْدَكَ مِنْ أَخِيكَ؟ فَتَرَكَ عُمَرُ الْقَوَدَ وَقَضَى عَلَيْهِ بِالدِّيَةِ" [كنز العمال (قصاص الذمي)، وفى السنن الكبرى للبيهقي] أي دية الشج.

** عبادة والولاية.. وَرَوَى الشَّافِعِيُّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ، عَنِ ابْنِ طاووس، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَلَى صَدَقَةٍ، فَقَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، لا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ تَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِكَ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٍ لَهَا ثُؤَاجٌ» [«صوت الغنم»]. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ ذَا لِكَذَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «إِي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِلا مَنْ رحمه الله» قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا أَعْمَلُ عَلَى اثْنَيْنِ أَبَدًا. [صححه الألباني في صحيح الجامع]

وذكر خليفة بن خياط: أن أبا عبيدة ولاه إمرة حمص، ثم صرفه إلى الجهاد، وولى عبد الله بن قرط. ولما توفي أبو عبيدة ولاه عمر حمص ثم صرفه إلى الجهاد في مصر. ثم عاد إلى بلاد الشام، فلم يزل بالشام إلى أن توفي بالرملة.

قال ابن عساكر: سكن الشام، ودخل دمشق قبل فتحها وبعده.

** كان عبادة بن الصامت من أشهر قادة الفتوح في الشام ومصر، وكان مجرد وجوده في جيش يرفع معنويات الجيش الفاتح، مثل خالد بن الوليد تماماً. وقد شهد له عمر بن الخطاب بأنه يعدل ألف رجل، لامتيازه بروح عالية من التضحية، وقدرة فائقة على القتال والاقدام، وشجاعة نادرة في ميدان المعارك وعقلية راجحة في التخطيط والتقدير، وفهم أسرار العدو وتحركاته وإحباط مؤامراته، وحب في الموت في سبيل الله، وإيمان بالقضاء والقدر، وتفان في سبيل نصرة الإسلام.

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: لما أبطأ على عمر بن الخطّاب فتح مصر، كتب إلى عمرو بن العاص: أمّا بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر؛ إنكم تقاتلونهم منذ سنتين؛ وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبّ عدوّكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نيّاتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك

أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيّرهم ما غيّر غيرهم؛ فإذا أتاك كتابي هذا، فاخطب الناس، وحضّهم على قتال عدوّهم، ورغبهم في الصبر والنيّة، وقدّم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزّل الرحمة ووقت الإجابة، وليعجّ الناس إلى الله، ويسألوه النصر على عدّوهم.

فلما أتى عمرا الكتاب، جمع الناس، وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر، فقدّمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهّروا، ويصلّوا ركعتين، ثم يرغبوا الى الله عز وجل ويسألوه النصر، ففعلوا ففتح الله عليهم.

ويقال إن عمرو بن العاص استشار مسلمة بن مخلّد كما حدثنا عثمان بن صالح، عمّن حدثه، قال: أشر عليّ في قتال هؤلاء، فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك. قال: عمرو ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت. قال: فدعا عمرو عبادة فأتاه، وهو راكب على فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك إن نزلت ناولني سنان رمحك. فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له، وولّاه قتال الروم. فتقدّم عبادة مكانه، فصافّ الروم وقاتلهم، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

وفي رواية: فقدم عمرو لا يدافع إلّا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس، فقاتلوه به نحوا من شهر حتى فتح الله عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر حتى أتى أمّ دُنَين، فقاتلوه بها قتالا شديدا وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر يستمدّه فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فقاتلهم كانوا مع عمرو، فوصلوا إليه أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، ثم أحاط المسلمون بالحصن (حصن بابليون) عند أمّ دُنَين (مكان حديقة الأزبكية اليوم)، وكان أميره يومئذ (المندفور) الذي يقال له «الأعيرج» من قبل المقوقس، وهو ابن قرقب اليوناني. وكان المقوقس ينزل بالإسكندرية، وهو في سلطان هرقل، غير أنه كان حاضراً بالحصن حين حاصره المسلمون.

فقاتل عمرو بن العاص من بالحصن، وجاء رجل إلى عمرو، وقال: اندب معي خيلاء ورائهم، حتى آتي من ورا عند القتال فأخرج معه عمرو خمسمائة فارس عليهم خارجة بن حذافة في قول، فساروا من وراء الجبل، حتى وصلوا مغار بني وائل قبل الصبح. وكانت الروم قد خندقوا خندقاً، وجعلوا له أبواباً، وبثوا في أفنيتها حَسَك [شوك] الحديد، فالتقاهم القوم حين أصبحوا، وخرج خارجة من ورائهم، فانهزموا حتى دخلوا الحصن (حصن بابليون) وقاتلهم قتالاً شديداً بصبحهم وعشيتهم.

فلما أبطأ الفتح على عمرو، كتب إلى عمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يستمده، ويعلمه بذلك، فأمده بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بـن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ في قول وقيل: خارجة بن حذافة الرابع"، لا يعدون مسلمة.

وقال عمر له: اعلم أن معك اثنى عشر ألفاً، ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (عَلَيْكُمْ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، يُذْهِبُ اللهُ بِهِ الْهَمَّ وَالْغَمَّ) [أحمد: حسن]

وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عَادَ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ، فَمَا تَحَوَّزَ [تنحى] لَهُ عَنْ فِرَاشِهِ، فَقَالَ: (أَتَدْرُونَ مَنْ شُهَدَاءُ أُمَّتِي؟ " قَالُوا: قَتْلُ الْمُسْلِمِ شَهَادَةٌ. قَالَ: (إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ، قَتْلُ الْمُسْلِمِ شَهَادَةٌ، وَالطَّاعُونُ شَهَادَةٌ، وَالْمَرْأَةُ يَقْتُلُهَا وَلَدُهَا جُمْعًا [تموت وفي بطنها ولد]) [أحمد: صحيح]

وفي رواية: (قَتْلُ الْمُسْلِمِ شَهَادَةٌ، وَالطَّاعُونُ شَهَادَةٌ، وَالْبَطْنُ، وَالْغَرَقُ، وَالْمَرْأَةُ يَقْتُلُهَا وَلَدُهَا جَمْعَاءَ)

وفي رواية لمالك: (الشُّهَدَاءُ سَبْعَةٌ، سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ [ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأضلاع] شَهِيدٌ،

وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَالْحَرَقُ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ [الميتة في النفاس وولدها في بطنها] شَهِيدٌ).

** وجه عمر بن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– عبادة إلى الشام قاضياً ومعلماً، فأقام بحمص، ثم انتقل إلى فلسطين، فولي قضاءها، واستقر به المقام فيها، فكان أول من تولى قضاء فلسطين، وكان أيضاً يعلم أهلها القرآن، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها.

ومما رواه في الأقضية عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ما ذكره الإمام أحمد في مسنده عَنْ عُبَادَةَ قَالَ: إِنَّ مِنْ قَضَاءِ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّ الْمَعْدِنَ جُبَارٌ، وَالْبِئْرَ جُبَارٌ، وَالْعَجْمَاءَ جَرْحُهَا جُبَارٌ. وَالْعَجْمَاءُ: الْبَهِيمَةُ مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا. وَالْجُبَارُ: هُوَ الْهَدْرُ الَّذِي لَا يُغَرَمُ. [المقصود من الأمور الثلاثة: أن المعادن لا زكاة فيها (وقال الشافعي وأحمد: فيها ربع العشر)، والواقع في الآبار المملوكة لا يضمن، لأن كل إنسان حر التصرف في أملاكه عملا بالقاعدة الشرعية «الجواز الشرعي ينافي الضمان»، والإتلاف الذي يحدثه الحيوان من تلقاء نفسه ولم يكن عقوراً، ولا فرط مالكه في حفظه؛ لا يضمن]

وَقَضَى فِي الرِّكَازِ الْخُمُسَ. [الركاز: المال المدفون يؤخذ من غير أن يطلب بكثير عمل، سواء أكان ذهباً أو فضة أو غيرهما، وخصه الشافعي بهما، وهل المعدن ركاز؟ للعلماء فيه رأيان: قال الجمهور: لا يقال للمعدن ركاز، والركاز: المال المدفون في الأرض من كنوز الجاهلية. وقال أبو حنيفة والثوري والهادوية: إن المعدن ركاز، ففيه الخمس «نيل الأوطار»]

وَقَضَى أَنَّ تَمْرَ النَّخْلِ لِمَنْ أَبَّرَهَا إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ.

وَقَضَى أَنَّ مَالَ الْمَمْلُوكِ لِمَنْ بَاعَهُ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَاعُ.

وَقَضَى أَنَّ الْوَلَدَ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرَ.

وَقَضَى بِالشُّفْعَةِ بَيْنَ الشُّرَكَاءِ فِي الْأَرَضِينَ وَالدُّورِ.

وَقَضَى لِحَمَلِ ابْنِ مَالِكٍ الْهُذَلِيِّ بِمِيرَاثِهِ عَنْ امْرَأَتِهِ الَّتِي قَتَلَتْهَا الْأُخْرَى.

وَقَضَى فِي الْجَنِينِ الْمَقْتُولِ بِغُرَّةٍ [الغرة دية الجنين، وتقدر بخمسين دينارا أو خمسمائة درهم]: عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ، قَالَ: فَوَرِثَهَا بَعْلُهَا وَبَنُوهَا. قَالَ: وَكَانَ لَهُ مِنَ امْرَأَتَيْهِ كِلْتَيْهِمَا وَلَدٌ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاتِلَةِ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لَا صَاحَ وَلَا اسْتَهَلَّ [رفع الصوت، يقصد أنه لم تعرف حياته بصوت أو بكاء]، وَلَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ؟ فَمِثْلُ ذَلِكَ بَطَلَ [وفي رواية البخاري ومسلم: «يُطل» أي: يُهدر]. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (هَذَا مِنَ الْكُهَّانِ).

قَالَ: وَقَضَى فِي الرَّحَبَةِ تَكُونُ بَيْنَ الطَّرِيقِ، ثُمَّ يُرِيدُ أَهْلُهَا الْبُنْيَانَ فِيهَا، فَقَضَى أَنْ يُتْرَكَ لِلطَّرِيقِ فِيهَا سَبْعُ أَذْرُعٍ، قَالَ: وَكَانَتْ تِلْكَ الطَّرِيقُ تُسَمَّى الْمِيتَاءُ.

وَقَضَى فِي النَّخْلَةِ أَوِ النَّخْلَتَيْنِ أَوِ الثَّلَاثِ فَيَخْتَلِفُونَ فِي حُقُوقِ ذَلِكَ، فَقَضَى أَنَّ لِكُلِّ نَخْلَةٍ مِنْ أُولَئِكَ مَبْلَغَ جَرِيدَتِهَا حَيِّزٌ لَهَا.

وَقَضَى فِي شُرْبِ النَّخْلِ مِنَ السَّيْلِ أَنَّ الْأَعْلَى يَشْرَبُ قَبْلَ الْأَسْفَلِ، وَيُتْرَكُ الْمَاءُ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَاءُ إِلَى الْأَسْفَلِ الَّذِي يَلِيهِ، فَكَذَلِكَ يَنْقَضِي حَوَائِطُ [بساتين] أَوْ يَفْنَى الْمَاءُ.

وَقَضَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تُعْطِي مِنْ مَالِهَا شَيْئًا، إِلَّا بِإِذْنِ زَوْجِهَا.

وَقَضَى لِلْجَدَّتَيْنِ مِنَ الْمِيرَاثِ بِالسُّدُسِ بَيْنَهُمَا بِالسَّوَاءِ.

وَقَضَى أَنَّ مَنْ أَعْتَقَ شِرْكًا فِي مَمْلُوكٍ فَعَلَيْهِ جَوَازُ عِتْقِهِ، إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ.

وَقَضَى أَنْ لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ.

وَقَضَى أَنَّهُ لَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ. [أي كل ما بني أو زرع أو غرس أو احتفر في أرض غيره]

وَقَضَى بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي النَّخْلِ لَا يُمْنَعُ نَفْعُ بِئْرٍ.

وَقَضَى بَيْنَ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَنَّهُ لَا يُمْنَعُ فَضْلُ مَاءٍ لِيُمْنَعَ فَضْلُ الْكَلَأِ. [أي يحرم منع المياه المجتمعة من الأمطار، ولو كان في أرض مملوكة، إذا كان ذلك زائداً عن حاجة صاحب الأرض، فيجب عليه بذله لما فضل عن سقاية أرضه وماشيته، وللغير دخول أرضه]

وَقَضَى فِي دِيَةِ الْكُبْرَى الْمُغَلَّظَةِ ثَلَاثِينَ ابْنَةَ لَبُونٍ [اولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة. والأنثى ابنة لبون، لأن أمه وضعت غيره، فصار لها لبن]، وَثَلَاثِينَ حِقَّةً [ما كان من الإبل ابن ثلاث سنين، وقد دخل في الرابعة، والأنثى حقة وح، سمي بذلك لاستحقاقه أن يحمل عليه وينتفع به]، وَأَرْبَعِينَ خَلِفَةً [الناقة الحامل]

وَقَضَى فِي دِيَةِ الصُّغْرَى ثَلَاثِينَ ابْنَةَ لَبُونٍ، وَثَلَاثِينَ حِقَّةً، وَعِشْرِينَ ابْنَةَ مَخَاضٍ، وَعِشْرِينَ بَنِي مَخَاضٍ ذُكُورًا. [ابن المخاض: الفصيل من النوق إذا استكمل الحول ودخل في الثانية، والأنثى: ابنة مخاض، لأنه فصل عن أمه، والحقت أمه بالمخاض، أي الحوامل من النوق، سواء لقحت أو لم تلقح]

ثُمَّ غَلَتِ الْإِبِلُ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهَانَتِ الدَّرَاهِمُ، فَقَوَّمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِبِلَ الدِّيَةِ سِتَّةَ آلَافِ دِرْهَمٍ حِسَابُ أُوقِيَّةٍ لِكُلِّ بَعِيرٍ، ثُمَّ غَلَتِ الْإِبِلُ، وَهَانَتِ الْوَرِقُ [الدراهم المضروبة من الفضة]، فَزَادَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَلْفَيْنِ حِسَابَ أُوقِيَّتَيْنِ لِكُلِّ بَعِيرٍ، ثُمَّ غَلَتِ الْإِبِلُ وَهَانَتِ الدَّرَاهِمُ، فَأَتَمَّهَا عُمَرُ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا حِسَابَ ثَلَاثِ أَوَاقٍ لِكُلِّ بَعِيرٍ.

قَالَ: فَزَادَ ثُلُثَ الدِّيَةِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَثُلُثًا آخَرُ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ، قَالَ: فَتَمَّتْ دِيَةُ الْحَرَمَيْنِ عِشْرِينَ أَلْفًا.

قَالَ: فَكَانَ يُقَالُ: يُؤْخَذُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْ مَاشِيَتِهِمْ لَا يُكَلَّفُونَ الْوَرِقَ وَلَا الذَّهَبَ، وَيُؤْخَذُ مِنْ كُلِّ قَوْمٍ مَا لَهُمْ قِيمَةُ الْعَدْلِ [النظير والمثيل] مِنْ أَمْوَالِهِمْ [الحديث إسناده ضعيف وله كثير من الشواهد الصحيحة]

** السفير البليغ

حينما حاصر المسلمون حصن بابليون لفتح مصر، وكان به جماعة من الروم، وأكابر القبط ورؤسائهم، وعليهم الْمُقَوْقَس حاكم مصر، قاتلوهم بها شهرا، فلما رأى القوم الجدة منهم على فتحه، والحرص، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا

عليهم، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط، وخرجوا من باب القصر القبلي، وتركوا به جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة [موضع صناعة السفن الحربية]، وأمروا بقطع الجسر، وذلك في جري النيل، وبقي في الحصن أمير الحصن الذي يقال له «الأعيرج» من قبل المقوقس. فلما خاف فتح الحصن، ركب هو وأهل القوة والشرف، وكانت سفنهم ملصقة بالحصن، ثم لحقوا المقوقس في الجزيرة.

فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص الإسلامي الرسالة التالية:

«إنكم قد ولجتم في بلادنا، والححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم، ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فأرسلوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام، ولا يقدر عليه. ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لمطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم، نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء».

فلما أنت عمرو بن العاص رسل المقوقس، حبسهم عنده يومين وليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس، فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم، ويستحلون ذلك في دينهم!

وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين.

فرد عليهم عمرو مع رسلهم: إنه ليس بيني وبينك إلا إحدى خصال ثلاث:

–إما أن دخلتم في الإسلام، فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا.

–وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون.

–وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

فلما جاءت رسل المقوقس إليه، قال: كيف رأيتموهم

قالوا: رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا تهمة، وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون اطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم.

فقال عند ذلك المقوقس: والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم، وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم.

فرد إليهم المقوقس رسله، وقال: ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم، وتنداعى نحن وهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح لنا ولكم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر، وأحدهم عبادة بن الصامت، وهو أحد من أدرك الإسلام من العرب، وطوله عشرة أشبار، وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إلا إحدى هذه الثلاث الخصال؛ فإن أمير المؤمنين قد تقدم في ذلك إلي، وأمرني ألا أقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث الخصال.

وكان عبادة بن الصامت أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس، ودخلوا عليه، تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده، فقال: نحوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني. فقالوا: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا، والمقدم علينا، وإنا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله.

فقال المقوقس للوفد: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون دونكم؟

قالوا: كلا! إنه وإن كان أسود كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعاً وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً، وليس ينكر السواد فينا.

فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق، فإني أهاب سوادك، وإن اشتد علي كلامك، ازددت لك هيبة.

فتقدم إليه عبادة، فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل أسود كلهم مثلي، وأشد سواداً مني وأفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني، وأنا قد وليت، وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي.

وذلك إنما رغبتنا وبغيتنا الجهاد في سبيل الله تعالى، واتباع رضوان الله، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا، ولا طلباً للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا، وما يبالي أحدنا: أكان له قنطار من ذهب، أم كان لا يملك إلا درهماً! لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها، يسد بها جو عنه، وشملة يلتحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على هذا الذي بيده؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربنا، وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا فيما يُمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضا ربه، وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه، قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط! لقد هبت منظره؛ وإن قوله لأهيب عندي من منظره، إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها.

ثم أقبل المقوقس على عبادة فقال: أيها الرجل، قد سمعت مقالتك، وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، ولا ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل.

وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً، وأنتم في ضيق وشدة في معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم

دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به.

فقال عبادة بن الصامت –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: يا هذا؛ لا تغرن نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه.

إن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قتلنا من آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا، ولا أحب إلينا ذلك، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين.

إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله تعالى قال لنا في كتابه: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249]

وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء: أن يرزقه الشهادة، وألا يرد إلى بلده، ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده؛ وإنما همنا ما أمامنا.

وأما قولك: إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه. فانظر الذي تريد، فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل؛ بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين؛ وهو عهد رسول الله من قبل إلينا.

أما إن أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له

مالنا وعليه ما علينا وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك، فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم.

وإن أبيتم إلا الجزية، فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم، إذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد الله علينا.

وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم.

هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم.

فقال المقوقس: هذا مما لا يكون أبداً، ما تريدون إلا أن تنخذونا عبيداً ما كانت الدنيا.

فقال له عبادة: هو ذاك، فاختر ما شئت.

فقال المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الخصال الثلاث؟

فرفع عبادة يديه، وقال: لا، ورب السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه وقال: قد فرغ القول مما ترون؟ فقالوا: أو يرضى أحد بهذا الذل؟! أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم، فهذا لا يكون أبداً، ولا تترك دين المسيح ابن مريم، وندخل في دين لا نعرفه، وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداً أبداً، فالموت أيسر من ذلك، لو رضوا منا أن تضعف لهم ما أعطيناهم مراراً، كان أهون علينا.

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى؟ فراجع صاحبك، على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون. فقام عبادة وأصحابه.

فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك: أطيعوني، وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث، فوالله مالكم طاقة! بهم وإن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم منها كارهين.

فقالوا: أي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: إذا أخبركم.. أما دخولكم في غير دينكم، فلا آمركم به؛ وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقدروا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة

قالوا: فنكون لهم عبيداً أبداً؟ قال: نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيداً، وتباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً، أنتم وأهلوكم وذراريكم.

قالوا: فالموت أهون علينا. وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط والجزيرة، وبالقصر من جمع الروم والقبط جمع كثير ".

فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم، وأمكن الله منهم، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من أسر منهم، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة.

وبه يتبين أن فتح مصر كان عنوة أي قهراً وهو الراجح.

ثم طلب المقوقس وأصحابه عقد صلح مع المسلمين، فتم الصلح على فرض جزية دينارين على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها.

وهذا الصلح لا مانع منه بعد الفتح القهري، كما فعل بأهل العراق، فهي فتحت عنوة سنة ٢٠ هـ، ولكنها عوملت معاملة الصلح، فأقرت الأرض بيد أهلها ووضع على أرضهم الخراج وعلى أشخاصهم الجزية.

** ولقد كان النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كما هو معروف أميا لا يقرأ ولا يكتب، وبسبب أميته عليه الصلاة والسلام، وتأثره بوطأة الوحي، وحرصاً منه على الحفاظ على القرآن الكريم، اتخذ كتاباً للوحي، فقد دعا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من صحابته

للمثول بين يديه لكتابة الوحي. وبلغ عدد كتاب الوحي أربعين صحابياً، منهم عبادة بن الصامت، والخلفاء الأربعة، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وغيرهم.

وكان عبادة ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ، روى البخاري وابن سعد في ترجمته من طريق محمد بن كعب القرظي أنه ممن جمع القرآن في عهد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وكان الذين جمعوا القرآن في زمن النبي له خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب، وأبو الدرداء.

وتولى عبادة تعليم القرآن أيضاً في عهد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وما بعده، فكان يعلم أهل الصفة القرآن في زمن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب: «قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم» فأرسل عمر معاذ بن جبل وعبادة وأبا الدرداء، فأقام عبادة بحمص، ثم انتقل إلى فلسطين، فمات بها. وأقام أبو الدرداء بدمشق، ومات معاذ في فلسطين عام طاعون عَمَواس.

روى أحمد بسند صحيح عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، قَالَ: أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- آيَةً، وَأَقْرَأَهَا آخَرَ غَيْرَ قِرَاءَةِ أُبَيٍّ، فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَهَا؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قُلْتُ: وَاللهِ لَقَدْ أَقْرَأَنِيهَا كَذَا وَكَذَا، قَالَ أُبَيٌّ: فَمَا تَخَلَّجَ فِي نَفْسِي مِنَ الْإِسْلَامِ مَا تَخَلَّجَ يَوْمَئِذٍ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَمْ تُقْرِئْنِي آيَةَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: (بَلَى) قَالَ: فَإِنَّ هَذَا يَدَّعِي أَنَّكَ أَقْرَأْتَهُ كَذَا وَكَذَا، فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي، فَذَهَبَ ذَاكَ، فَمَا وَجَدْتُ مِنْهُ شَيْئًا بَعْدُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَتَانِي جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ مِيكَائِيلُ: اسْتَزِدْهُ، قَالَ: اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، قَالَ: اسْتَزِدْهُ، حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ، قَالَ: كُلٌّ شَافٍ كَافٍ).

** أشهر الروايات وأصحها وأكثرها تؤكد أن عبادة توفي بفلسطين سنة ٣٤ هـ، (أربع وثلاثين هجرية) الموافق ٦٥٤ م في خلافة عثمان بن عفان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، وله ٧٢ (اثنتان وسبعون سنة)، ودفن بالرملة.

** وصيته الخالدة لذويه: أخرج البيهقي وابن عساكر عن عبادة بن محمد بن عبادة ابن الصامت قال: لما حضرت عبادة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– الوفاة قال: أخرجوا إلي موالي وخدمي وجيراني ومن كان يدخل علي فجمعوا له فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي علي من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو والذي نفسي بيده القصاص ذلك يوم القيامة، وأحرج على أحد منكم في نفسه شيء مني إلا اقتص مني قبل أن تخرج نفسي. فقالوا: بل كنت والدا وكنت مؤدباً. ولم يكن عبادة قال لخادم سوءاً قط فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد.

ثم قال: أما لا فاحفظوا وصيتي: أحرج على إنسان منكم يبكي علي. فإذا خرجت نفسي فتوضأوا وأحسنوا الوضوء، ثم ليدخل كل إنسان منكم مسجداً، فيصلي، ثم يستغفر لعبادة ولنفسه، فإن الله تعالى قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45] أسرعوا بي إلى حفرتي، ولا تتبعني ناراً، ولا تضعوا تحتي أرجواناً [شجر له ورد أحمر].

** وصيته لابنه بالإيمان بالقدر خيره وشره:

أخرج الإمام أحمد عَنْ أَيُّوبَ بْنِ زِيَادٍ، حَدَّثَنِي عُبَادَةُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ، وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، أَوْصِنِي وَاجْتَهِدْ لِي. فَقَالَ: أَجْلِسُونِي. فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغْ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللهِ، حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدَرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ

لِيُخْطِئَكَ، يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ، دَخَلْتَ النَّارَ» [صحيح]

** وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عَنْ الصُّنَابِحِيّ أَنَّهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَهْلًا، لِمَ تَبْكِي؟ فَوَاللهِ لَئِنْ اسْتُشْهِدْتُ لَأَشْهَدَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ شُفِّعْتُ لَأَشْفَعَنَّ لَكَ، وَلَئِنْ اسْتَطَعْتُ لَأَنْفَعَنَّكَ، ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ مَا حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَكُمْ فِيهِ خَيْرٌ إِلَّا حَدَّثْتُكُمُوهُ، إِلَّا حَدِيثًا وَاحِدًا سَوْفَ أُحَدِّثُكُمُوهُ الْيَوْمَ، وَقَدْ أُحِيطَ بِنَفْسِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، حُرِّمَ عَلَى النَّارِ). أي من الخلود فيها، وهذا طريق أصل الإيمان، أما بقية أحكام الإسلام من صلاة وصيام ونحوها فلابد منها أيضا، ولها مسئولية خاصة بها.

أشهر المصادر

«عبادة بن الصامت» صحابي كبير وفاتح مجاهد د. وهبة الزحيلي

كتب التاريخ الإسلامي

كتب السنة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

عمرو بن العاص

الأمير المجاهد

في سفره النفيس «عمرو بن العاص الأمير المجاهد» يعيش الكاتب د. منير الغضبان في أجواء صادقة يصف خلالها سيرة هذا الطود الشامخ من صحابة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الكرام، ويتصدر الكتاب بتلك المقولة الواقعية التي تلخص حجم المؤامرة التاريخية على هذا الأمير المجاهد حيث يقول: ما إن تذكر عمرا حتى يتبادر إلى الناس ذلك الخادع المحتال الذي خدع أبا موسى الأشعري ونقض اتفاقه معه وأبقى بمعاوية وخلع عليا، وبذلك ينصرف عامة الناس عن ذكر عمرو بن العاص.

فهل يجوز لمثل هذه الشخصية العظيمة أن تبقى غُفلا في التاريخ لا يعرف عنها إلا المكر والخديعة؟

** قال عمر بن الخطاب عن عمرو بن العاص –رضي الله عنهما–: "ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض إلا أميرا".

وما قال هذا إلا أن عمرو من الوسامة والجمال والجسم الممتلئ والقامة المتسقة مثل أبيه العاص بن وائل.. قال ذاخر المعافري: قام عمرو بن العاص على المنبر فرأيت رجلا ربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج [أسود العينين] أبلج [مضيء مشرق] عليه ثياب موشية كأن بها العقيان [الذهب الخالص] تتألق عليه وعليه حلة وعمامة وجبة.

وقال عثمان بن عفان: "إن عمرو لجرأ وفيه أقدام وحب للإمارة".

وقال الليث بن سعد: "قال عمرو بن العاص: ما كنت بشيء أتجر مني بالحرب".

وقال عمرو يصف موقعه عند رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "فوالله ما عدل بي رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه في أمر حزبه منذ

أسلمنا، وقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة، لقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب".

** ويقول الصديق لعمر –رضي الله عنهما–: "دعه فإنما ولاه رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– علينا لعلمه بالحرب".

** قال ابن حجر في الإصابة عن يحيى بن بكير عن الليث: توفي وهو بن تسعين سنة. قلت قد عاش بعد عمر عشرين سنة. وقال العجلي: عاش تسعا وتسعين سنة، وكان عمر عُمَر ثلاثا وستين. وقد ذكروا أنه كان يقول: أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب أخرجه البيهقي بسند منقطع فكأن عمره لما ولد عمر سبع سنين.

** أبوه العاص بن وائل السهمي زعيم من زعماء قريش في الجاهلية، وقاد بني سهم في حرب الفجار، وكان عمر عمرو عشر سنين، أما أمه فكانت من سبايا العرب.

** وذكر أنه جُعل لرجل ألف درهم على أن يسأل عمرو بن العاص عن أمه وهو على المنبر فسأله، فقال: أمي سلمى بنت حرملة تلقب النابغة من بني عنزة أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأنجبت فإن كان جُعل لك شيء فخذه.

** إسلامه كان سنة ثمان للهجرة مع عثمان بن طلحة [هو حاجب الكعبة]، ولما رآهم النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها)

** قيل لعمرو بن العاص ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت في عقلك؟ فقال: إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن توازى حلومهم الجبال، ما سلكوا فجا فتبعناهم إلا وجدناه سهلا، فلما أنكروا على النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في أمر النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وتدبرنا فإذا الأمر بيّن، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك في إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم على أمرهم، فبعثوا إلي فتى منهم فقال أبا عبد الله إن قومك قد ظنوا بك الميل إلى محمد. فقلت له: يا ابن أخي إن كنت تحب أن تعلم ما عندي فموعدك الظل من حراء فالتقينا هناك فقلت إني أنشدك الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم؟ قال: اللهم بل نحن. فقلت: أفنحن أوسع معاشا وأعظم ملكا أم فارس والروم؟ قال: بل فارس والروم. قلت: فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم فيها أكثر منا أمرا، قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث بعد الموت حق ليجزى المحسن في الآخرة بإحسانه والمسيء بإساءته، هذا يا ابن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في التمادي في الباطل.

لقد كان هذا الأمر بالتأكيد بعد الخندق وبعد التخلف عن الحديبية وبعد الاعتزال في أرضه ومزرعته بالوهط التي بذل جل ماله في اقتنائها وتحسينها.

** وروى البيهقي بسنده إلى زيد بن أسلم قال: قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك، كيف لم تكن من المهاجرين الأولين؟ فقال له عمرو: وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستقيم –أو قال لا يستطيع– التخلص منه إلا إلى ما أراد الذي بيده. فقال عمر: صدقت.

** قال ابن عساكر في تاريخ دمشق: عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد بن سهم بن عمرو.. يكنى أبا عبد الله، أمه النابغة من بني عنزة بن أسد بن ربيعة

بن نزار، كان يخضب بالسواد، خرج إلى الحبشة إلى النجاشي بعد الأحزاب فأسلم عنده بالحبشة، فأخذه أصحابه بالحبشة فغموه فأفلت منهم مجردا ليس عليه قشرة، فأظهر للنجاشي إسلامه فاسترجع من أصحابه جميع ماله ورده عليه، فقدم هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة مهاجرين المدينة إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فتقدم خالد فبايع ثم تقدم هو فبايعه على أن يغفر له ما كان قبله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الهجرة والإسلام يجب ما قبله).

** أخرج أحمد وغيره من حديث عمرو بن العاص يقول: فزع الناس بالمدينة مع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فتفرقوا، فرأيت سالماً احتبى سيفه فجلس في المسجد، فلما رأيت ذلك فعلت مثل الذي فعل، فخرج رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فرآني وسالماً وأتى الناس فقال: (أيها الناس ألا كان مفزعكم إلى الله ورسوله؟ ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان؟) وهذا إسناد صحيح... وهذه مرة يشهد له -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالإيمان.

** روى أحمد من حديث عَلْقَمَةَ بْنِ رِمْثَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بَعَثَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سَرِيَّةٍ وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَنَعَسَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. فَقَالَ: (يَرْحَمُ اللهُ عمرًا) قَالَ: فَتَذَاكَرْنَا كُلَّ مَنِ اسْمُهُ عَمْرٌو، قَالَ: فَنَعَسَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَقَالَ: (يَرْحَمُ اللهُ عَمْرًا) قَالَ: ثُمَّ نَعَسَ الثَّالِثَةَ، فَاسْتَيْقَظَ، فَقَالَ: (يَرْحَمُ اللهُ عَمْرًا) فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ عَمْرٌو هَذَا؟ قَالَ: (عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ) قُلْنَا: وَمَا شَأْنُهُ؟ قَالَ: (كُنْتُ إِذَا نَدَبْتُ النَّاسَ إِلَى الصَّدَقَةِ، جَاءَ فَأَجْزَلَ مِنْهَا، فَأَقُولُ: يَا عَمْرُو، أَنَّى لَكَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ عِنْدِ اللهِ. وَصَدَقَ عَمْرٌو، إِنَّ لَهُ عِنْدَ اللهِ خَيْرًا كَثِيرًا).

** روى أحمد عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ لَا أُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– شَيْئًا إِلَّا أَنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (إِنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ صَالِحِي قُرَيْشٍ) قَالَ وَزَادَ عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ وَرْدٍ عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ طَلْحَةَ قَالَ: (نِعْمَ أَهْلُ الْبَيْتِ عَبْدُ اللَّهِ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَأُمُّ عَبْدِ اللَّهِ).

** وروى أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رضي الله عنه– قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (ابْنَا الْعَاصِ مُؤْمِنَانِ عَمْرٌو وَهِشَامٌ).. وهذه مرة ثانية يشهد له –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بالإيمان.

وهشام كان قد سبق عمرا بالإسلام، وهاجر إلى الحبشة، واستشهد باليرموك، لكن عمرا –رضي الله عنه– لنفاسة معدنه لحق بأخيه، وإن كان دائما يفضل أخاه عليه.. فعن محمد بن الأسود بن خلف قال: كنا جلوسا في الحجر في أناس من قريش إذ قيل: قدم الليلة عمرو بن العاص قال: فما أكثرنا أن دخل علينا فمددنا إليه أبصارنا فطاف ثم صلى في الحجر ركعتين وقال: أقرصتموني؟ قلنا: ما ذكرناك إلا بخير ذكرناك وهشام بن العاص فقلنا: أيهما أفضل؟ قال بعضهم: هذا وقال بعضنا: هشام. قال: أنا أخبركم عن ذلك، أسلمنا وأحببنا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وناصحناه ثم ذكر يوم اليرموك فقال: أخذت بعمود الفسطاط ثم اغتسلت وتحنطت ثم تكفنت فعرضنا أنفسنا على الله –عز وجل– فقبله فهو خير مني – يقولها ثلاثا –

وفي رواية أخرى يتحدث عمرو عن فضائل أخيه فيقول: أسلم قبلي، وأمة بنت هاشم بن المغيرة وأمي سبية، وكان أحب إلى أبيه مني، وتعرفون فراسة الوالد.

** وروى أحمد عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (أَسْلَمَ النَّاسُ وَآمَنَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ)

** قال عنه الذهبي: "عمرو بن العاص بن وائل، الإمام أبو عبد الله، ويقال أبو محمد السهمي، داهية قريش، ورجل العالم، ومن يضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم".

** روى مجالد عن الشعبي أنه قال:" دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، فأما معاوية فللأناة والحلم، وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير".

** عن شعيب بن يعقوب قال اجتمع معاوية وعمرو بن العاص، فقال معاوية لعمرو: من الناس؟ قال أنا وأنت ومغيرة وزياد. قال وكيف ذاك؟ قال أما أنت فللتأني، وأما أنا فللبديهة، وأما مغيرة فللمعضلات، وأما زياد فللصغير والكبير. قال له معاوية: أما ذانك فقد غابا، فهات قولك أنا للبديهة، وأما أنا فللأناة فهات بديهتك. قال: وتريد ذاك؟ قال: نعم. قال: فأخرج من عندك، فأمرهم فخرجوا حتى لم يبق في البيت غيرهما. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين أسارك، قال: فأدنى رأسه منه. قال: هذا من ذاك ومن معنا في البيت حتى أسارك؟؟!!

** ويتجاوز عمرو –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بيئته وقومه العرب لينازل دهاة العالم كما قال عمر بن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يوم وجهه لفتح فلسطين، وكان فيها داهيتها الرهيب «الأرطبون» وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورا وأنكاها فعلا، وقد كان وضع في الرملة جندا عظيما، وبإيلياء جندا عظيما وكتب عمرو إلى عمر بالخبر، فلما جاءه كتاب عمرو قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فنظروا عما تنفرج.

ونفذ عمرو خدعته بالأرطبون حيث تنكر باسم أحد جنوده رسولا إليه، وأدرك الأرطبون بدهائه أن الذي بين يديه عمرو أو من يثق به عمرو، فبيت قتله، وتمكن عمرو من النجاة من الأرطبون بحيلته العجيبة حين أوهمه أنه سيأتي بعشر رجال مثله، وعندما بلغت

الحيلة الأرطبون قال: خدعني الرجل، هذا أدهى الخلق. فبلغت عمر فقال: غلبه عمرو لله در عمرو.

** وروي أن عمرو بن العاص دخل على عمر بن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما–، وهو على مائدته جاثياً على ركبتيه، وأصحابه كلهم على تلك الحال، وليس في الجفنة فضل لأحد يجلس، فسلم عمرو على عمر، فرد عليه السلام، قال عمرو بن العاص؟ قال: نعم، فأدخل عمر يده في الثريد فملاها ثريداً ثم ناولها عمرو بن العاص، فقال: خذ هذا، فجلس عمرو، وجعل الثريد في يده اليسرى، ويأكل باليمنى، ووفد أهل مصر ينظرون إليه، فلما خرجوا، قال الوفد لعمرو: أي شيء صنعت؟!

فقال عمرو: إنه والله لقد علم أني بما قدمت به من مصر لغني عن الثريد الذي ناولني، ولكن أراد أن يختبرني، فلو لم أقبلها للقيت شراً.

** قال ابن الجوزي في المنتظم:

وفي هذه السنة –أي السنة العاشرة– أرسل رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عمرو بن العاص بعد رجوعه من الحج لأيام بقين من ذي الحجة إلى جيفر وعبد ابني الجلندي بعمان يدعوهما إلى الإسلام.

وكتب معه كتابًا إليهما وختم الكتاب، قال عمرو: فلما قدمت عمان عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خُلقًا. فقلت: إني رسول رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إليك وإلى أخيك. فقال: أخي المقدم بالسرّ والملك، وأنا أوصلك إليه حتى تقرأ كتابك. فمكثت أيامًا ببابه ثم إنه دعاني فدخلت عليه فدفعت إليه الكتاب مختومًا ففض خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخرة ثم دفعه إلى أخيه فقرأه إلا أني رأيتَ أخاه أرق منه.

فقال: دعني يومي هذا وارجع إليّ غدا، فلما كان الغد رجعت إليه فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلًا ما في يدي. قلت: فإني خارج

غدًا، فلما أيقن بمخرجي أصبح فأرسل إليّ فدخلت عليه فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا وصدقا بالنبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وخليا بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا لي عونًا على من خالفني، فأخذت الصدقة من أغنيائهم فرددتها في فقرائهم، ولم أزل مقيمًا بينهم حتى بلغنا وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

** عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ الأَشْعَرِيِّ، عَنْ رَابِّهِ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ، كَانَ خَلَفَ عَلَى أُمِّهِ بَعْدَ أَبِيهِ، كَانَ شَهِدَ طَاعُونَ عَمَوَاسَ، قَالَ: لَمَّا اشْتَعَلَ الْوَجَعُ قَامَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فِي النَّاسِ خَطِيبًا، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ رَحْمَةُ رَبِّكُمْ، وَدَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ، وَمَوْتُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقْسِمَ لَهُ مِنْهُ حَظَّهُ.

قَالَ: فَطُعِنَ فَمَاتَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَاسْتُخْلِفَ عَلَى النَّاسِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَقَامَ خَطِيبًا بَعْدَهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ رَحْمَةُ رَبِّكُمْ، وَدَعْوَةُ نَبِيِّكُمْ، وَمَوْتُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ مُعَاذًا يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقْسِمَ لآلِ مُعَاذٍ مِنْهُ حَظَّهُ، قَالَ: فَطُعِنَ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ مُعَاذٍ فَمَاتَ، ثُمَّ قَامَ فَدَعَا رَبَّهُ لِنَفْسِهِ فَطُعِنَ فِي رَاحَتِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، ثُمَّ يُقَبِّلُ ظَهْرَ كَفِّهِ، ثُمَّ يَقُولُ: مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي فِيكِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا، فَلَمَّا مَاتَ اسْتُخْلِفَ عَلَى النَّاسِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَامَ فِينَا خَطِيبًا، فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذَا الْوَجَعَ إِذَا وَقَعَ إِنَّمَا يَشْتَعِلُ اشْتِعَالَ النَّارِ فَتَجَبَّلُوا مِنْهُ فِي الْجِبَالِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَبُو وَاثِلَةَ الْهُذَلِيُّ: كَذَبْتَ، وَاللَّهِ لَقَدْ صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَأَنْتَ شَرٌّ مِنْ حِمَارِي هَذَا.

قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرُدُّ عَلَيْكَ مَا تَقُولُ، وَأَيْمُ اللَّهِ لاَ نُقِيمُ عَلَيْهِ ثُمَّ خَرَجَ، وَخَرَجَ النَّاسُ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ وَدَفَعَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، مِنْ رَأْيِ عَمْرٍو فَوَاللَّهِ مَا كَرِهَهُ.

لقد كان عمرو –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يتحدث عن جانب غير الجانب الذي يتحدث عنه الأميران العظيمان: أبو عبيدة ومعاذ بن جبل. وكان يؤرقه الوقوف استسلاما أمام امتداد

الطاعون ونهشه في الأمة، وكان رأي عمر أمير المؤمنين مواجهة هذا الاستسلام حيث أشار على أبي عبيدة بقوله: "سلام عليك، أما بعد فإنك أنزلت الناس أرضا عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة" ولكن إصابة أبي عبيدة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– حالت دون ذلك، وجاء عمرو –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– لينطلق منطلقات أمير المؤمنين نفسها في دعوة الأمة إلى الصعود إلى الجبال هربا من الطاعون، غير أن أبا وائل –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– رأى قول عمرو يختلف عن سابقيه فأغلظ القول لأميره، ولم يغضب الأمير الحليم العظيم، وقال لأخيه الجندي المتطاول "وَاللَّهِ مَا أَرُدُّ عَلَيْكَ مَا تَقُولُ" تعظيما للصحبة النبوية عنده، ولكن هذا لم يثنه عن توجيه أوامره للأمة لصعود الجبال، وصرف الله البلاء عن الأمة بذلك.

** من أقوال عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

– قال عمرو بن العاص –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– لابنه: يا بني احفظ علي ما أوصيك به، إمام عدل خير من مطر وبل، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، في "المنهاج": ومن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا، ومن ممادح أهل العلم: أنهم يخطئون، ولا يكفرون، وسبب ذلك: أن أحدهم قد يظن أن ما ليس بكفر كفرا.

– "لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل".

فالإمام العادل رأس السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، وهو الذي تقوم به الدول وتحيا به الأمم.

– قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ: يَا أَمِيرَ المؤمنين! لا تكونن لِشَيْءٍ مِنْ أُمُورِ رَعِيَّتِكَ أَشَدَّ تَفَقُّدًا مِنْكَ لِخَصَاصَةِ الشَّرِيفِ حَتَّى تَعْمَلَ فِي سَدِّهَا، وَلِطُغْيَانِ اللَّئِيمِ حَتَّى تَعْمَلَ فِي قَمْعِهِ، وَاسْتَوْحِشْ مِنَ الْكَرِيمِ الْجَائِعِ وَمِنَ اللَّئِيمِ الشَّبْعَانِ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمِ يَصُولُ إِذَا جَاعَ، وَاللَّئِيمِ يَصُولُ إِذَا شَبِعَ.

– "ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين".

فالحكيم المجرب والقائد المحنك والإداري العبقري هو الذي تهجم عليه جموع الشر من كل جانب فيعرف أيها يستقبل وأيها يبعد، يعرف الأولويات الحقيقية للموقف فيقدم الأهم على المهم.

– قيل لعمرو بن العاص –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: "ما العقل؟ قال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان".

فلا عقل لمن لا يعتبر بما مضى، ويفقه التصرف المناسب الجديد على ما سبق، ومن لم تسقه فراسته في الرجال والأشياء إلى أن تكون أقرب إلى الحقيقة، فليس من العقلاء الكبار بين قومه.

– "موت ألف من العِلية، أقل ضررا من ارتفاع واحد من السِّفلة"

فالخسارة بموت العظماء والفضلاء، أقل ضرر من ارتفاع السفلة أهل اللؤم والخسة لأنه يمرغ كرامة والأمة وشرفها بالوحل، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (207)} [البقرة]

– قال عمرو بن العاص: الرجال ثلاثة: فرجل تام، ونصف رجل، ولا شيء

فأما الرجل التام فالذي يكمل الله له دينه وعقله، فإذا أراد أمرا لم يمضه حتى يستشير أهل الرأي والألباب، فإذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه فلا يزال ذلك مضيا موفقا.

والنصف رجل الذي يكمل الله له دينه وعقله، فإذا أراد أمرا لم يستشر فيه أحدا، وقال: أي الناس كنت أطيعه أو أترك رأيي لرأيه، فيصيب ويخطئ.

والذي لا شيء الذي لا دين ولا عقل، ولا يستشير فلا يزال ذلك مخطئا مدبرا

قال عمرو: والله إني لأستشير في الأمر الذي أردته حتى لأستشير خدمي وما علي بعرض عقولهم وأسمع.

– عن علي بن عبد الله بن سفيان قال: قال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص: ما السرور يا أبا عبد الله؟ قال الغمرات ثم تنجلي

وقال عمرو بن العاص لجلسائه –وتذاكروا شيئا من أمر الدنيا– أي شيء رأيتم أحسن؟ فذكروا النساء المرأة الحسنة والدابة، فقال عمرو: وما شيء أحسن من غمرات ثم تنجلي

فالسرور عند أقزام الرجال وأنصافهم وأشباههم شيء، وعند عظماء الرجال وصانعي الأمم شيء آخر، فصانعو الأمم هم الذين يخوضون الأهوال ويتحدون الصعاب ويتنقلون من معركة إلى معركة ومن هول إلى هول حتى يثبتوا وجود أمتهم تحت الشمس، وتكون لها دور الريادة في البشرية.

إن السرور عند –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: «غمرات ثم تنجلي» لأن سرور العظماء بتحقيق أمجاد لأمتهم لا بالتسكع على أبواب اللذات البهيمية.

يقول الشاطبي –رحمه الله تعالى–: "المقصد الشرعي مِن وضْع الشريعة هو إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد الله اضطراراً"

– عن سفيان قال معاوية بن أبي سفيان لعمرو بن العاص: ما ألذ الأشياء؟ قال: يا أمير المؤمنين مر أحداث قريش فليقوموا، فلما قاموا قال: "إسقاط المروءة"

يريد أن الرجل إذا لم يهمه مروءته تلذذ وعمل ما يشتهي ولم يلتفت إلى لوم لائم.

– سأله معاوية: ما بقي من لذة الدنيا تلذه؟ قال: محادثة أهل العلم، وخبر صالح يأتيني من ضيعتي.

– قال معاوية لعمرو بن العاص: من أبلغ الناس؟ قال: من اقتصر على الإيجاز، وسلب الفضول.

قال: فمن أصبر الناس؟ قال: من كان رأيه رادا لهواه.

قال: فمن أسخى الناس؟ قال: من بذل دنياه في صلاح دينه.

قال: فمن أشجع الناس؟ قال: من رد جهله بحلمه.

** ومن أقواله أيضا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

– استراح من لا عقل له.

– يا بني زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر

وفي رواية: زلة الرجل عظم يجبر وزلة النساء لا تبقي ولا تذر

– يا بني مزاحمة الأحمق خير من مصافحته.

– ليس الحليم من يحلم عن من يحلم عنه، ويجاهل من جاهله، إنما الحليم من يحلم على من يجور عليه، ومن يحلم عن من جاهله.

– أربعة لا أملهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملتني، وامرأتي ما أحسنت عشرتي. وفي رواية: وإن الملال من سيء الأخلاق.

– قال عمرو لمعاوية –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما–: ما بطن قوم إلا فقدوا عقولهم، ما قضيت عزيمة رجل مات بطينا.

– عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال: لا وجع إلا العين، ولا حزن إلا الدين.

– عن علي بن رباح اللخمي قال عمرو بن العاص: انتهى عجبي إلى ثلاث: المرء يفر من القدر وهو لاقيه، ويرى في أعين أخيه القذاة فيعيبها ويكون في عينه مثل الجذع فلا يعيبها، ويكون في دابته الصعر ويقومها جهده ويكون في نفسه الصعر فلا يقومها

– عن حيان بن أبي حيلة قال: قيل لعمرو بن العاص ما المروءة؟ فقال: يصلح الرجل ماله، ويحسن إلى إخوانه.

– عن موسى بن علي قال سمعت أبي قال كنت مع عمرو بن العاص بالإسكندرية فانكسف القمر، فأصبحنا مع عمرو، فقال له رجل من القوم: لقد حدثنا شيطان هذه

المدينة أن القمر سيكسف من الليلة. فقال رجل ممن صحب النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : كذب عدو الله هذا، هم علموا ما في الأرض فما علمهم ما في السماء؟ قال فلم يرد عمرو عليه بذلك كثيرا ثم قال عمرو: إنما الغيب خمسة فما سوى ذلك يعلمه قوم ويجهله آخرون ثم إنه قرأ: {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان:34]

– ثلاثة لا أناة فيهم: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت، وتزويج الكفء.

– وكان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– خارجا عن سلطان بطنه، فهو يرى الطعام وسيلة للعيش وليست لذة تقصد، فعن أَبِي قَيْسٍ مَوْلَى عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ كَانَ يَسْرُدُ الصَّوْمَ، وَقَلَّمَا كَانَ يُصِيبُ مِنْ الْعَشَاءِ أَوَّلَ اللَّيْلِ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُصِيبُ مِنْ السَّحَرِ، قَالَ: وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: (إِنَّ فَصْلًا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ)

– عن ربيعة بن لقيط قال: سمعت عمرو بن العاص وهو يصلي من الليل وهو يبكي ويقول: "اللهم إنك آتيت عمرا مالا، فإن كان أحب إليك أن تسلب عمرا ماله ولا تعذبه بالنار فاسلبه ماله، وإنك آتيت عمرا ولدا، فإن كان أحب إليك أن تثكل عمرا ولده ولا تعذبه بالنار فأثكله ولده، وإنك آتيت عمرا سلطانا، فإن كان أحب إليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار فانزع منه سلطانه".

ولهذا قال وهب بن منبه –رحمه الله–: قيام الليل يشرف به الوضيع ويعز به الذليل، وصيام النهار يقطع عن صاحبه الشهوات، وليس للمؤمنين راحة دون دخول الجنة.

– عَنْ قَبِيصَةَ بنِ جَابِرٍ قال: قَدْ صَحِبْتُ عَمْرَو بنَ العَاصِ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَبْيَنَ، أَوْ أَنْصَعَ رَأْياً، وَلاَ أَكْرَمَ جَلِيْساً مِنْهُ، وَلاَ أَشْبَهَ سَرِيْرَةً بِعَلاَنِيَةٍ مِنْهُ.

– قَالَ مُحَمَّدُ بنُ سَلاَّمٍ الجُمَحِيُّ: كَانَ عُمَرُ إِذَا رَأَى الرَّجُلَ يَتَلَجْلَجُ فِي كَلاَمِهِ، قَالَ: خَالِقُ هَذَا وَخَالِقُ عَمْرِو بنِ العَاصِ وَاحِدٌ"... فمع أنه في قمة الأمة فصاحة وبلاغة، لم يكن عمرو –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يجد مثلا يضربه للفصاحة غيره.

– وقد أخطأ مرة في حق أخيه مسلمة بن مخلد عندما صرعه خصمه الرومي فقال لمسلمة: "ما بال الرجل المسنة الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال"

ثم هدأ غضبه ورأى كيف أنقذه مسلمة من الموت فاستحيا عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، فقال عمرو عند ذلك: استغفر لي ما كنت قلت لك، فاستغفر له، وقال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار: مرّتين في الجاهلية، وهذه الثالثة، وما منهنّ مرّة إلا وقد ندمت، وما استحييت من واحدة منهنّ أشدّ مما استحييت مما قلت لك، ووالله إني لأرجو أن لا أعود إلى الرابعة ما بقيت.

وفاة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

** عن عبد الرحمن بن شِمَاسَةَ قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة بكى فقال له عبد الله: لم تبكي؟ أجزع من الموت؟ قال: لا والله ولكن ما بعد فقال له فكنت على خير فجعل يذكره صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وفتوحه الشام فقال عمرو بن العاص تركت أفضل من ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله

** روى مسلم من حديث ابْنِ شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ: حَضَرْنَا عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ وَهُوَ فِي سِيَاقَةِ الْمَوْتِ فَبَكَى طَوِيلًا وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ يَا أَبَتَاهُ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَذَا قَالَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنِّي وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدْ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقُلْتُ ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلْأُبَايِعْكَ فَبَسَطَ يَمِينَهُ قَالَ فَقَبَضْتُ يَدِي قَالَ مَا لَكَ يَا عَمْرُو قَالَ قُلْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ قَالَ تَشْتَرِطُ بِمَاذَا قُلْتُ أَنْ يُغْفَرَ لِي قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ

وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ وَمَا كَانَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنِي مِنْهُ وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ وَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ وَلِينَا أَشْيَاءَ مَا أَدْرِي مَا حَالِي فِيهَا فَإِذَا أَنَا مُتُّ فَلَا تَصْحَبْنِي نَائِحَةٌ وَلَا نَارٌ فَإِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا [أهيلو علي التراب] ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْلَ قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي.

** وفي رواية للإمام أحمد: فَلَمَّا بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً مِنْهُ فَمَا مَلَأْتُ عَيْنِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا رَاجَعْتُهُ فِيمَا أُرِيدُ حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَيَاءً مِنْهُ فَلَوْ مِتُّ يَوْمَئِذٍ قَالَ النَّاسُ هَنِيئًا لِعَمْرٍو أَسْلَمَ وَكَانَ عَلَى خَيْرٍ فَمَاتَ فَرُجِيَ لَهُ الْجَنَّةُ ثُمَّ تَلَبَّسْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالسُّلْطَانِ وَأَشْيَاءَ فَلَا أَدْرِي عَلَيَّ أَمْ لِي فَإِذَا مِتُّ فَلَا تَبْكِيَنَّ عَلَيَّ وَلَا تُتْبِعْنِي مَادِحًا وَلَا نَارًا وَشُدُّوا عَلَيَّ إِزَارِي فَإِنِّي مُخَاصِمٌ وَسُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ سَنًّا فَإِنَّ جَنْبِيَ الْأَيْمَنَ لَيْسَ بِأَحَقَّ بِالتُّرَابِ مِنْ جَنْبِي الْأَيْسَرِ وَلَا تَجْعَلَنَّ فِي قَبْرِي خَشَبَةً وَلَا حَجَرًا فَإِذَا وَارَيْتُمُونِي فَاقْعُدُوا عِنْدِي قَدْرَ نَحْرِ جَزُورٍ وَتَقْطِيعِهَا أَسْتَأْنِسْ بِكُمْ.

** روى أحمد عن أَبِي نَوْفَلِ بْنُ أَبِي عَقْرَبٍ قَالَ جَزِعَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عِنْدَ الْمَوْتِ جَزَعًا شَدِيدًا فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو قَالَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا هَذَا الْجَزَعُ وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُدْنِيكَ وَيَسْتَعْمِلُكَ قَالَ أَيْ بُنَيَّ قَدْ كَانَ ذَلِكَ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ ذَلِكَ إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَحُبًّا ذَلِكَ كَانَ أَمْ تَأَلُّفًا يَتَأَلَّفُنِي وَلَكِنِّي أَشْهَدُ عَلَى رَجُلَيْنِ أَنَّهُ قَدْ فَارَقَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُمَا ابْنُ سُمَيَّةَ وَابْنُ أُمِّ عَبْدٍ فَلَمَّا حَدَّثَهُ وَضَعَ يَدَهُ مَوْضِعَ الْغِلَالِ مِنْ ذَقْنِهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ أَمَرْتَنَا فَتَرَكْنَا وَنَهَيْتَنَا فَرَكِبْنَا وَلَا يَسَعُنَا إِلَّا مَغْفِرَتُكَ وَكَانَتْ تِلْكَ هِجِّيرَاهُ حَتَّى مَاتَ.

** وعن ثابت البناني قال: كان عمرو على مصر، فثقل، فقال لصاحب شرطته: أدخل وجوه أصحابك [أي حرسه]، فلما دخلوا، نظر إليهم وقال: ها قد بلغت هذه الحال، ردوها عني، فقالوا: مثلك أيها الأمير يقول هذا؟ هذا أمر الله الذي لا مرد له. قال: قد عرفت، ولكن أحببت أن تتعظوا، لا إله إلا الله، فلم يزل يقولها حتى مات.

** عن الحسن قال بلغني أن عمرو بن العاص لما كان عند الموت دعا حرسه فقال أي صاحب كنت لكم؟ قالوا كنت لنا صاحب صدق تكرمنا وتعطينا وتفعل وتفعل قال فإني إنما كنت أفعل ذلك لتمنعوني من الموت وإن الموت ها هو ذا قد نزل بي فأغنوه عني فنظر القوم بعضهم إلى بعض فقالوا والله ما كنا نحسبك تكلم بالعوراء يا أبا عبد الله قد علمت أنا لا نغني عنك من الموت شيئا فقال أما والله لقد قلتها وإني لأعلم أنكم لا تغنون عني من الموت شيئا، ولكن والله لأن أكون لم أتخذ منكم رجلا قط يمنعني من الموت أحب إلي من كذا وكذا، فيا ويح ابن أبي طالب [أي سيدنا علي] إذ يقول «حرس أمراء أجله» ثم قال عمرو اللهم لا برئ فأعتذر ولا عزيز فأنتصر وإلا تدركني منك برحمة أكن من الهالكين.

** وروي أن عمرو بن العاص حين حضرته الوفاة ذرفت عيناه فبكى، فقال له ابنه عبد الله: والله يا أبي ما كنت أخشى أن ينزل بك أمر من الله تعالى إلا صبرت عليه، فقال: يا بني، إنه نزل بأبيك خصال ثلاث: أولهن: انقطاع عمله، وأما الثانية: فهو المطلع، وأما الثالثة: ففراق الأحبة، ثم قال: اللهم إنك أمرت فتوانيت، ونهيت فعصيت، اللهم ومن شيمتك [طبعك وصفتك] العفو والتجاوز.

** روي أنه لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال له ابنه: يا أبتاه! إنك كنت تقول: يا ليتني كنت ألقى رجلا عاقلا لبيبا عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد، وأنت

ذلك الرجل، فصف لي ما تجد؟ فقال: يا بني، والله كأن جنبي في تخت، وكأني أتنفس من سم إبرة، وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي. ثم أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي *** في تلال الجبال أرعى الوعولا

** ولقد مرض –رحمه الله– مرض موته سنة 43 هجرية، قال معاوية بن خديج: أتيت عمرو بن العاص وقد ثقل. فقلت: كيف تجدك؟ فقال: أذوب ولا أتوب، وأجد نجوى [ما يخرج من البطن من بول أو غائط] أكثر من رزئي [الطعام الذي يؤكل] فما بقاء الكبير على هذا؟!

** عن قتادة قال: لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال كيلوا مالي فكالوه فوجدوه اثنين وخمسين مدا. فقال من يأخذه بما فيه يا ليته كان بعرا قال وكان المد ستة عشر أوقية الأوقية منه مكوكان، ومات عمرو بن العاص يوم الفطر وقد بلغ أربعا وتسعين سنة وصلى عليه ابنه عبد الله ودفن بالمقطم في سنة ثلاث وأربعين ثم استعمل معاوية على مصر وأعمالها أخاه عتبة بن أبي سفيان.

** لما حضرت عمرو بن العاص الوفاة قال عبد الله له يا أبتاه أوص في مالي ومالك ما بدا لك قال فدعا كاتبا فقال اكتب فجعل يكتب قال فلما أسرع في المال قال يا أبة لا أحسبك إلا قد أتيت على مالي ومال إخوتي فلو بعثت إلى إخوتي فتحلل ذلك منهم قال عمرو للكاتب اقرأه فقرأه فقال عبد الله بن عمرو بخ بخ قال فقال له عمرو يا عبد الله اشكر هذا فوالله لامرأة من المهاجرات أقبلت ببعير تقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمله عليه في سبيل الله خير من هذا كله، جاء ذاك من حيث جاء، وجاء هذا من حيث جاءنا عبد الله، والله لقد هلكنا إلا أنا معتصمين بلا إله إلا الله.

** عن عبد الله بن عمرو أنه حدث أن أباه أوصاه قال يا بني إذا مت فاغسلني غسلة بالماء ثم جففني في ثوب ثم اغسلني الثانية بماء قراح ثم جففني في ثوب ثم اغسلني الثالثة بماء فيه شيء من كافور ثم جففني في ثوب ثم إذا ألبستني الثياب فأزر علي فإني مخاصم ثم إذا أنت حملتني على السرير فامش بي مشيا بين المشيتين وكن خلف الجنازة فإن مقدمها للملائكة وخلفها لبني آدم فإذا أنت وضعتني في القبر فسن علي التراب سنا ثم قل اللهم إنك أمرتنا فأضعنا ونهيتنا فركبنا فلا بريء فأعتذر ولا عزيز فأنتصر ولكن لا إله إلا أنت ما زال يقولها حتى مات.

** وعن أبي فراس مولى عبد الله بن عمرو أن عمرو بن العاص توفي ليلة الفطر فغدا به عبد الله بن عمرو حتى إذا أبرز به وضعه في الجبانة حتى انقطعت الأزقة من الناس ثم صلى عليه ودفنه ثم صلى بالناس صلاة العيد قال أحسب أن لم يبق أحد شهد العيد إلا صلى عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد ابن الحنفية

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

** هو أبو القاسم مُحَمَّدُ ابْنُ سيدنا عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ بن عَبْدِ مَنَافٍ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ القُرَشِيُّ الهَاشِمِيُّ، المَدَنِيُّ، أَخُو الحَسَنِ وَالحُسَيْنِ.

يقال له محمد ابن الحنفية نسبةً إلى أمه؛ لأنها كانت من بني حنيفة، ولقبه العلماء بذلك حتى يفرقوا بينه وبين أخويه الحسن والحسين.

أمه: خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدول بن حنيفة. ويقال: كانت من سبي اليمامة، وهبها الصديق لعلي –رضي الله عنهم–، فولدت له محمداً.

ومن الأخبار الكاذبة في هذا الشأن ما ورد من أن سيدنا عليًا رضي الله عنه احتلم ومسح ذكره بقطعة قماش وجاءت أمه خولة الحنفية فمسحت فرجها بنفس قطعة القماش وحملت وهي بكر؟

** في صحيح الأدب المفرد [البخاري/ الألباني]

«بَابُ اسْمِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وكنيته»

(صحيح) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: وُلِدَ لِرَجُلٍ مِنَّا غُلَامٌ، فَسَمَّاهُ الْقَاسِمَ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: لَا نُكَنِّيكَ أَبَا الْقَاسِمِ، وَلَا نُنْعِمُكَ عَيْنًا، فَأَتَى النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ لَهُ مَا قَالَتِ الْأَنْصَارُ. فَقَالَ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أَحْسَنَتِ الْأَنْصَارُ؛ تَسَمُّوا بِاسْمِي، وَلَا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي؛ فَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ).

(صحيح) عن ابن الحنفية قال: كَانَتْ رُخْصَةً لِعَلِيٍّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ وُلِدَ لِي بَعْدَكَ أُسَمِّيهِ بِاسْمِكَ، وَأُكَنِّيهِ بِكُنْيَتِكَ؟ قال: "نعم".

وفي مسند أحمد بسند صحيح عَنِ مُنْذِرٍ، عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ وُلِدَ لِي بَعْدَكَ وَلَدٌ أُسَمِّيهِ بِاسْمِكَ، وَأُكَنِّيهِ بِكُنْيَتِكَ؟ قَالَ: (نَعَمْ) فَكَانَتْ رُخْصَةً مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لِعَلِيٍّ..

ودارت الأيام وتوفي رسول الله ﷺ ثم لحقت به ابنته السيدة فاطمة الزهراء، وبعد وفاة السيدة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ تزوج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– من خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية [من بني حنيفة] فولدت له ولدًا سمّاه «محمدًا» فهو «محمد بن علي» غير أن الناس أرادوا التفريق بينه وبين ذرية فاطمة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْها– فسموه «محمد ابن الحنفية» واشتُهر بها –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، ولم يكن يكبره أخواه الحسن والحسين –رضي الله عنهما– بأكثر من عشرة أعوام.

** ولد محمد بن الحنفية بعد وفاة رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وهو من الطبقة الأولى من التابعين، حيث ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر (21هـ)، على الأرجح لما رواه زهير أبو خيثمة عن يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ قال: قُلْتُ لابْنِ الْمُسَيِّبِ: ابْنُ كَمْ كُنْتَ فِي خِلافَةِ عُمَرَ؟ قَالَ: وُلِدْتُ لِسَنَتَيْنِ بَقِيَنَا منْ خِلافَتِهِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُحَمَّدِ ابْنِ الحَنَفِيَّةِ، فَقَالَ: ذَاكَ مَوْلِدِي.

** نشأ محمد بن الحنفية نشأة أبيه فروسيةً وبطولة فكان أبوه يقحمه في الشدائد والمعارك ...فقال له بعضهم يومًا: لِمَ يُقحمك أبوك في مواطن لا يُقحم فيها أخويك الحسن والحسين؟! فكان جوابه عجبًا من الفصاحة الهاشمية. قال: لأن أخَوَيّ هما عينا أبي وأنا يده فهو يقي عينيه بيديه.

فتأمل كيف تجاوز حظ نفسه، وكيف فضّل أخويه، وكيف التمس العذر لأبيه، وكيف لم يسقط في فخ النميمة وتأمل عبارته وإيجازها وإعجازها.

** كان لابن الحنفية منزلةٌ كبيرة بين الصحابة وأهل العلم ومما يدل على ذلك شهادتهم له بالفضل والعلم. وهو أحد الأبطال الأشداء، وكان ورعاً واسع العلم ثقة له عدة أحاديث في الصحيحين.

فعَنْ أَبِي مِجْلَزٍ قَالَ: رَمَيْتُ جِهَارًا فَلَمْ أَدْرِ بِكَمْ رَمَيْتُ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ فَلَمْ يُجِبْنِي، فَمَرَّ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: يُعِيدُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ لَيْسَ شَيْءٌ عِنْدَنَا أَعْظَمَ مِنَ الصَّلَاةِ، وَإِذَا نَسِيَ أَحَدُنَا أَعَادَ قَالَ: فَذَكَرْتُ لِابْنِ عُمَرَ قَوْلَهُ فَقَالَ: إِنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتٍ مُفَهَّمُونَ.

وقال ابن حبان: كان من أفاضل أهل بيته.

وقال أحمد بن عبد الله العجلى: محمد بن علي ابن الحنفية، وكان يكنى أبا القاسم، وكان رجلا صالحا، تابعيًّا، ثقة، مدنيا.

وقال عنه أيمن المكي: خير الناس؛ فعن عبد الواحد بن أيمن قال..... وَبَعَثَنِي أَبِي إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ فَرَأَيْتُهُ مَكْحُولَ الْعَيْنَيْنِ فَجِئْتُ فَقُلْتُ لِأَبِي بَعَثْتَنِي إِلَى رَجُلٍ كَذَا وَكَذَا – وَقَعْتُ فِيهِ – فَقَالَ: يَا بُنَيَّ ذَاكَ خَيْرُ النَّاسِ.

وقال الزركلي: أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام كان واسع العلم، ورعًا، أسود اللون وأخبار قوته وشجاعته كثيرة.

وقال عبد الأعلى: إِنَّ مُحَمَّدَ بنَ عَلِيٍّ كَانَ يُكْنَى: أَبَا القَاسِمِ، وَكَانَ وَرِعاً، كَثِيرَ العِلْمِ.

** عن عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَيْمَنَ قَالَ: «جِئْتُ إِلَى محمد ابن الْحَنَفِيَّةِ وَهُوَ مَكْحُولُ الْعَيْنَيْنِ مَصْبُوغُ اللِّحْيَةِ بِحُمْرَةٍ، وَرَأَيْتُ عَلَيْهِ فَلَنْسُوَةٌ مُلْصَقَةٌ بِرَأْسِهِ وَرَأَيْتُ عَلَيْهِ عِمَامَةً سَوْدَاءَ.

وقال سُفْيَانُ بْنُ دِينَارٍ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ: رَأَيْتُ مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ مَخْضُوبَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ بِالْحِنَّاءِ وَالْكَتَمِ»

وروي عنه في هذا أثر ضعيف أخرجه ابن أبي شيبة من طريق عَبْدِ الْأَعْلَى الثعلبي، قَالَ: «سَأَلْتُ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ: الْخِضَابُ بِالْوَسْمَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ خِضَابُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ».

وفي المصادر الشيعية [وهي مما لا يعول عليها]: هو أحد المحمدين الاربعة المشهورين في المدينة وهم محمد ابن الحنفية ومحمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر الطيار وكثيراً ما كان يسمع هذا الكلام عن الامام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام "ابت المحامد أن يعصى الله".

ومحمد ابن الحنفية هو شبل الإمام علي وحامل لواء الامام يوم الجمل ويوم صفين وهو مثال للبلاغة، والشجاعة والعلوم والبراعة. وقال فيه أبوه امير المؤمنين كلمته المعروفة "من أراد ان يبرني في الدنيا والاخرة فليبر ولدي محمداً"

وما في ولد لسيدنا علي من عموم زوجاته يحمل هذا الاسم الا محمد ابن الحنفية والامام أمير المؤمنين اعتنى بتربيته عناية خاصة ووصاه أمير المؤمنين بوصيته المعروفة كما ذكرت في كتاب "من لا يحضره الفقيه" في الجزء الرابع في باب الوصايا وجاء فيها قول الامام علي لولده محمد: "يا بني إياك والاتكال على الأماني، يا بني لا شرف أعلى من الاسلام ولا كرم أغنى من التقوى ولا معقل أحرز من الورق ولا لباس أجمل من العافية".

** كان ابن الحنفية شديد القوة، ويدل على ذلك أن أباه علي بن أبي طالب كان يستعين به في القتال، ويدفع به إلى المهام الصعبة، وأعطاه رايته في معركتي «الجمل» و«صفين» فكان يخوض الغمرات أمامه، ويمضي عند اشتباك الحرب قدمًا، وحمل حملات كثيرة أزال بها القوم عن مواقعهم، وأبلى بلاء حسنا.

وقد وردت في قوته أخبار عجيبة لا يصح منها شيء منها:

ما حكاه المبرد في الكامل: أن أباه علياً استطال درعاً كانت له فقال له: انقص منها كذا وكذا حلقه، فقبض محمد إحدى يديه على ذيلها والأخرى على فضلها، ثم جذبها فانقطع من الموضع الذي حده أبوه.

ومن ذلك ما حكاه المبرد أيضا: أن ملك الروم وجه إلى معاوية أن الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا وتجهد بعضهم أن يغلب على بعض أفتأذن في ذلك؟ فأذن له، فوجه إليه

برسولين أحدهما طويل جسيم والآخر أيد [قوي] فقال معاوية لعمرو بن العاص: أما الطويل فقد أصبنا كفوه وهو قيس بن سعد بن عبادة، وأما الآخر فقد احتجا إلى رأيك. فقال عمرو ها هنا رجلان كلاهما إليك بغيض؛ محمد ابن الحنفية وعبد الله بن الزبير.

قال معاوية من هو أقرب إلينا على حال أو قال على كل حال؟ فلما دخل الرجلان للذان بثهما ملك الروم وجه معاوية إلى قيس بن سعد يعلمه، فدخل قيس، فلما مثل بين يدي معاوية نزع سراويله، فرمى بها إلى العلج فلبسها فبلغت ثندوته [لحم الثدي] فأطرق مغلوباً، قيل إن قيساً لاموه في ذلك وقيل له: لما تبذلت هذا التبذل بحضرة معاوية؟ هلا وجهت إليه غيرها؟ فقال:

أردت لكيما يعلم الناس أنها ** سراويل قيس والوفود شهود

وأن لا يقولوا غاب قيس ** وهذه سراويل عاد ثمة وثمود

وأني من القوم اليمانين سيد ** وما الناس إلا سيد ومسود

وبد جميع الخلق أصلي ومنصبي ** وجسمي به أعلو الرجال سديد

ثم وجه معاوية إلى ابن الحنفية له فحضر، فخبر بما دعى إليه فقال: قولوا له إن شاء فليجلس وليعطني يده حتى أقيمه أو يقعدني، وإن شاء فليكن القاعد وأنا القائم، فاختار الرومي الجلوس فأقامه محمد وعجز هو من إقعاده، ثم اختار أن يكون محمد هو القاعد فجذبه محمد فأقعده، وعجز الرومي عن اقامته فانصرفا مغلوبين.

قال ابن عبد البر في «بهجة المجالس» بعد ذكره للخبر أما هذا الخبر فمنكر ليس بصحيح، ولا له أصل لأنه يخالف أخلاق قيس ومحمد، وليس فيه كبير فائدة لمنزلتهما.

ومنها: ما رُوي أنه صرع مروان بن الحكم يوم الجمل فقد أخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق أبي عاصم النبيل قال: صرع محمد بن علي مروان يوم الجمل وجلس على صدر مروان فلما وفد محمد على عبد الملك قال له أتذكر يوم جلست على صدر مروان قال عفوا يا أمير المؤمنين قال أم والله ما ذكرت ذلك وأنا أريد أن أكافئك به ولكن أردت أن تعلم أني قد علمت. وهو خبر ضعيف.

ومنها: ما رواه ابن عساكر في تاريخه من طريق سفيان بن عيينة قال سمعت الزهري يقول: قال رجل لمحمد بن الحنفية ما بال أبيك كان يرمي بك في مرام لا يرمي فيها الحسن والحسين قال: لأنهما كانا خديه وكنت يده فكان يتوقى بيده عن خديه. [ضعيف]

** مواقفه في الإنصاف:

منها: إنصافه من نفسه وإقراره بأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لم يوص بالخلافة لأبيه علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: فَعَنْ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ رُفَيْعٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَشَدَّادُ بْنُ مَعْقِلٍ، عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَقَالَ لَهُ شَدَّادُ بْنُ مَعْقِلٍ: أَتَرَكَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَ: «مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ قَالَ: وَدَخَلْنَا عَلَى مُحَمَّدِ ابْنِ الحَنَفِيَّةِ، فَسَأَلْنَاهُ، فَقَالَ: «مَا تَرَكَ إِلَّا مَا بَيْنَ الدَّفَتَيْنِ».

ومنها: إنصافه لأهل الجمل وامتناعه عن قتل رجل منهم لما ذكره بأنه مسلم فكف عنه. فَعَنِ مُنْذِرِ الثَّوْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ يَقُولُ وَذَكَرَ يَوْمَ الْجَمَلِ قَالَ: «لَمَّا تَصَافَفْنَا أَعْطَانِي عَلِيٌّ الرَّايَةَ فَرَأَى مِنِّي نُكُورًا لَمَّا دَنَا النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَأَخَذَهَا مِنِّي، فَقَاتَلَ بِهَا. قَالَ: فَحَمَلْتُ يَوْمَئِذٍ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَلَمَّا غَشِيْتُهُ قَالَ: أَنَا عَلَى دِينِ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمَّا عَرَفْتُ الَّذِي أَرَادَ كَفَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا هُزِمُوا قَالَ عَلِيٌّ: لَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَتَّبِعُوا مُدْبِرًا، وَقُسِمَ فَيُؤْهُمْ بَيْنَهُمْ مَا قُوتِلَ بِهِ مِنْ سِلَاحٍ أَوْ كُرَاعٍ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مَا أَجْلَبُوا بِهِ عَلَيْنَا مِنْ كُرَاعٍ أَوْ سَلَاحٍ.

ومن إنصافه من نفسه: عن منذر الثوري عن ابن الحنفية قال: نَحْنُ أَهْلُ بَيْتَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ نَتَّخَذُ مِنْ دُونِ اللَّهَ أَنْدَادًا: نَحْنُ وَبَنُو أُمَيَّةَ.

وعن منذر الثوري قال: كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَا أَشْهَدُ عَلَى أَحَدٍ بِالنَّجَاةِ، وَلَا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَا عَلَى أَبِي الَّذِي وَلَدَنِي. قَالَ: فَنَظَرَ الْقَوْمُ إِلَيْهِ. قَالَ: مَنْ كَانَ فِي النَّاسِ مِثْلَ عَلِيٍّ سَبَقَ لَهُ كَذَا سَبَقَ لَهُ كَذَا.

وقال ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: «وَدِدْتُ لَوْ فَدَّيْتُ شِيعَتَنَا هَؤُلَاءِ وَلَوْ بِبَعْضِ دَمِي. قَالَ: ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى عَلَى الْمِفْصَلِ وَالْعُرُوقِ، ثُمَّ قَالَ: لَحَدِيثُهُمُ الْكَذِبُ، وَإِذَاعَتُهُمُ الشَّرُّ حَتَّى إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ أُمَّ أَحَدِهِمُ الَّتِي وَلَدَتْهُ أَغْرَى بِهَا حَتَّى تُقْتَل».

ومن قوله في بني أمية: عن مُنْذِرِ الثَّوْرِيّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: «اتَّقُوا هَذِهِ الْفِتَنَ فَإِنَّهَا لَا يَسْتَشْرِفُ مَا أَحَدٌ إِلَّا اسْتَبْقَتْهُ، أَلَا إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَهُمْ أَجَلٌ وَمُدَّةٌ، لَوِ اجْتَمَعَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَنْ يُزِيلُوا مُلْكَهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْذَنُ فِيهِ، أَتَسْتَطِيعُونَ أَنْ تُزِيلُوا هَذِهِ الْجِبَالَ.

ومن إنصافه لعثمان بن عفان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: عن مُنْذِرِ الثَّوْرِيّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: فَنَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ مِنْ عُثْمَانَ فَقَالَ: مَهْ، فَقُلْنَا لَهُ: كَانَ أَبُوكَ يَسُبُّ عُثْمَانَ قَالَ: مَا سَبَّهُ، وَلَوْ سَبَّهُ يَوْمًا لَسَبَّهُ يَوْمَ جِئْتُهُ وَجَاءَهُ السُّعَاةُ، فَقَالَ: خَيْرٌ كِتَابَ اللهُ فِي السُّعَاةِ، فَاذْهَبْ بِهِ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَخَذْتُهُ فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ، فَجِئْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ضَعْهُ مَوْضِعَهُ، فَلَوْ سَبَّهُ يَوْمًا لَسَبَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ».

وعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: كُنَّا فِي الشِّعْبِ فَكُنَّا نَنْتَقِصُ عُثْمَانَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَفْرَطْنَا، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، تَذْكُرُ عَشِيَّةَ الْجَمَلِ؟ أَنَا عَنْ يَمِينِ عَلِيٍّ وَأَنْتَ عَنْ شِمَالِهِ، إِذْ سَمِعْنَا الصَّيْحَةَ مِنْ قِبَلِ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ، الَّتِي بَعَثَ بِهَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَجَدَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ وَاقِفَةً فِي الْمِرْبَدِ تَلْعَنُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَعَنَ الله قَتَلَةَ عُثْمَانَ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَنَا عَنْ يَمِينِ عَلِيٍّ وَهَذَا عَنْ شِمَالِهِ، فَسَمِعْتُهُ مِنْ فِيهِ إِلَى فِي وَابْنُ عَبَّاسٍ، فَوَاللَّهِ مَا عِبْتُ عُثْمَانَ إِلَى يَوْمِي هَذَا.

ومن إنصافه لأبي بكر الصديق –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: عن سالم بن أبي الجعد قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: أَبُو بَكْرٍ كَانَ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلَامًا؟ قَالَ: لَا قُلْتُ: فِيمَا عَلَا وَسَبَقَ، حَتَّى لَا يُذْكَرَ أَحَدٌ غَيْرُ أَبِي بَكْرٍ؟ قَالَ: كَانَ أَفْضَلُهُمْ إِسْلَامًا حَتَّى لَحِقَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وهذا من أقوى الردود على الشيعة لأنه صادر عن إمامهم زعموا.

وقد وردت أخبار أخرى في إنصافه لا تثبت عنه:

– منها ما رواه منذر الثوري عن محمد ابن الحنفية قال: «الحَسَنُ والحُسَيْنِ خِيرٌ مِنِّي وَأَنَا أَعْلَمُ بِحَدِيثِ أَبِي مِنْهُمَا». [ضعيف جدا]

– ومنها ما رواه الْفَضْلُ بْنُ مُحَمَّدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: وَقَعَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَبَيْنَ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ كَلَامٌ، حَبَسَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: أَبِي وَأَبُوكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأُمِّي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ لَا يُنْكَرُ شَرَفُهَا فِي قَوْمِهَا، وَلَكِنَّ أُمَّكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالْفَضْلِ مِنِّي، فَصِرْ إِلَيَّ حَتَّى تَرَضَّانِي فَلَبِسَ الْحُسَيْنُ رِدَاءَهُ وَنَعْلَهُ وَصَارَ إِلَيْهِ فَتَرَضَاهُ. [ضعيف: أخرجه البيهقي في «الشعب»]

– وَعَنْ رَضِي بْنِ أَبِي عَقِيلٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنَّا عَلَى بَابِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ بِالشِّعَبِ فَخَرَجَ ابْنُ لَهُ ذُؤَابَتَانِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الشِّيعَةِ، إِنَّ أَبِي يُقْرِئُكُمُ السَّلَامَ، قَالَ: فَكَأَنَّمَا كَانَتْ عَلَى رُءُوسِهِم الطَّيْرُ، قَالَ: إِنَّ أَبِي يَقُولُ: «إِنَّا لَا نُحِبُّ اللَّعَانِينَ وَلَا الْمُفَرِّطِينَ وَلَا الْمُسْتَعْجِلِينَ بِالْقَدَرِ».

** شدة فراسته –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–:

– تحذيره لأبيه من الذهاب إلى عثمان لما أتاه خبر مقتله لعلمه بأنه فخ:

فعَنْ مُنْذِرٍ الثوري عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «كَانَ عَلِيٌّ عِنْدَ أَحْجَارِ الزَّيْتِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: هَذَا الرَّجُلُ مَقْتُولٌ، قَالَ: فَذَهَبَ فَضَبَطَنَا، قَالَ: فَقُلْنَا: إِنَّ الْقَوْمَ يُرِيدُونَ أَنْ يَرْتَهِنُوكَ، فَأَخَذَ عِمَامَةً لَهُ سَوْدَاءَ فَرَمَى بِهَا إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَمْ أَقْتُلْ وَلَمْ أُمَالِ».

– وأيضا تحذيره لأخيه الحسين من الذهاب إلى العراق لعمله بأنهم خونه ولا يريدون إلا مصلحتهم والدنيا:

فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبرى بأسانيد كثيرة فيما صح منها: قال ابن سعد بعدما ساق الأسانيد وغير هؤلاء أيضا قد حدثني في هذا الحديث بطائفة فكتبت جوامع حديثهم في مقتل الحسين رحمة الله عليه ورضوانه وصلواته وبركاته.

قالوا: «كَانَ أَهْلُ الكُوفَةِ يَكتُبُونَ إِلَى الْحُسَيْنِ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الخُرُوجِ إِلَيْهِم زَمَنَ مُعَاوِيَةَ، كُلُّ ذَلِكَ يَأْبَى، فَقَدِمَ منهم قوم إلى محمد بن الحَنَفِيَّةِ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ الْمَسِيرَ مَعَهُم، فَأَبَى، وَجَاءَ إلى الحسين فأخبره، وَقَالَ: إِنَّ القَوْمَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْكُلُوا بِنَا، وَيَشِيطُوا دِمَاءَنَا، فَأَقَامَ حُسَيْنٌ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ متردد العزم».

– وأيضا تعرفه على ابن ملجم مع أنه لم يقابله سوى مرة في حياته:

فعن منذر الثوري عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «دَخَلَ عَلَيْنَا ابْنُ مُلْجَمٍ الْحَمّامَ، وَأَنَا وَحَسَنٌ وَحُسَيْنٌ جُلُوسٌ فِي الْحَمامِ، فَلَمَا دَخَلَ كَأَنَّهُمَا اشْمَأَزَّا مِنْهُ، وَقَالَا: «مَا أَجْرَأَكَ تَدْخُلُ عَلَيْنَا قَالَ: فَقُلْتُ لَهُما: دَعَاهُ عَنْكُمَا، فَلَعَمْرِي مَا يُرِيدُ بِكُمَا أَحْشَمُ مِنْ هَذَا. فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُتِيَ بِهِ أَسِيرًا قَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: مَا أَنَا الْيَوْمَ بِأَعْرَفَ بِهِ مِنِّي يَوْمَ دَخَلَ عَلَيْنَا الْحَمامَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: «إِنَّهُ أَسِيرٌ فَأَحْسِنُوا نُزُلَهُ، وَأَكْرِمُوا مَثْوَاهُ، فَإِنْ بَقِيتُ قَتَلْتُ أَوْ عَفَوْتُ، وَإِنْ مُتُّ فَاقْتُلُوهُ قَتْلَتِي، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.

** بره –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بأمه:

عَنْ مُنْذِرِ الثَّوْرِيّ قَالَ: «كَانَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ يَمْشُطُ رَأْسَ أُمِّهِ وَيُرْوِيهَا».

وأما روي عنه من أنه كان يخضب أمه بالحناء فضعيف لا يثبت عنه فعن صَالِحِ بْنِ مِيسَمٍ قَالَ: «رَأَيْتُ فِي يَدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيَّ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَثَرَ الْحِنَّاءِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: كُنْتُ أَخَضّبُ أُمِّي».

** كلامه في الفتن

كان محمد ابن الحنفية من أعقل الناس وأشجعهم معتزلا عن الفتن وما كان الناس فيه، بل كان أيضًا محذرًا غيره منها لعلمه –رحمه الله– بخطرها وما تؤدي إليه من مفاسد وشرور على الأمة، فكان رحمه الله يقول: «الْفِتْنَةُ مَنْ قَابَلَهَا احْتِيجَ».

وعن مُنْذِرِ الثَّوْرِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «اتَّقُوا هَذِهِ الْفِتَنَ فَإِنَّهَا لَا يَسْتَشْرِفُ لَهَا أَحَدٌ إِلَّا اسْتَبْقَتْهُ، أَلَا إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ هُمْ أَجَلٌ وَمُدَّةٌ [يقصد بني أمية]، لَوِ اجْتَمَعَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أَنْ يُزِيلُوا مُلْكَهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْذَنُ فِيهِ، أَتَسْتَطِيعُونَ أَنْ تُزِيلُوا هَذِهِ الْجِبَالَ».

وعَنِ الْحَارِثِ الْأَزْدِيِّ قَالَ: قَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: «رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَغْنَى نَفْسَهُ، وَكُفَّ يَدَهُ، وَأَمْسَكَ لِسَانَهُ، وَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ، لَهُ مَا احْتَسَبَ وَهُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ. أَلَا إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي أُمَيَّةَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنْ سُيُوفِ الْمُسْلِمِينَ. أَلَا إِنَّ لِأَهْلِ الْحَقِّ دَوْلَةً يَأْتِي بِهَا اللهُ إِذَا شَاءَ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَمِنَّا كَانَ عِنْدَنَا فِي السَّنَامِ الْأَعْلَى، وَمَنْ يَمُتْ فَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى».

وعَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: الْزَمْ هَذَا الْمُكَانَ، وَكُنْ حَمَامَةً مِنْ حَمَامِ الْحَرَمِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُنَا، فَإِنَّ أَمَرَنَا إِذَا جَاءَ فَلَيْسَ بِهِ خِفَاءٌ كَمَا لَيْسَ بِالشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ خَفَاءٌ، وَمَا يُدْرِيكَ إِنْ قَالَ لَكَ النَّاسُ تَأْتِي مِنَ الْمُشْرِقِ وَيَأْتِي اللَّهُ بِهَا مِنَ الْمُغْرِبِ، وَمَا يُدْرِيكَ إِنْ قَالَ لَكَ النَّاسُ تَأْتِي مِنَ الْمُغْرِبِ وَيَأْتِي اللَّهُ بِهَا مِنَ الْمُشْرِقِ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّنَا سَنُؤْتَى بِهَا كَمَا يُؤْتَى بِالْعَرُوسِ».

وعَنْ أَبِي يَعْلَى، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ فِي الشِّعْبِ: «لَوْ أَنَّ أَبِي عَلِيًّا أَدْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ لَكَانَ هَذَا مَوْضِعُ رَحْلِهِ».

والشعب موضع بمنى نزل به محمد ابن الحنفية ومن معه معتزلين الفتنة يقول عمرو بن دينار جاء محمد ابن الحنفية ألفان من أهل الكوفة لو أمرهم أن يزيلوا الجبال لأزالوها.

قال عمرو: فكانوا في شعب علي اعتزل بهم محمد بن علي فكان ربما أتاهم الفزع فينادي مناديهم إن مهديا يأمركم أن تأخذوا السلاح.

ومن الضعيف في هذا الباب ما رواه مُعَاوِيَةُ بْنُ ثَعْلَبَةٍ قَالَ: أَتَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنَفِيَّةِ فَقُلْتُ: إِنَّ رَسُولَ الْمُخْتَارِ أَتَانَا يَدْعُونَا، قَالَ: فَقَالَ لِي: «لَا تُقَاتِلْ، إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَبْتُرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَمْرَهَا أَوْ آتِيهَا مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا». وهو ضعيف أخرجه ابن أبي شيبة

لكن وإن كان ضعيفا إلا أن معناه مؤيد بما عرف عن محمد ابن الحنفية من اعتزاله للفتن وحضه الناس في البعد عنها.

** حكمته وبلاغته وفصاحة لسانه وقوة بيانه رحمة الله:

منها: ما رواه الْأَسْوَدُ بْنُ قَيْسٍ قَالَ: لَقِيتُ بِخُرَاسَانَ رَجُلًا مِنْ عَزَّةَ. قَالَ: قُلْتُ لِلْأَسْوَدِ: مَا اسْمُهُ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي. قَالَ: «أَلَا أَعْرِضُ عَلَيْكَ خُطْبَةَ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي رَهْطٍ يُحَدِّثُهُمْ، فَقُلْتُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، يَا مَهْدِيُّ. قَالَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ. قَالَ: قُلْتُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ: أَسِرٌّ هِيَ أَمْ عَلَانِيَةٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلْ، سِرٌّ. قَالَ: اجْلِسْ، فَجَلَسْتُ، وَحَدَّثَ الْقَوْمَ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَ، فَقُمْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ دَخَلْتُ مَعَهُ بَيْتَهُ. قَالَ: قُلْ بِحَاجَتِكَ. قَالَ: فَحَمِدْتُ اللهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ، وَشَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهُ مَا كُنْتُمْ أَقْرَبَ قُرَيْشٍ إِلَيْنَا قَرَابَةً فَنُحِبُّكُمْ عَلَى قَرَابَتِكُمْ، وَلَكِنْ كُنتُمْ أَقْرَبَ قُرَيْشٍ إِلَى نَبِيِّنَا قَرَابَةً فَلِذَلِكَ أَحْبَبْنَاكُمْ عَلَى قَرَابَتِكُمْ مِنْ نَبِيِّنَا، فَمَا زَالَ بِنَا الشَّيْنُ فِي حُبِّكُمْ حَتَّى ضُرِبَتْ عَلَيْهِ الْأَعْنَاقُ، وَأَبْطِلَتِ الشَّهَادَاتُ، وَشَرَدْنَا فِي الْبِلَادِ، وَأُوذِينَا حَتَّى لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ فِي الْأَرْضِ قَفْرًا فَأَعْبُدَ اللهَ حَتَّى أَلْقَاهُ لَوْلَا أَنْ يَخْفَى عَلَيَّ أَمْرُ آلِ مُحَمَّدٍ، وَحَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَخْرُجَ مَعَ أَقْوَامٍ شَهَادَتُنَا وَشَهَادَتُهُمْ وَاحِدَةٌ عَلَى أَمَرَائِنَا، فَيَخْرُجُونَ، فَيُقَاتِلُونَ، وَنُقِيمُ، فَقَالَ عُمَرُ يَعْنِي الْخَوَارِجَ: وَقَدْ كَانَتْ تَبْلُغُنَا عَنْكَ أَحَادِيثُ مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُشَافِهَكَ لِلْكَلَامِ، فَلَا أَسْأَلُ عَنْكَ أَحَدًا، وَكُنْتَ أَوْثَقَ النَّاسِ فِي نَفْسِي وَأَحَبَّهُ إِلَى أَنْ أَقْتَدِيَ بِهِ فَأَرَى بِرَأْيِكَ، وَكَيْفَ تَرَى الْمُخْرَجَ ؟ أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ.

قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَشَهِدَ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِيَّاكُمْ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثَ؛ فَإِنَّهَا عَيْبٌ عَلَيْكُمْ، وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتعالى؛ فَإِنَّهُ بِهِ هَدْيُ أَوَّلِكُمْ، وَبِهِ يُهْدَى آخِرُكُمْ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ أُوذِيتُمْ لَقَدْ أُوذِيَ مَنْ كَانَ خَيْرًا مِنْكُمْ، أَمَّا قِيلُكَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ فِي الْأَرْضِ قَفْرًا فَأَعْبُدَ اللَّهَ حَتَّى أَلْقَاهُ، وَأَجْتَنِبَ أُمُورَ النَّاسِ لَوْلَا أَنْ يَخْفَى عَلَيَّ أُمُورُ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّكَ تِلْكَ الْبِدْعَةُ الرَّهْبَانِيَّةُ، وَلَعَمْرِي لَأَمْرُ آلِ مُحَمَّدٍ أَبْيَنُ مِنْ طُلُوعِ هَذِهِ الشَّمْسِ، وَأَمَّا قِيلُكَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَخْرُجَ مَعَ أَقْوَامٍ شَهَادَتُنَا وَشَهَادَتُهُمْ وَاحِدَةٌ عَلَى أَمَرَائِنَا، فَيَخْرُجُونَ، فَيُقَاتِلُونَ، وَنُقِيمُ، فَلَا تَفْعَلْ، لَا تُفَارِقِ الْأُمَّةَ، اتَّقِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بِتَقِيَّتِهِمْ. قَالَ عُمَرُ يَعْنِي بَنِي أُمَيَّةَ: وَلَا تُقَاتِلُ مَعَهُمْ. قَالَ: قُلْتُ وَمَا تَقِيَّتُهُمْ؟ قَالَ: تُحْضِرُهُمْ وَجْهَكَ عِنْدَ دَعْوَتِهِمْ، فَيَدْفَعُ اللهُ بِذَلِكَ عَنْكَ عَنْ دَمِكَ وَدِينِكَ، وَتُصِيبُ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي أَنْتَ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُمْ. قَالَ: قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ أَطَافَ بِي قِتَالٌ لَيْسَ لِي مِنْهُ بُدٌ؟ قَالَ: تُبَايِعُ بِإِحْدَى يَدَيْكَ الْأُخْرَى لله، وَتُقَاتِلُ للهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيُدْخِلُ أَقْوَامًا بِسَرَائِرِهِمُ الْجَنَّةَ، وَسَيُدْخِلُ أَقْوَامًا بِسَرَائِرِهِمُ النَّارَ، وَإِنِّي أُذَكِّرُكَ اللَّهُ أَنْ تُبَلِّغَ عَنِّي مَا لَمْ تَسْمَعْ مِنِّي، أَوْ أَنْ تَقُولَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ».

ومنها: ما رواه أبو حَمْزَةَ قَالَ: كَانُوا يُسَلِّمُونَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ: سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا مَهْدِيُّ، فَقَالَ: أَجَلْ، أَنَا مَهْدِيٌّ؛ أَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ وَالْخَيْرِ اسْمِي اسْمُ نَبِيِّ اللهِ، وَكُنْيَتِي كُنْيَةُ نَبِيِّ اللهِ، فَإِذَا سَلَّمَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ.

ومنها: عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ رَجُلًا لِلَّهِ لِعَدْلٍ ظَهَرَ مِنْهُ وَهُوَ فِي عِلْمِ اللهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ آجَرَهُ اللهُ عَلَى حُبِّهِ إِيَّاهُ كَمَا لَوْ كَانَ أَحَبَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَبْغَضَ رَجُلًا للهِ لِجَوْرٍ ظَهَرَ مِنْهُ هُوَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ آجَرَهُ اللَّهُ عَلَى بُغْضِهِ إِيَّاهُ كَمَا لَوْ كَانَ أَبْغَضَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ النَّارِ».

ومنها ما رواه مُنْذِرُ الثَّوْرِيّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ يَقُولُ: مَا يَصْنَعُ أَحَدُكُمْ بِالْكَلَامِ بَعْدَ سَبْعٍ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٍ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَسْأَلَةِ الْخَيْرِ، وَتَعَوُّذٍ مِنَ الشَّرِّ؟.

وعنْ مُنْذِرِ الثَّوْرِيّ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، قَالَ: لَيْسَ بِحَكِيمٍ مَنْ لَمْ يُعَاشِرْ بِالْمَعْرُوفِ مَنْ لَمْ يَجِدْ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ بُدًّا حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا أَوْ مَخْرَجًا.

وهذا القول من ابن الحنفية يسمى المدارة وقد استعمل النبي هذا الأمر مع بعض أصحابه للمصلحة ومما يدل على ذلك ما رواه البخاري في صحيحه وكذلك مسلم عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: (بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ)، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ [انبسط وجهه وظهر البشر فيه] النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي وَجْهِهِ، وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ، وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا؟! إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ).

عدة آثار عن محمد ابن الحنفية في هذا الباب في إسنادها مقال:

عَنْ مُنْذِرِ الثَّوْرِيّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَا أَشْهَدُ عَلَى أَحَدٍ بِالنَّجَاةِ، وَلَا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ، وَلَا عَلَى أَبِي الَّذِي وَلَدَنِي. قَالَ: فَنَظَرَ الْقَوْمُ إِلَيْهِ. قَالَ: مَنْ كَانَ فِي النَّاسِ مِثْلَ عَلِيٍّ سَبَقَ لَهُ كَذَا سَبَقَ لَهُ كَذَا. [ضعيف]

-وعن أبي نَصْرٍ مَنْصُورُ بْنُ أَسَدٍ الْحِمْيَرِي، حدثنا مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ نِعَمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْكُمْ، فَلَا تَمَلُّوهَا فَتُحَوَّلَ نِقَمًا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَفْضَلَ المَالِ مَا أَفَادَ ذُخْرًا، وَأَوْرَثَ ذِكْرًا، وَأَوْجَبَ أَجْرًا، وَلَوْ رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ رَجُلًا لَرَأَيْتُمُوهُ حَسَنًا جَمِيلًا يَسُرُّ النَّاظِرِينَ، وَيَفُوقُ الْعَالَمِينَ.

وعن إِسْمَاعِيلِ الْأَزْرَقِ عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «إِذَا جَفَّتِ الْأَرْضُ فَقَدْ زَكَتْ.

وقال الرَّبِيعُ بْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: «يَا مُنْذِرُ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ. قَالَ: كُلُّ مَا لَا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهُ تعالى يَضْمَحِلُّ».

وعن أبي عُثْمَانَ المُؤَذِّنُ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ لِلدُّنْيَا عِنْدَهُ قَدْرٌ».

– وعَنْ أَبِي يَعْلَى عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «لَيْسَ لِلْمَيِّتِ مِنَ الْكَفَنِ شَيْءٌ إِنَّمَا هُوَ تَكْرِمَةُ الْحَيِّ».

وعن محمد بن وهب أبو طاهر النحوي قال قيل لمحمد بن علي بن الحنفية إن رجلا من قريش يقع فيك قال: «بحسبي من نعم الله عز وجل علي أن ينجي غيري مني ولم ينجني من غيري».

وعن بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ: قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: «إِنَّ اللَّهَ تعالى جَعَلَ الْجَنَّةَ ثَمَنًا لِأَنْفُسِكُمْ فَلَا تَبِيعُوهَا بِغَيْرِهَا».

عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى الثَّعْلَبِيِّ عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «لَا إِيمَانَ لَمَنْ لَا تَقِيَّةَ لَهُ».

وروي عن ابن الحنفية أنه قَالَ: «من لم يستعن بالرفق في أمره أضر الخرق بعمله».

** حسن معتقده في الصحابة رضي الله عنهم

كان محمد ابن الحنفية حسن المعتقد في أصحاب الرسول مادحا لهم عارفًا لحقهم موقرًا معظما لهم ما سب واحدًا منهم مما يدل على بطلان عقيدة الشيعة وما هم عليه من الباطل.

فعن سالم بن أبي الجعد قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: أَبُو بَكْرٍ كَانَ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلَامًا، قَالَ: «لَا، قُلْتُ: فِيمَا عَلَا أَبُو بَكْرٍ وَسَبَقَ حَتَّى لَا يُذْكَرَ غَيْرُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: كَانَ أَفْضَلَهُمْ إِسْلَامًا حِينَ أَسْلَمَ حَتَّى لَحِقَ بالله.

وذلك أن مسألة من أول من أسلم خلافية ومحمد ابن الحنفية كان ممن يرى أن علي هو أول من أسلم وقد وردت أحاديث وآثار تدل أن علي بن أبي طالب أول من أسلم مع النبي ففي عدة أحاديث عن ابن عباس وزيد بن أرقم وسلمان وغيرهم أن علي بن أبي طالب أول من أسلم ويصدق أنه أول من أسلم قول ابن عباس في مناظرته للخوارج: «مَا تَنْقِمُونَ

عَلَى ابْنِ عَمَّ رَسُولِ اللهِ، وَخَتَنِهِ، وَأَوَّلِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَأَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مَعَهُ؟ ...) فهذا يدل على أن علي بن أبي طالب أول من ءامن أي: من أوائل من ءامنوا.

أي: لا يقصد الترتيب وإنما يقصد أن عليا كان ممن سبقوا إلى الإسلام أو يكون أول من آمن من الصبيان وأبو بكر أول من أسلم من الأحرار وبلال أول من أسلم من العبيد وإلا فقد سبق ورقة بن نوفل وسبقت خديجة.

وهذا رأي محمد في عثمان –رضي الله عنه– فلا يختلف عن موقف أبيه علي من مولاته ومحبته ومعرفة فضله والإقرار بشرعية خلافته والرد على الطاعنين فيه والإنكار عليهم

فَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: كُنَّا فِي الشِّعْبِ فَكُنَّا نَنْتَقِصُ عُثْمَانَ، فَلَمَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَفْرَطْنَا، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، تَذْكُرُ عَشِيَّةَ الْجَمَلِ؟ أَنَا عَنْ يَمِينِ عَلِيٍّ وَأَنْتَ عَنْ شِمَالِهِ، إِذْ سَمِعْنَا الصَّيْحَةَ مِنْ قِبَلِ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ، الَّتِي بَعَثَ بِهَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَجَدَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ وَاقِفَةً فِي الْمِرْبَدِ تَلْعَنُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَعَنَ الله قَتَلَةَ عُثْمَانَ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَنَا عَنْ يَمِينِ عَلِيٍّ وَهَذَا عَنْ شِمَالِهِ، فَسَمِعْتُهُ مِنْ فِيهِ إِلَى فِي وَابْنُ عَبَّاسٍ، فَوَاللَّهُ مَا عِبْتُ عُثْمَانَ إِلَى يَوْمِي هَذَا».

عن مُنْذِر الثَّوْرِيّ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: فَنَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ مِنْ عُثْمَانَ فَقَالَ: مَهُ، فَقُلْنَا لَهُ: كَانَ أَبُوكَ يَسُبُّ عُثْمَانَ –رضي الله عنه– قَالَ: مَا سَبَّهُ، وَلَوْ سَبَّهُ يَوْمًا لَسَبَّهُ يَوْمَ جِئْتُهُ وَجَاءَهُ السُّعَاةُ، فَقَالَ: خَيْرٌ كِتَابَ اللهُ فِي السُّعَاةِ، فَاذْهَبْ بِهِ إِلَى عُثْمَانَ، فَأَخَذْتُهُ فَذَهَبْتُ بِهِ إِلَيْهِ، فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ، فَجِئْتُ إِلَيْهِ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: ضَعْهُ مَوْضِعَهُ، فَلَوْ سَبَّهُ يَوْمًا لَسَبَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ».

ومع إقرار ابن الحنفية بالفضل لعثمان وإنكاره على الطاعنين فيه فإنه كان يريد أن يقدم أباه في الفضل والمرتبة وذلك بعد تقديم أبي بكر وعمر الفاروق ويتأكد هذا الموقف بما رواه البخاري في صحيحه» عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الحَنَفِيَّةِ، قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ

رَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ: «أَبُو بَكْرٍ»، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: «ثُمَّ عُمَرُ»، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: «مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِين.

قال ابن حجر رحمة الله:

وَهَذَا قَالَهُ عَلِيٌّ تَوَاضُعًا مَعَ مَعْرِفَتِهِ حِينَ الْمُسْأَلَةِ الْمُذْكُورَةِ أَنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ يَوْمِئِذٍ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ وأما خشية مُحَمَّد بن الْحَنَفِيَّةِ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ فَلِأَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ أَبَاهُ أَفْضَلُ فَخَشِيَ أَنَّ عَلِيًّا يَقُولُ عُثْمَانُ عَلَى سَبِيلِ التَّوَاضُعِ مِنْهُ وَالْهَضْمِ لِنَفْسِهِ فَيَضْطَرِبُ حَالُ اعْتِقَادِهِ وَلَا سِيَّمَا وَهُوَ فِي سِنِّ الْحَدَاثَةِ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي الرِّوَايَةِ الْمُذْكُورَةِ.

والرواية التي عناها ابن حجر هي ما أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» من طريق مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ، عَنْ مُنْذِرٍ الثَّوْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: أَوَمَا عَلِمْتَ ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: عُمَرُ، قَالَ: ثُمَّ عَجِلْتُ لِلْحَدَاثَةِ فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ يَا أَبَتِ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَبُوكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ. [وهي رواية ضعيفة ؛ ولكن يمكننا أن نثبت بضميمة أخرى أن محمد ابن الحنفية لم يكن يقدم بعد هذا الحوار عليا على عثمان رضي الله عنهم.

وهي سكوته رحمه الله لما قال له أبوه ما أنا إلا رجل من المسلمين فلم يعترض عليه، ولم يثبت عنه فيما أعلم أنه بعد ذلك قد قدم عليا على عثمان].

هذا وقد روى المدائني بغير إسناد في أنساب الأشراف» – إلا أن معناه موافق لما كان عليه ابن الحنفية – أن رجلا قال لابن الحنفية وَهُوَ بالشام: أعلي أفضل أم عُثْمَانُ؟ فَقَالَ: أعفني. فلم يعفه فَقَالَ: أنت شبيه فرعون حين سأل مُوسَى فَقَالَ: {فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى. قالَ: عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ} فصاح الناس بالشامي: يا شبيه فرعون. حَتَّى هرب إلى مصر.

وهذا الخبر ليس فيه دليل على أن محمد بن الحنفية كان على رأي الشيعة الغلاة الذين صاروا إلى الرفض، بل هو يدل على صحة وسلامة عقيدة محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى؛ ويظهر ذلك من جوانب:

الجانب الأول: أن محمد بن الحنفية روى هذا الحديث عن أبيه، وحدث به ونشره بين الناس، فهذا يشير إلى أن هذه عقيدته وعقيدة أبيه رضي الله عنه.

الجانب الثاني: أن محمد ابن الحنفية لم يفضل والده على أبي بكر وعمر كما يفعل غلاة الشيعة، وإنما توقف في أمر عثمان بسبب النزاع الذي كان قائما بين والده وبين المطالبين بدم عثمان من الشاميين، ومحمد ابن الحنفية يومئذ شاب حدث، فأخذته عاطفته إلى هذا التصرف.

الجانب الثالث: أن مجرد تفضيل الشخص لعلي على عثمان رضي الله عنهما، ليس لوحده دليلا على تلبس هذا الشخص بعقيدة التشيع، فالخلاف في هذا التفضيل واقع بين أهل السنة.

فالحاصل؛ أن محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى من أفاضل السلف، وهذا الخبر المنقول عنه هو نفسه يدل على سلامة عقيدته، وإنصافه واتباعه للحق ونشره وإن خالف عاطفته، ومجانبته لإفك ضلال الشيعة.

وروى ابن عساكر في تاريخه عن عثمان بن إبراهيم بن حاطب قال أول من تكلم في الارجاء الأول الحسن بن محمد بن الحنفية كنت حاضرًا يوم تكلم وكنت في حلقته مع عمي وكان في الحلقة جحدب وقوم معه فتكلموا في علي وعثمان وطلحة والزبير فاكثروا والحسن ساكت ثم تكلم فقال قد سمعت مقالتكم ولم أر شيئًا أمثل من أن يرجأ علي وعثمان وطلحة والزبير فلا يتولوا ولا يتبرأ منهم ثم قام فقمنا قال فقال لي عمي يا بني ليتخذن هؤلاء هذا لكلام إماما قال عثمان فقال به سبعة رجال رأسهم جحدب من تيم الرباب ومنهم حرملة التيمي تيم الرياب أبو علي بن حرملة قال وبلغ أباه محمد بن الحنفية ما قال فضربه بعصًا فشجه وقال لا تولي أباك عليا قال وكتب الرسالة التي ثبت فيها الارجاء بعد ذلك».

والإرجاء الذي تكلم به الحسن بن محمد بن الحنفية ليس بالمذموم الذي يعيبه أهل السنة .

فقد أخرج اللالكائي في شرح أصول الإعتقاد وكذا أبو عروبة الحراني «الأوائل» بإسناد صحيح عَنْ سَلَامِ بْنِ أَبِي مُطِيعٍ، قَالَ: قَالَ أَيُّوبُ: «أَنَا أَكْبَرُ مِنَ الْمُرْجِئَةِ، أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الْإِرْجَاءِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ».

فالإرجاء الذي يقصده عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئًا أو مصيبا وكان يرى أنه يرجىء الأمر فيهما.

وقد ثبت رجوعه رحم الله عن إرجاء أمرهما فقد أخرج ابن سعد في «الطبقات» وغيره بإسناد حسن عَنْ زَاذَانَ وَمَيْسَرَةَ أَنهما دَخَلا عَلَى الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ فَلَامَاهُ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي وَضَعَ فِي الإِرْجَاءِ فَقَالَ لِزَاذَانَ: يَا أَبَا عُمَرَ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ مُتُّ وَلَمْ أَكْتُبْهُ.

وقال الحافظ: والمراد بالإرجاء الذي تكلم الحسن بن محمد فيه غير الإرجاء الذي يعيبه أهل السنة المتعلق بالإيمان وذلك إني وقفت على كتاب الحسن بن محمد المذكور أخرجه بن أبي عمر العدني في كتاب الإيمان له في آخره قال حدثنا إبراهيم بن عيينة عن عبد الواحد بن أيمن قال كان الحسن بن محمد يأمرني أن أقرأ هذا الكتاب على الناس أما بعد فأنا نوصيكم بتقوى الله فذكر كلاما كثيرا في الموعظة والوصية لكتاب الله وأتباع ما فيه وذكر اعتقاده ثم قال في آخره ونوالي أبا بكر وعمر ونجاهد فيهما لأنها لم تقتتل عليهما الأمة ولم تشك في أمرهما ونرجىء من بعدهما ممن دخل في الفتنة فنكل أمرهم إلى الله إلى آخر الكلام فمعنى الذي تكلم فيه الحسن أنه كان يرى عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين في الفتنة بكونه مخطئا أو مصيبا وكان يرى أنه يرجىء الأمر فيهما وأما الإرجاء الذي تعلق بالإيمان فلم يعرج عليه فلا يلحقه بذلك عاب والله أعلم. [تهذيب التهذيب في ترجمة الحسن بن محمد رحمه الله].

** موقفه في معركة الجمل

كان محمد ابن الحنفية ممن شهد موقعة الجمل، وكان في صف أبيه علي بن أبي طالب له، وكان له في هذه الموقعة عدة مواقف:

الأول: أنه كان صاحب الراية.

فعن مُنْذِرِ الثَّوْرِيّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ يَقُولُ وَذَكَرَ يَوْمَ الْجُمَلِ قَالَ: «لَّمَا تَصَافَفْنَا أَعْطَانِي عَلِيٌّ الرَّايَةَ فَرَأَى مِنِّي نُكُورًا لَّمَا دَنَا النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَأَخَذَهَا مِنِّي، فَقَاتَلَ بِهَا. قَالَ: فَحَمَلْتُ يَوْمَئِذٍ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَلَما غَشَيْتُهُ قَالَ: أَنَا عَلَى دِينِ أَبِي طَالِبٍ، فَلَمَّا عَرَفْتُ الَّذِي أَرَادَ كَفَفْتُ عَنْهُ، فَلَمَّا هُزِمُوا قَالَ عَلِيٌّ: لَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا تَتَّبِعُوا مُدْبِرًا، وَقُسِمَ فَيُؤُهُمْ بَيْنَهُمْ مَا قُوتِلَ بِهِ مِنْ سَلَاحٍ أَوْ كُرَاعٍ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مَا أَجْلَبُوا بِهِ عَلَيْنَا مِنْ كُرَاعٍ أَوْ سَلَاحٍ.

وعَنْ مُحَمَّد بن علي بن حسين عن ابن الحنفية: «كنت صاحب راية علي يوم الجمل».

الثاني: إنصافه مع أهل الجمل.

عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ قَالَ: كُنَّا فِي الشِّعْبِ فَكُنَّا نَنْتَقِصُ عُثْمَانَ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ أَفْرَطْنَا، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، تَذْكُرُ عَشِيَّةَ الْجَمَلِ؟ أَنَا عَنْ يَمِينِ عَلِيٍّ وَأَنْتَ عَنْ شِمَالِهِ، إِذْ سَمِعْنَا الصَّيْحَةَ مِنْ قِبَلِ الْمَدِينَةِ؟ قَالَ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ، الَّتِي بَعَثَ بِهَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ وَجَدَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ وَاقِفَةً فِي الْمِرْبَدِ تَلْعَنُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: لَعَنَ اللهُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ، أَنَا عَنْ يَمِينِ عَلِيٍّ وَهَذَا عَنْ شِمَالِهِ، فَسَمِعْتُهُ مِنْ فِيهِ إِلَى فِي وَابْنُ عَبَّاسٍ، فَوَاللَّهِ مَا عِبْتُ عُثْمَانَ إِلَى يَوْمِي هَذَا».

** موقفه في صفين

قد ورد أنه كان حامل الراية في صفين ولا يثبت من ذلك شيئ:

فمن ذلك ما رواه مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرَظِي قَالَ: «كَانَ عَلَى رَجَالَةِ عَلِيٌّ يَوْمَ صِفِّينَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَكَانَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ يَحْمِلُ رَايَتَهُ.

ومنه ما رواه عَبْدُ اللهِ بْنُ زُرَيْرٍ الْغَافِقِيُّ، وَقَدْ كَانَ شَهِدَ صِفِّينَ مَعَ عَلِيٍّ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمًا وَالْتَقَيْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ الشَّامِ، فَاقْتَتَلْنَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ، فَأَسْمَعُ صَالِحًا يَصِيحُ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهَ اللَّهَ مَنْ لِلنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ مِنَ للرُّومِ، مَنْ لِلتُّرْكِ، مَنْ لِلدَّيْلَمِ اللهَ اللَّهَ وَالْبُقْيَا، فَأَسْمَعُ حَرَكَةً مِنْ خَلْفِي، فَالْتَفَتُ، فَإِذَا عَلِيٌّ يَعْدُو بِالرَّايَةِ يُهَرْوِلُ بِهَا حَتَّى أَقَامَهَا، وَلَحِقَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: يَا بُنَيَّ الْزَمْ رَأْيَتَكَ؛ فَإِنِّي مُتَقَدِّمُ فِي الْقَوْمِ، فَأَنْظُرْ إِلَيْهِ يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُفْرَجَ لَهُ، ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهِمْ».

ويروى عنه قوله: "رأيتنا في صفين وقد التقينا مع أصحاب معاوية فاقتتلنا حتى ظننت أنه لن يبقى منا ولا منهم أحدٌ، وما لبثت أن سمعت صائحًا من خلفي يصيح: يا معشر المسلمين، الله الله من للنساء والولدان؟ من للدين والأعراض؟ من للروم والديلم؟ يا معشر المسلمين الله الله والبقيا، فعاهدت نفسي ألا يرفع لي سيف في وجه مسلم بعد ذلك اليوم".

** علاقته بأخويه الحسن والحسين

وردت عدة مواقف مع أخويه الحسن والحسين ولكن الأثار الواردة في ذلك ضعيفة:

منها ما أخرجه ابن أبي خيثمة عن منذر الثوري عن محمد ابن الحنفية قال: «الْحَسَنُ والحُسَيْنُ خيرٌ مِنِّي وَأَنَا أَعْلَمُ بِحَدِيثِ أَبِي مِنْهُمَا».

وعن الْفَضْلِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: «وَقَعَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ كَلَامٌ حَبَسَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنْ صَاحِبِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: أَبِي وَأَبُوكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأُمِّي امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ لَا يُنْكَرُ شَرَفُهَا فِي قَوْمِهَا، وَلَكِنَّ أُمَّكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالْفَضْلِ مِنِّي، فَصِرْ إِلَيَّ حَتَّى تَرَضَّانِي، فَلَبِسَ الْحُسَيْنُ رِدَاءَهُ وَنَعْلَهُ وَصَارَ إِلَيْهِ فَتَرَضَّاهُ».

ومنها: أن أباه عليا قد أوصاه بأخويه الحسن والحسين كما جاء في الأثر عن إسماعيل بن راشد. وهو يحكي خبر ابن ملجم وقتله لعلي بن أبي طالب. قال: «ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ فَقَالَ: هَلْ حَفِظْتَ مَا أَوْصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِمِثْلِهِ،

وَأُوصِيكَ بِتَوقِيرِ أَخَوَيْكَ لِعِظَمِ حَقِّهِمَا عَلَيْكَ، وَتَزْيِينِ أَمْرِهِمَا، وَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: أُوصِيكُمَا بِهِ، فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا، وَابْنُ أَبِيكُمَا، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ .....

ومنها ما رواه ابن عساكر في تاريخه من طريق سفيان بن عيينة قال سمعت: الزهري يقول: قال رجل لمحمد بن الحنفية ما بال أبيك كان يرمي بك في مرام لا يرمي فيها الحسن والحسين قال لأنهما كانا خديه وكنت يده فكان يتوقى بيده عن خديه.

ومنها: رثاؤه لأخيه الحسن بن علي لما مات: فقد رُوِيَ بغير سند أن محمد ابن الحنفية وقف على شفير القبر وقد خنقته العبره فقال: رحمك الله يا أبا محمد فلئن عزت حياتك فلقد هدت وفاتك ولنعم الروح روح ضمه بدنك ولنعم البدن بدن ضمه كفنك ويكون لا يكون ذلك وأنت بقية ولد الأنبياء وسليل الهدى وخامس أصحاب الكساء وغذتك أكف الحق وربيت في حجر الإسلام فطبت حيا وميتا وإن كانت أنفسنا غير طيبة بفراقك».

** ابن الحنفية ومعاوية

استشهد سيدنا علي –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– بصورة غادرة، ثم تنازل الحسن الكريم بن الكريم لمعاوية رضي الله عنهما، والتأم أمر المسلمين في عام الجماعة، وبايعه محمد مع أخيه الحسن، وكانت علاقتهما حسنة وطيبة، وكان محمد يزور معاوية في الشام مرات متعددة ولأكثر من سبب.

سبحان الله ذرية بعضها من بعض، وعجبٌ في التربية، فقد كان فَطِنًا إلى درجة أن جعل الفضل كله لأخيه، ولم يبادر هو إلى مصالحة أخيه حتى لا يكون له الفضل عليه، وأعطاه فرصة لذلك ونبهه على فضل السبق وأدبه هذا ليس مجرد أدب الأخ مع أخيه الأكبر، بل كان أدبًا مع ابن رسول الله ﷺ رضي الله عنه وعن إخوته وكل آل البيت الأطهار.

ةلقد ظلت علاقة ابن الحنفية بمعاوية بن أبي سفيان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– جيدة في الظاهر ولم يعكر صفوها شيء على مدى عشرين عامًا هي مدة خلافة معاوية.

ولا يعرف عن ابن الحنفية أنه اتهم معاوية أو ابنه يزيد بالسعي في قتل الحسن بن علي بالسم وهذا يعد من الأدلة على بطلان هذه التهمة فضلا عن بطلان الروايات التاريخية الواردة بشأنها وهي من وضع الشيعة كما يقول ابن خلدون في تاريخه.

ولابن الحنفية مع معاوية عدة مواقف:

منها: أن ابن الحنفية قال: قدمت على معاوية بن أبي سفيان، فسألني عن العمري فقلت: جعلها رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لمن أعطيها فقال: تقولون ذلك؟ قلت: نعم قال: أشهد أبي عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد ابن الحنفية قال قدمت على معاوية بن أبي سفيان فسألني عن العمري فقلت جعلها رسول الله لمن أعطيها قال تقولون ذلك قلت: نعم. قال فإني أشهد أبي سمعت رسول الله ﷺ يقول من أعمر عمرى فهي له يرثها من عقبه من يرثه» [ضعيف بهذا اللفظ].

ومن تلك المواقف أيضا: ما حكاه المبرد: «أن ملك الروم وجه إلى معاوية أن الملوك قبلك كانت تراسل الملوك منا وتجهد بعضهم أن يغلب على بعض أفتأذن في ذلك؟ فأذن له، فوجه إليه برسولين أحدهما طويل جسيم والآخر أيد فقال معاوية لعمرو بن العاص: أما الطويل فقد أصبنا كفوه وهو قيس بن سعد بن عبادة، وأما الآخر فقد احتجا إلى رأيك. فقال عمرو: ها هنا رجلان كلاهما إليك بغيض؛ محمد ابن الحنفية وعبد الله بن الزبير .....) وقد تقدم .

هذا وقد كان معاوية –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يجل ابن الحنفية ويعظم من شأنه فها هو يمدحه بقوله:

فقال: «ما في قريش كلها أرجح حلما ولا أفضل علما ولا أسكن طائرًا وَلا أبعد من كل كبر وطيش ودنس من مُحَمَّد بن علي !! فَقَالَ لَهُ مروان: ذلك يوم (كذا) والله ما نعرفه إلا بخير، فأما كلما يذكر فإن غيره من مشيخة قريش أولى بِهِ. فَقَالَ مُعَاوِيَة: لا تجعلن من

يتخلق لنا تخلقا، وينتحل لنا الفضل انتحالا كمن جبله الله على الخير وأجراه على السداد فو الله ما علمتك إلا موزعا معزى بالخلاف».

قال ذلك لما بايع مُحَمَّد ابن الحنفية ليزيد بن مُعَاوِيَة، حين أخذ مُعَاوِيَة لَهُ البيعة على الناس، غير مغتاض ولا متلوّ ولا ملتو عَلَيْهِ فكان مُعَاوِيَة يشكر لَهُ ذَلِكَ ويصله عَلَيْهِ.

** موقفه من خروج أخيه الحسين إلى العراق

كان محمد ابن الحنفية معارضًا لأخيه الحسين بن علي في خروجه لأهل الكوفة حيث روى ابن سعد في الطبقات الكبرى بأسانيد كثيرة قال ابن سعد: وغير هؤلاء أيضًا قد حدثني في هذا الحديث بطائفة فكتبت جوامع حديثهم في مقتل الحسين – رحمة الله عليه ورضوانه وصلواته وبركاته .. قالوا:

لما بايع معاوية بن أبي سفيان الناس ليزيد بن معاوية. كان حسين بن علي بن أبي طالب ممن لم يبايع له. وكان أهل الكوفة يكتبون إلى حسين يدعونه إلى الخروج إليهم في خلافة معاوية. كل ذلك يأبى. فقدم منهم قوم إلى محمد بن الحنفية.

فطلبوا إليه أن يخرج معهم. فأبى وجاء إلى الحسين فأخبره بما عرضوا عليه وقال: إنما القوم إنما يريدون أن يأكلوا بنا ويشيطوا دماءنا. فأقام حسين على ما هو عليه من الهموم. مرة يريد أن يسير إليهم. ومرة يجمع الإقامة.

فجاءه أبو سعيد الخدري فقال: يا أبا عبد الله إني لكم ناصح وإني عليكم مشفق. وقد بلغني أنه كاتبك قوم من شيعتكم بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم فلا تخرج فإني سمعت أباك – رحمه الله – يقول بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم وملوني وأبغضوني وما بلوت منهم وفاء. ومن فاز بهم فاز بالسهم الأخيب.

والله ما لهم نيات ولا عزم أمر. ولا صبر على السيف قال: «وقدم المسيب بن نجبة الفزاري وعدة معه إلى الحسين بعد وفاة الحسن فدعوه إلى خلع معاوية وقالوا: قد علمنا رأيك ورأي أخيك فقال إني أرجو أن يعطي الله أخي على نيته في حبه الكف. وأن يعطيني

على نيتي في حبي جهاد الظالمين وكتب مروان بن الحكم إلى معاوية: إني لست آمن أن يكون حسين مرصدًا للفتنة وأظن يومكم من حسين طويلا فكتب معاوية إلى الحسين إن من أعطى الله صفقة يمينه وعهده لجدير بالوفاء. وقد أنبئت أن قوما من أهل الكوفة قد دعوك إلى الشقاق. وأهل العراق من قد جربت. قد أفسدوا على أبيك وأخيك. فاتق الله.

واذكر الميثاق فإنك متى تكدني أكدك فكتب إليه الحسين: أتاني كتابك وأنا بغير الذي بلغك عني جدير والحسنات لا يهدي لها إلا الله وما أردت لك محاربة ولا عليك خلاف فقال معاوية: إن أثرنا بأبي عبد الله إلا أسدًا وكتب إليه معاوية أيضًا في بعض ما بلغه عنه: إني لأظن أن في رأسك نزوة فوددت أني أدركتها فأغفرها لك.

هذا وقد ورد في «أنساب الأشراف» نصيحة ابن الحنفية لأخيه الحسين بن علي – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–؛ قال ابن الحنفية لأخيه الحسين: «يا أخي أنت أعز الناس علي، تنح عن مروان بيعتك وعن الأمصار وابعث رسلك إلى الناس فإن أجمعوا عليك حمدت الله على ذلك، وأن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله دينك ومروءتك وفضلك، إني أخاف أن تدخل بعض الأمصار ويختلف الناس فيك ويقتتلون فتكون لأول الأسنة، فإذا خير الناس نفسًا وأما وأبا قد ضاع دمه وذل أهله، قال: وأين أذهب يا أخي ؟ قَالَ: تنزل مكة فإن اطمأنت بك الدار وإلا لحقت باليمن، فإن اطمأنت بك وإلا لحقت بشعف الجبال حتى تنظر إلى ما يصير أمر الناس ويفرق لك الرأي، فأتى مكة وجعل يتمثل قول الشاعر:

لا ذعرت السوام في وضح الصبح ... مُغِيرًا وَلَا دُعِيتُ يَزِيدًا

يَوْمَ أَعْطَى مَخَافَةَ الموت ضيما ... والمنايا يرصدنني أن أحيدا

ومضى الحسين إلى العراق فقتل، وقد كتبنا حديثه مع أخبار آل أبي طالب.

وهذا وإن كان ضعيفًا فلا يبعد أن يكون صحيحا.

** موقفه من الخوارج

روي أن محمد ابن الحنفية قد شارك في معركة النهروان التي خاضها علي بن أبي طالب ضد الخوارج؛ ففي الحوار الذي دار بينه وبين زعماء المدينة من أجل إقناعه بالخروج معهم والإنضمام إليهم في ثورتهم على يزيد بن معاوية قالوا له: فاخرج بنا حتى نبايعك فقال: لا أستحل القتال تابعا ولا متبوعا. فقالوا: يا محمد أنت قاتلت مع أبيك يوم الجمل ويوم صفين ويوم النهروان فتبسم محمد ابن الحنفية ثم قال: ويحكم وأين تجدون مثل أبي في دهركم هذا.

وإن كان الخبر ضعيفا إلا أنه مؤيد بضمينة أخرى فما الذي يمنع أن يشارك ابن الحنفية في قتال الخوارج يوم النهروان وقد كان ملازما لأبيه في معاركه وحاملا لوالده الراية في بعض المشاهد فالأصل أنه كان مشاركا لأبيه في حروبه ومنها حربه للخوارج لا سيما وقد أثر عنه التحذير من الخوارج والنهي عن الإنخراط في صفوفهم والإنضمام إليهم والخروج معهم ضد الحكام ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن سعد في «الطبقات» أن رجلا من خرسان شكا إليه أنه تعرض للإيذاء والتشريد في البلاد بسبب حبه ونصرته لآل محمد وأنه هم أن يلتحق بالخوارج وقال: "لقد هممت أن أخرج مع قوم شهادتنا وشهادتهم واحده على أمرائنا" فنهاه محمد ابن الحنفية وقال له لا تفعل ولا تفارق الأمة.

** موقفه من خروج أهل المدينة على يزيد

ذكر البلاذري في «أنساب الأشراف» قال: وشخص ابن الحنفية من الشام حَتَّى ورد المدينة، فلما وثب الناس بيزيد وخلعوه ومالوا إلى ابن الزبير، وأتاهم مسلم بن عقبة المري فِي أَهْل الشَّامِ، جاء عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مطيع في رجال من قريش والأنصار فَقَالُوا لابن الحنفية: أخرج معنا نقاتل يزيد. فَقَالَ لهم مُحَمَّد بن علي: على ماذا أقاتله ولم أخلعه؟! قَالُوا: إنه كفر وفجر وشرب الخمر وفسق في الدين . فَقَالَ لهم مُحَمَّد بن الحنفية: ألا تتقون الله هل رآه أحد منكم يعمل ما تذكرون؟ وقد صحبته أكثر مما صحبتموه فما رأيت منه سوءا.

قَالُوا: إنه لم يكن يطلعك على فعله. قَالَ: أفأطلعكم أنتم عَلَيْهِ؟! فلئن كَانَ فعل إنكم لشركاؤه؟ ولئن كان لم يطلعكم لقد شهدتم على غير ما علمتم.

فخافوا أن يثبط قعوده الناس عن الخروج، فعرضوا عَلَيْهِ أن يبايعوه إذ كره أن يبايع لابن الزبير، فَقَالَ: لست أقاتل تابعا ولا متبوعا. قَالُوا: فقد قاتلت مَعَ أبيك. قَالَ: وأين مثل أبي اليوم ؟!!! فأخرجوه كارها ومعه بنوه متسلحين وَهُوَ في نعل ورداء، وَهُوَ يقول: يا قوم اتقوا الله ولا تسفكوا دماءكم.

فلما رأوه غير منقاد لهم خلوه، فذهب أهْل الشَّامِ ليحملوا عَلَيْهِ فضارب بنوه دونه فقتل ابنه القاسم بن مُحَمَّد، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه فقتله.

وأقبل ابن الحنفية إلى رحله فتجهز ثُمَّ خرج إِلَى مَكَّة من فوره ذَلِكَ، فأقام بِهَا حَتَّى حصر عبد الله بن الزُّبَيْرِ حصاره الأول وَهُوَ فِي ذَلِكَ قاعد عَنْهُ لا يغشاه ولا يأتيه.

وسأل قوم من الشيعة من أَهْل الْكُوفَةِ عَن خبره فأعلموا أنه بِمَكَّةَ، فشخصوا إِلَيْه وكانوا سبعة عشر رجلا، وهم معاذ بن هانئ بن عدي ابن أخي حجر ابن عدي الكندي ومحمد بن يزيد بن مزعل الهَمْدَانِي ثُمَّ الصائدي ومحمد بن نشر الهمداني وأبو المعتمر حنش بن ربيعة الكناني، وأبو الطفيل عامر بن واثلة

ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» ولم يذكر موقف يعادي فيه يزيد أو وقف ضده مع الخارجين هذا مع ما سبق بيانه من اعتزاله للفتن ومنعه أخاه الحسين من الخروج للعراق كل ذلك يدل على أنه ما خرج على يزيد والله أعلم.

وأما ما ذكره من موقف ابن عمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–:

فهذا باطل وكذب ومخالف للصحيح الثابت عن ابن عمر ففي صحيح مسلم: وعَنْ نَافِعٍ قَالَ: جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُطِيعٍ حِينَ كَانَ مِنْ أَمْرِ الْحَرَّةِ مَا كَانَ، زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: اطْرَحُوا لِأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ وِسَادَةً، فَقَالَ: إِنِّي لَمْ آتِكَ لِأَجْلِسَ، أَتَيْتُكَ لِأُحَدِّثَكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وعَنْ نَافِعٍ قَالَ: «لَمَّا خَلَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ، جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ حَشَمَهُ وَوَلَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُبَايَعَ رَجُلٌ عَلَى بَيْعِ اللَّهَ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُنْصَبُ لَهُ الْقِتَالُ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ، وَلَا بَايَعَ فِي هَذَا الأَمْرِ، إِلَّا كَانَتِ الفَيْصَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ [البخاري].

** موقفه من الفتنة بين ابن الزبير وعبد الملك بن مروان

كان محمد ابن الحنفية معتزلا للفتنة التي جرت بينهما وأبى أن يضع يده في يد أحد منهما وكان معه على ذلك سبعة آلف رجل كلهم امتنعوا عن البيعة حتى يتفق الناس على إمام واحد جمعا لكلمة المسلمين وخوفًا من تفرقهم واختلافهم:

فأخرج ابن سعد في «الطبقات الكبرى» بإسناد حسن عَنْ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: كُنْتُ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، فَسِرْنَا مِنَ الطَّائِفِ إِلَى أَيْلَةَ بَعْدَ مَوْتِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِزِيَادَةٍ عَلَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. قَالَ: وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ قَدْ كَتَبَ لِمُحَمَّدٍ عَهْدًا عَلَى أَنْ يَدْخُلَ فِي أَرْضِهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَصْطَلِحَ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ، فَإِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى رَجُلٍ بِعَهْدٍ مِنَ اللهِ وَمِيثَاقٍ كَتَبَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ، فَلَمَّا قَدِمَ مُحَمَّدٌ الشَّامَ بَعَثَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِمَّا أَنْ تُبَايِعَنِي، وَإِمَّا أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَرْضِي، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ مَعَهُ سَبْعَةُ آلَافٍ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى أَنْ تُؤَمِّنَ أَصْحَابِي، فَفَعَلَ، فَقَامَ مُحَمَّدٌ فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللهُ وَلِيُّ الْأُمُورِ كُلِّهَا وَحَاكِمُهَا. مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَا يَشَاءُ لَمْ يَكُنْ . كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ. عَجَّلْتُمْ بِالْأَمْرِ قَبْلَ نُزُولِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ فِي أَصْلَابِكُمْ لَمَنْ يُقَاتِلُ مَعَ آلِ مُحَمَّدٍ مَا يَخْفَى عَلَى أَهْلِ الشِّرْكِ أَمْرُ آلِ مُحَمَّدٍ، وَأَمْرُ آلِ مُحَمَّدٍ مُسْتَأْخَرُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَعُودَنَّ فِيكُمْ كَمَا بَدَأَ.

الْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَقَنَ دِمَاءَكُمْ، وَأَحْرَزَ دِينَكُمْ. مَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَأْتِيَ مَأْمَنَهُ إِلَى بَلَدِهِ آمِنًا مَحْفُوظًا فَلْيَفْعَلْ، فَبَقِيَ مَعَهُ تِسْعُمِائَةِ رَجُلٍ، فَأَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ، وَقَلَّدَ هَدْيًا، فَعَمَدْنَا إِلَى الْبَيْتِ، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَدْخُلَ الْحَرَمَ تَلَقَّتْنَا خَيْلُ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَمَنَعَتْنَا أَنْ نَدْخُلَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ

مُحَمَّدٌ، لَقَدْ خَرَجْتُ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُقَاتِلَكَ، وَرَجَعْتُ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُقَاتِلَكَ. دَعْنَا، فَلْنَدْخُلْ، وَلْنَقْضِ نُسُكَنَا، ثُمَّ لَنَخْرُجْ عَنْكَ، فَأَبَى، وَمَعَنَا الْبُدْنُ قَدْ قَلَّدْنَاهَا، فَرَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَكُنَّا بِهَا حَتَّى قَدِمَ الْحَجَّاجُ، فَقَتَلَ ابْنَ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ سَارَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ، فَلَمَّا سَارَ مَضَيْنَا، فَقَضَيْنَا نُسُكَنَا، وَقَدْ رَأَيْتُ الْقَمْلَ يَتَنَاثَرُ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، فَلَمَّا قَضَيْنَا نُسُكَنَا رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَكَثَ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ثُمَّ تُوُفِّيَ».

وعَنْ وَرْدَانَ قَالَ: كُنْتُ فِي الْعِصَابَةِ الَّذِينَ انْتَدَبُوا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ. قَالَ: وَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ قَدْ مَنَعَهُ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ حَتَّى يُبَايِعَهُ، فَأَبَى أَنْ يُبَايِعَهُ. قَالَ: فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِ فَأَرَادَ أَهْلَ الشَّامِ، فَمَنَعَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنْ يَدْخُلَهَا حَتَّى يُبَايِعَهُ فَأَبَى عَلَيْهِ.

قَالَ: فَسِرْنَا مَعَهُ مَا سِرْنَا وَلَوْ أَمَرَنَا بِالْقِتَالِ لَقَاتَلْنَا مَعَهُ، فَجَمَعْنَا يَوْمًا، فَقَسَمَ فِينَا شَيْئًا، وَهُوَ يَسِيرُ، ثُمَّ حَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلْحِقُوا بِرِحَالِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ بِمَا تَعْرِفُونَ، وَدَعُوا مَا تُنْكِرُونَ. وَعَلَيْكُمْ بِخَاصَّةِ أَنْفُسِكُمْ، وَدَعُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ، وَاسْتَقِرُّوا عَنْ أَمْرِنَا كَمَا اسْتَقَرَّتِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ؛ فَإِنَّ أَمْرَنَا إِذَا جَاءَ كَانَ كَالشَّمْسِ الضَّاحِيَةِ. قَالُوا: وَقُتِلَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ، فَلَمَا دَخَلْتُ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ أَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ إِلَى مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكَ: إِنِّي غَيْرُ تَارِكُكَ أَبَدًا حَتَّى تُبَايِعَنِي أَوْ أَعِيدَكَ فِي الْحَبْسِ، وَقَدْ قَتَلَ اللهُ الْكَذَابَ الَّذِي كُنْتَ تَدَّعِي نُصْرَتَهُ، وَأَجْمَعَ عَلَيَّ أَهْلُ الْعِرَاقَيْنِ، فَبَايِعْ لِي، وَإِلَّا فَهِيَ الْحَرْبُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِ امْتَنَعْتَ، فَقَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ لِعُرْوَةَ: مَا أَسْرَعَ أَخَاكَ إِلَى قَطْعِ الرَّحِمِ وَالْإِسْتِخْفَافِ بِالْحَقِّ، وَأَغْفَلَهُ عَنْ تَعْجِيلِ عُقُوبَةِ اللهِ مَا يَشُكُّ أَخُوكَ فِي الْخُلُودِ وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ أَحْمَدَ لِلْمُخْتَارِ وَهَدْيِهِ مِنِّي، وَاللهِ مَا بَعَثَتُ الْمُخْتَارَ دَاعِيًا وَلَا نَاصِرًا، وَلَلْمُخْتَارُ كَانَ إِلَيْهِ أَشَدَّ انْقِطَاعًا مِنْهُ إِلَيْنَا، فَإِنْ كَانَ كَذَّابًا فَطَالَ مَا قَرَّبَهُ عَلَى كَذِبِهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، وَمَا عِنْدِي خِلَافٌ، وَلَوْ كَانَ خِلَافَ مَا أَقَمْتُ فِي جِوَارِهِ، وَلَخَرَجْتُ إِلَى مَنْ يَدْعُونِي، فَأَبَيْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ هَاهُنَا وَاللَّهُ لِأَخِيكَ قَرِينًا يَطْلُبُ مِثْلَ مَا يَطْلُبُ أَخُوكَ كِلَاهُمَا يُقَاتِلَانِ عَلَى الدُّنْيَا: عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ، وَاللَّهُ لَكَأَنَّكَ بِجُيُوشِهِ قَدْ أَحَاطَتْ بِرَقَبَةِ أَخِيكَ، وَإِنِّي لَأَحْسَبُ أَنَّ جِوَارَ عَبْدِ الْمَلِكِ خَيْرٌ لِي مِنْ جِوَارِ

أَخِيكَ، وَلَقَدْ كَتَبَ إِلَيَّ يَعْرِضُ عَلَيَّ مَا قِبَلَهُ، وَيَدْعُونِي إِلَيْهِ. قَالَ عُرْوَةُ: فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَسْتَخِيرُ اللهَ وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَى صَاحِبِكَ. قَالَ: أَذْكُرُ ذَلِكَ لَهُ. فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: وَاللهُ، لَوْ أَطَعْتَنَا لَضَرَبْنَا عُنُقَهُ، فَقَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: وَعَلَامَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ جَاءَنَا بِرِسَالَةٍ مِنْ أَخِيهِ، وَجَاوَرَنَا فَجَرَى بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ كَلَامٌ، فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أَخِيهِ، وَالَّذِي قُلْتُمْ غَدْرٌ وَلَيْسَ فِي الْغَدْرِ خَيْرٌ، لَوْ فَعَلْتُ الَّذِي تَقُولُونَ لَكَانَ الْقِتَالُ بِمَكَّةَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَأْيِي لَوِ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيَّ كُلُّهُمْ إِلَّا إِنْسَانٌ وَاحِدٌ لَمَا قَاتَلْتُهُ، فَانْصَرَفَ عُرْوَةُ فَأَخْبَرَ ابْنَ الزُّبَيْرِ بِمَا قَالَ لَهُ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ. قَالَ: وَاللهِ، مَا أَرَى أَنْ تُعْرِضَ لَهُ. دَعْهُ، فَلْيَخْرُجْ عَنْكَ وَيُغَيِّبُ وَجْهَهُ، فَعَبْدُ الْمَلِكِ أَمَامَهُ لَا يَتْرُكُهُ يَحِلُّ بِالشَّامِ حَتَّى يُبَايِعَهُ وَابْنُ الْحَنَفِيَّةِ لَا يُبَايِعُهُ أَبَدًا حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَإِنْ صَارَ إِلَيْهِ كَفَاكَهُ إِمَّا حَبَسَهُ، وَإِمَّا قَتَلَهُ، فَتَكُونَ أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ مِنْ ذَلِكَ.

فَأَفْئَأُ ابْنُ الزُّبَيْرِ عَنْهُ فَقَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: وَجَاءَ كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَرَسُولٌ حَتَّى دَخَلَ الشِّعْبَ، فَقَرَأَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ الْكِتَابَ، فَقَرَأَ كِتَابًا لَوْ كَتَبَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى بَعْضِ إِخْوَتِهِ أَوْ وَلَدِهِ مَا زَادَ عَلَى أَلْطَافِهِ، وَكَانَ فِيهِ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ، وَقَطَعَ رَحِمَكَ، وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّكَ حَتَّى تُبَايِعَهُ فَقَدْ نَظَرْتَ لِنَفْسِكَ وَدِينِكَ وَأَنْتَ أَعْرَفُ بِهِ حَيْثُ فَعَلْتَ مَا فَعَلْتَ، وَهَذَا الشَّامُ، فَانْزِلْ مِنْهُ حَيْثُ شِئْتَ، فَنَحْنُ مُكْرِمُوكَ وَوَاصِلُوا رَحِمَكَ، وَعَارِفُوا حَقَّكَ، فَقَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا وَجْهُ نَخْرُجُ إِلَيْهِ. قَالَ: فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ وَمَعَهُ كُثَيِّرُ عَزَّةَ يَنْشُدُ شَعَرًا:

أَنْتَ إِمَامُ الْحَقِّ لَسْنَا نَمْتَرِي ** أَنْتَ الَّذِي نَرْضَى بِهِ وَنَرْتَجِي

أَنْتَ ابْنُ خَيْرِ النَّاسِ مِنْ بَعْدِ النَّبِي** يَا ابْنَ عَلِيٍّ سِرْ وَمَنْ مِثْلُ عَلِي

حَتَّى تَحِلَّ أَرْضَ كَلْبٍ وَبَلِي

قال أبو الطُّفَيْلِ: فَسِرْنَا حَتَّى نَزَلْنَا أَيْلَةَ، فَجَاوَرُونَا بِأَحْسَنِ جِوَارٍ، وَجَاوَرْنَاهُمْ بِأَحْسَنِ ذَلِكَ، وَأَحَبُّوا أَبَا الْقَاسِمِ حُبًّا شَدِيدًا، وَعَظَّمُوهُ وَأَصْحَابَهُ، وَأُمِرْنَا بِالْمَعْرُوفِ، وَنُهِينَا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يُظْلَمُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ قُرْبَنَا وَلَا بِحَضْرَتِنَا، فَبَلَغَ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ، فَشَقَّ ذَلِكَ

عَلَيْهِ، وَذَكَرَهُ لِقَبِيصَةَ بْنِ ذُؤَيْبٍ وَرَوْحِ بْنِ زِنْبَاعٍ، وَكَانَا خَاصَّتَهُ، فَقَالَا: مَا نَرَى أَنْ نَدَعَهُ يُقِيمُ فِي قُرْبَةٍ مِنْكَ وَسِيرَتُهُ سِيرَتُهُ حَتَّى يُبَايِعَ لَكَ أَوْ تَصْرِفَهُ إِلَى الْحِجَازِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادِي، فَنَزَلْتَ فِي طَرَفٍ مِنْهَا وَهَذِهِ الْحَرْبُ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الزُّبَيْرِ كَمَا تَعْلَمُ، وَأَنْتَ لَكَ ذِكْرٌ وَمَكَانٌ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ لَا تُقِيمَ فِي سُلْطَانِي إِلَّا أَنْ تَبَايِعَ لِي فَإِنْ بَايَعْتَنِي فَخُذِ السُّفُنَ الَّتِي قَدِمَتْ عَلَيْنَا مِنَ الْقُلْزُمِ وَهِيَ مِائَةُ مَرْكَبٍ فَهِيَ لَكَ وَمَا فِيهَا، وَلَكَ أَلْفَا أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعَجِّلُ لَكَ مِنْهَا خَمْسَمِائَةِ أَلْفٍ، وَأَلْفَ أَلْفٍ، وَخَمْسَمِائَةِ أَلْفٍ آتَيْتُكَ مَعَ مَا أَرَدْتَ مِنْ فَرِيضَةٍ لَكَ وَلِوَلَدِكَ، وَلِقَرَابَتِكَ، وَمَوَالِيكَ، وَمَنْ مَعَكَ وَإِنْ أَبَيْتَ فَتَحَوَّلْ عَنْ بَلَدِي إِلَى مَوْضِعٍ لَا يَكُونُ لِي فِيهِ سُلْطَانٌ.

قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ. سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَرَفْتَ رَأْيِي فِي هَذَا الْأَمْرِ قَدِيمًا، وَإِنِّي لَسْتُ أُسَفِّهُهُ عَلَى أَحَدٍ، وَاللَّهُ لَوِ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَيَّ إِلَّا أَهْلُ الزَّرْقَاءِ مَا قَاتَلْتُهُمْ أَبَدًا وَلَا اعْتَزَلْتُهُمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا نَزَلْتُ مَكَّةَ فِرَارًا مِمَّا كَانَ بِالْمَدِينَةِ، فَجَاوَرْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَأَسَاءَ جِوَارِي، وَأَرَادَ مِنِّي أَنْ أُبَايِعَهُ فَأَبَيْتُ ذَلِكَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَيْكَ أَوْ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَدْخُلَ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ، فَأَكُونَ كَرَجُلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ كَتَبْتَ إِلَيَّ تَدْعُونِي إِلَى مَا قِبَلَكَ، فَأَقْبَلْتُ سَائِرًا، فَنَزَلْتُ فِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِكَ، وَاللَّهُ مَا عِنْدِي خِلَافٌ وَمَعِي أَصْحَابِي، فَقُلْنَا بِلَادٌ رَخِيصَةُ الْأَسْعَارِ وَنَدْنُو مِنْ جِوَارِكَ وَنَتَعَرَّضُ صِلَتَكَ، فَكَتَبْتَ بِمَا كَتَبْتَ بِهِ وَنَحْنُ مُنْصَرِفُونَ عَنْكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

** مبايعته لعبد الملك بن مروان

وقد وردت عدة روايات في هذا الباب ولكن لا يثبت شئ

منها: ما رواه ابن سعد من طريق ابن عمر المتروك عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الْمَوَالِ عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «لَمَّا صَارَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيَّ إِلَى الشِّعْبِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَابْنُ الزُّبَيْرِ لَمْ يُقْتَلْ، وَالْحَجَّاجُ مُحَاصِرُهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنْ يُبَايِعَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَالَ

ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: قَدْ عَرَفْتُ مَقَامِي بِمَكَّةَ، وَشُخُوصِي إِلَى الطَّائِفِ وَإِلَى الشَّامِ كُلُّ هَذَا إِبَاءٌ مِنِّي أَنْ أُبَايِعَ ابْنَ الزُّبَيْرِ أَوْ عَبْدَ الْمَلِكِ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى أَحَدِهِمَا وَأَنَا رَجُلٌ لَيْسَ عِنْدِي خِلَافٌ لَّا رَأَيْتُ النَّاسَ اخْتَلَفُوا اعْتَزَلْتُهُمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا فَأَوَيْتُ إِلَى أَعْظَمِ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً يَأْمَنُ فِيهِ الطَّيْرُ فَأَسَاءَ ابْنُ الزُّبَيْرِ جِوَارِي، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى الشَّامِ فَكَرِهَ عَبْدُ الْمَلِكِ قُرْبِي، فَتَحَوَّلْتُ إِلَى الْحَرَمِ فَإِنْ يُقْتَلِ ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَيَجْتَمِعِ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ أَبَايِعْكَ، فَأَبَى الْحَجَّاجُ أَنَّ يَرْضَى بِذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى يُبَايِعَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَبَى ذَلِكَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ، وَأَبَى الْحَجَّاجُ أَنْ يُقِرَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمْ يَزَلْ مُحَمَّدٌ يُدَافِعُهُ حَتَّى قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ.

وما أجوده من خبر لولا أن فيه الواقدي.

ومنها: أن ابن الحنفية قد بايع عبد الملك بن مروان بعد موت عبد الله بن الزبير فقد أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى بسند لا يصح من طريق محمد بن عمر قال أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: «لَمْ يُبَايِعْ أَبِي الْحَجَّاجَ لَما قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بَعَثَ الْحَجَّاجُ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: قَدْ قَتَلَ اللهُ عَدُوَّ اللَّهِ، فَقَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: إِذَا بَايَعَ النَّاسُ بَايَعْتُ. قَالَ: وَاللهِ لَأَقْتُلَنَّكَ. قَالَ: أَوَ لَا تَدْرِي أَنَّ للَّهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ لَحَظَةً، فِي كُلِّ حَظَةٍ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ قَضِيَّةً، فَلَعَلَّهُ يَكْفِينَاكَ فِي قَضِيَّةٍ مِنْ قَضَايَاهُ.

قَالَ فَكَتَبَ بِذَلِكَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَتَاهُ كِتَابُهُ، فَأَعْجَبَهُ، وَكَتَبَ بِهِ إِلَى صَاحِبِ الرُّومِ، وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الرُّومِ كَتَبَ إِلَيْهِ يُهَدِّدُهُ أَنَّهُ قَدْ جَمَعَ لَهُ جُمُوعًا كَثِيرَةً، فَكَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بِذَلِكَ الْكَلَامِ إِلَى صَاحِبِ الرُّومِ، وَكَتَبَ قَدْ عَرَفْنَا أَنَّ مُحَمَّدًا لَيْسَ عِنْدَهُ خِلَافٌ وَهُوَ يَأْتِيكَ وَيُبَايِعُكَ، فَارْفُقْ بِهِ.

فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَبَايَعَ ابْنُ عُمَرَ قَالَ ابْنُ عُمَرَ لِابْنِ الْحَنَفِيَّةِ: مَا بَقِيَ شَيْءٌ، فَبَايِعْ، فَكَتَبَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. لِعَبْدِ الله عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ الْأُمَّةَ قَدِ اخْتَلَفَتِ اعْتَزَلْتُهُمْ، فَلَمَّا أَفْضَى هَذَا الْأَمْرُ إِلَيْكَ، وَبَايَعَكَ النَّاسُ كُنْتُ كَرَجُلٍ مِنْهُمْ أَدْخُلُ فِي صَالِحِ مَا دَخَلُوا

فِيهِ، فَقَدْ بَايَعْتُكَ وَبَايَعْتُ الْحَجَّاجَ لَكَ، وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِبَيْعَتِي، وَرَأَيْتُ النَّاسَ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَيْكَ وَنَحْنُ نُحِبُّ أَنْ تُؤَمِّنَنَا وَتُعْطِينَا مِيثَاقًا عَلَى الْوَفَاءِ؛ فَإِنَّ الْغَدْرَ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، فَلَمَّا قَرَأَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْكِتَابَ قَالَ قَبِيصَةُ بْنُ ذُؤَيْبٍ وَرَوْحُ بْنُ زِنْبَاعٍ: مَا لَكَ عَلَيْهِ سَبِيلٌ وَلَوْ أَرَادَ فَتْقًا لَقَدِرَ عَلَيْهِ وَلَقَدْ سَلَّمَ وَبَايَعَ فَنَرَى أَنْ تَكْتُبَ إِلَيْهِ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ بِالْأَمَانِ لَهُ وَالْعَهْدِ لِأَصْحَابِهِ، فَفَعَلَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنَّكَ عِنْدَنَا مَحْمُودٌ، أَنْتَ أَحَبُّ وَأَقْرَبُ بِنَا رَحِمًا مِنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَلَكَ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ، وَذِمَّةٌ رَسُولِهِ، أَنْ لَا تُهَاجَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِكَ بِشَيْءٍ تَكْرَهُهُ ارْجِعْ إِلَى بَلَدِكَ، وَاذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ، وَلَسْتَ أَدْعُ صِلَتَكَ وَعَوْنَكَ مَا حَبِيتُ. وَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ يَأْمُرُهُ بِحُسْنِ جِوَارِهِ وَإِكْرَامِهِ فَرَجَعَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

ومنها: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنَا شُرَحْبِيلُ بْنُ أَبِي عَوْنٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: وَقَفَتْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَرْبَعَةُ أَلْوِيَةٍ بِعَرَفَةَ: مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ فِي أَصْحَابِهِ عَلَى لِوَاءٍ. قَامَ عِنْدَ حَبْلِ الْمُشَاةِ، وَحَجَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي أَصْحَابِهِ مَعَهُ لِوَاءٌ، فَقَامَ مَقَامَ الْإِمَامِ الْيَوْمَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ بِأَصْحَابِهِ حَتَّى وَقَفَ حِذَاءَ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَوَافَى نَجْدَةَ الْحَرُورِيَّ فِي أَصْحَابِهِ وَمَعَهُ لِوَاءٌ، فَوَقَفَ خَلْفَهُمَا، وَوَافَتْ بَنُو أُمَيَّةَ وَمَعَهُمْ لِوَاءٌ، فَوَقَفُوا عَنْ يَسَارِهِمَا، فَكَانَ أَوَّلُ لِوَاءٍ أَنْغَضَ لِوَاءُ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ ثُمَّ تَبِعَهُ نَجْدَةُ، ثُمَّ لِوَاءُ بَنِي أُمَيَّةَ، ثُمَّ لِوَاءُ ابْنِ الزُّبَيْرِ، وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ. **[ضعيف جدا]**

ومنها: أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنَا رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَإِسْحَاقُ بْنُ يَحْيَى بْنِ طَلْحَةَ، وَهِشَامُ بْنُ عُمَارَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، وَالْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ وَغَيْرِهِمْ أَيْضًا قَدْ حَدَّثَنِي قَالُوا: «لما جَاءَ نَعْيُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَ بِهَا يَوْمَئِذٍ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَمُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِمَكَّةَ فَخَرَجَ الْحُسَيْنُ وَابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى مَكَّةَ وَأَقَامَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى سَمِعَ بِدُنُو جَيْشِ مُسْرِفِ أَيَّامِ الْحَرَّةِ، فَرَحَلَ إِلَى مَكَّةَ، فَأَقَامَ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَلَمَّا جَاءَ نَعْيُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَبَايَعَ ابْنُ الزُّبَيْرِ لِنَفْسِهِ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَيْهِ دَعَا ابْنَ

عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى الْبَيْعَةَ لَهُ فَأَبَيَا يُبَايِعَانِ لَهُ، وَقَالَا: حَتَّى يَجْتَمِعَ لَكَ الْبِلَادُ، وَيَتَّسِقَ لَكَ النَّاسُ، فَأَقَامَا عَلَى ذَلِكَ مَا أَقَامَا.

فَمَرَّةً يُكَاشِرُهُمَا وَمَرَّةً يَلِينُ فَمَا، وَمَرَّةً يُبَادِيها، ثُمَّ غَلُظَ عَلَيْهِمَا، فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ كَلَامٌ وَشَرٌّ، فَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَغْلُظُ حَتَّى خَافَا مِنْهُ خَوْفًا شَدِيدًا وَمَعَهُمَا النِّسَاءُ وَالذُّرِّيَّةُ، فَأَسَاءَ جِوَارَهُمْ، وَحَصَرَهُمْ وَآذَاهُمْ، وَقَصَدَ لِمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ فَأَظْهَرَ شَتْمَهُ وَعَيْبَهُ، وَأَمَرَهُ وَبَنِي هَاشِمٍ أَنْ يَلْزَمُوا شِعْبَهُمْ بِمَكَّةَ، وَجَعَلَ عَلَيْهِمُ الرُّقَبَاءَ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا يَقُولُ: وَاللَّهُ، لَتُبَايِعَنَّ أَوْ لَأَحْرِقَنَّكُمْ بِالنَّارِ، فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ.

قَالَ سُلَيْمٌ أَبُو عَامِرٍ: فَرَأَيْتُ مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ مَحْبُوسًا فِي زَمْزَمَ، وَالنَّاسُ يُمْنَعُونَ مِنَ الدُّخُولِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ، لَأَدْخُلَنَّ عَلَيْهِ، فَدَخَلْتُ، فَقُلْتُ: مَا بَالُكَ؟ وَهَذَا الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: دَعَانِي إِلَى الْبَيْعَةِ، فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا عَلَيْكَ فَأَنَا كَأَحَدِهِمْ، فَلَمْ يَرْضَ بِهَذَا مِنِّي، فَاذْهَبْ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَأَقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُلْ: يَقُولُ لَكَ ابْنُ عَمِّكَ: مَا تَرَى. قَالَ سُلَيْمٌ: فَدَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ ذَاهِبُ الْبَصَرِ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: أَنْصَارِيٌّ، فَقَالَ: رُبَّ أَنْصَارِيٍّ هُوَ أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ عَدُوِّنَا، فَقُلْتُ: لَا تَخَفْ؛ فَأَنَا مِمَّنْ لَكَ كُلُّهُ. قَالَ: هَاتِ، فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، فَقَالَ: قُلْ لَهُ: لَا تُطِعْهُ، وَلَا نَعْمَةَ عَيْنٍ إِلَّا مَا قُلْتُ، وَلَا تَزِدْهُ عَلَيْهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، فَأَبْلَغْتُهُ مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَهَمَّ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ أَنْ يَقْدَمَ إِلَى الْكُوفَةِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ الْمُخْتَارَ، فَثَقُلَ عَلَيْهِ قُدُومُهُ، فَقَالَ: إِنَّ فِي الْمَهْدِيِّ عَلَامَةً يَقْدَمُ بَلَدَكُمْ هَذَا فَيَضْرِبُهُ رَجُلٌ فِي السُّوقِ بِالسَّيْفِ لَا تَضُرُّهُ وَلَا تَحِيكُ فِيهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ، فَأَقَامَ، فَقِيلَ لَهُ لَوْ بَعَثْتَ إِلَى شِيعَتِكَ بِالْكُوفَةِ، فَأَعْلَمْتَهُمْ مَا أَنْتُمْ فِيهِ، فَبَعَثَ أَبَا طُفَيْلٍ عَامِرَ بْنَ وَائِلَةَ إِلَى شِيعَتِهِمْ بِالْكُوفَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: إِنَّا لَا نَأْمَنُ ابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ، وَأَخْبَرَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ فَقَطَعَ الْمُخْتَارُ بَعْثًا إِلَى مَكَّةَ، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، فَعَقَدَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْجَدَلِي عَلَيْهِمْ، وَقَالَ لَهُ: سِرْ، فَإِنْ وَجَدْتَ بَنِي هَاشِمٍ فِي الْحَيَاةِ، فَكُنْ لَهُمْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَضُدًا، وَانْفِذْ لِمَا أَمَرُوكَ بِهِ، وَإِنْ وَجَدْتَ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ قَتَلَهُمْ فَاعْتَرِضْ أَهْلَ مَكَّةَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ لَا تَدَعْ مِنْ آلِ الزُّبَيْرِ شُفْرًا وَلَا

ظُفْرًا، وَقَالَ: يَا شُرْطَةَ اللَّهِ، لَقَدْ أَكْرَمَكُمُ اللهُ بِهَذَا الْمَسِيرِ، وَلَكُمْ بِهَذَا الْوَجْهِ عَشْرُ حِجَجٍ وَعَشْرُ عُمَرَ، وَسَارَ الْقَوْمُ وَمَعَهُمُ السَّلَاحُ حَتَّى أَشْرَفُوا عَلَى مَكَّةَ فَجَاءَ الْمُسْتَغِيثُ: أَعْجِلُوا فَمَا أَرَاكُمْ تُدْرِكُونَهُمْ، فَقَالَ النَّاسُ: لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُوَّةِ عَجَّلُوا، فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ ثَمَانُمِائَةٍ رَأْسُهُمْ عَطِيَّةُ بْنُ سَعْدِ بْنِ جُنَادَةَ الْعَوْفِيُّ حَتَّى دَخَلُوا مَكَّةَ، فَكَبَّرُوا تَكْبِيرَةً سَمِعَهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ، فَانْطَلَقَ هَارِبًا حَتَّى دَخَلَ دَارَ النَّدْوَةِ، وَيُقَالُ: بَلْ تَعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَقَالَ: أَنَا عَائِذُ الله. قَالَ عَطِيَّةُ: ثُمَّ مِلْنَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَأَصْحَابُهُمَا فِي دُورٍ قَدْ جُمِعَ لَهُمُ الْحَطَبُ، فَأُحِيطَ بِهِمْ حَتَّى بَلَغَ رُءُوسَ الْجُدُرِ لَوْ أَنَّ نَارًا تَقَعُ فِيهِ مَا رُئِيَ مِنْهُمْ أَحَدٌ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، فَأَخَرْنَاهُ عَنِ الْأَبْوَابِ، وَعَجَلَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ، فَأَسْرَعَ فِي الْحَطَبِ يُرِيدُ الْخُرُوجَ، فَأَدْمَى سَاقَيْهِ، وَأَقْبَلَ أَصْحَابُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فَكُنَّا صَفَّيْنِ نَحْنُ وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ نَهَارُنَا وَنَهَارُهُ لَا تَنْصَرِفُ إِلَّا إِلَى صَلَاةٍ حَتَّى أَصْبَحْنَا، وَقَدِمَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْجَدَلِيُّ فِي النَّاسِ، فَقُلْنَا لِابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الْحَنَفِيَّةِ ذَرُونَا نُرِيحُ النَّاسَ مِنِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَا: هَذَا بَلَدٌ حَرَّمَهُ الله، مَا أَحَلَّهُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلنَّبِيِّ ﷺ سَاعَةً، مَا أَحَلَّهُ لِأَحَدٍ قَبْلَهُ، وَلَا يُحِلُّهُ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ، فَامْنَعُونَا وَأَجِيرُونَا.

قَالَ: فَتَحَمَّلُوا، وَإِنَّ مُنَادِيًا لَيُنَادِي فِي الْجَبَلِ: مَا غَنِمَتْ سَرِيَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا مَا غَنِمَتْ هَذِهِ السَّرِيَّةُ إِنَّ السَّرَايَا تَغْنَمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَإِنَّمَا غَنِمْتُمْ دِمَاءَنَا، فَخَرَجُوا بِهِمْ حَتَّى أَنْزَلُوهُمْ مِنِّي، فَأَقَامُوا بِهَا مَا شَاءَ اللَّهِ أَنْ يُقِيمُوا، ثُمَّ خَرَجُوا إِلَى الطَّائِفِ، فَأَقَامُوا مَا أَقَامُوا، وَتُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ بِالطَّائِفِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَصَلَّى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ، وَبَقِينَا مَعَ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْحَجُّ وَحَجَّ ابْنُ الزُّبَيْرِ مِنْ مَكَّةَ فَوَافَى عَرَفَةَ فِي أَصْحَابِهِ، وَوَافَى مُحَمَّدَ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ مِنَ الطَّائِفِ فِي أَصْحَابِهِ، فَوَقَفَ بِعَرَفَةَ وَوَافَى نَجْدَةَ بْنَ عَامِرٍ الْحَنَفِيَّ تِلْكَ السَّنَةَ فِي أَصْحَابِهِ مِنَ الْخَوَارِجِ فَوَقَفَ نَاحِيَةً، وَحَجَّتْ بَنُو أُمَيَّةَ عَلَى لِوَاءٍ، فَوَقَفُوا بِعَرَفَةَ فِيمَنْ مَعَهُمْ.

** علاقته بعبد الملك بن مروان

قد وردت عدة روايات توضح مدى حسن العلاقة التي كانت بين ابن الحنفية وعبد الملك بن مروان إلا أنها لا يثبت منها شيئ:

منها ما رواه مُعَاوِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَّما صَارَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَنَى دَارَهُ بِالْبَقِيعِ كَتَبَ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْوفُودِ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ يَأْذَنُ لَهُ فِي أَنْ يَقْدَمَ عَلَيْهِ، فَوَفَدَ عَلَيْهِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَهِيَ السَّنَةُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدِمَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بِدِمَشْقَ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَهُ وَأَمَرَ لَهُ بِمَنْزِلٍ قَرِيبٍ مِنْهُ، وَأَمَرَ أَنْ يُجْرَى عَلَيْهِ نُزُلٌ يَكْفِيهِ وَيَكْفِي مَنْ مَعَهُ، وَكَانَ يَدْخُلُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ فِي إِذْنِ الْعَامَّةِ إِذَا أَذِنَ عَبْدُ الْمَلِكِ بَدَأَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ، ثُمَّ أَذِنَ لَهُ فَسَلَّمَ فَمَرَّةً يَجْلِسُ وَمَرَّةً يَنْصَرِفُ، فَلَمَّا مَضَى مِنْ ذَلِكَ شَهْرٌ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ كَلَّمَ عَبْدُ الْمَلِكِ خَالِيًا فَذَكَرَ قَرَابَتَهُ وَرَحِمَهُ وَذَكَرَ دَيْنًا عَلَيْهِ فَوَعَدَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ أَنْ يَقْضِيَ دَيْنَهُ وَأَنْ يَصِلَ رَحِمَهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَ حَوَائِجَهُ، فَرَفَعَ مُحَمَّدٌ دَيْنَهُ، وَحَوَائِجَهُ، وَفَرَائِضَ لِوَلَدِهِ وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ حَامَّتِهِ وَمَوَالِيهِ، فَأَجَابَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ، وَتَعَسَّرَ عَلَيْهِ فِي الْمَوَالِي أَنْ يَفْرِضَ لَهُمْ وَأَلَحَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ، فَفَرَضَ لَهُمْ فَقَصَّرَ بِهِمْ فَكَلَّمَهُ فَرَفَعَ فِي فَرَائِضِهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ حَاجَةٌ إِلَّا قَضَاهَا، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْإِنْصِرَافِ فَأَذِنَ لَهُ. [وهذا حديث ضعيف جدا أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/٨٣) من طريق مُحَمَّدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَافِعٍ، عَن أَبيه]

ومنها ما رواه عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: وَفَدْتُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَضَى حَوَائِجِي وَوَدَّعْتُهُ، فَلَمَّا كِدْتُ أَنْ أَتَوَارَى مِنْ عَيْنَيْهِ نَادَانِي: أَبَا الْقَاسِمِ، أَبَا الْقَاسِمِ، فَكَرَرْتُ، فَقَالَ لِي: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّكَ يَوْمَ تَصْنَعُ بِالشَّيْخِ مَا تَصْنَعُ ظَالِمٌ لَهُ يَعْنِي حِينَ أَخَذَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ يَوْمَ الدَّارِ فَدَعَتْهُ بِرِدَائِهِ. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَلِي يَوْمَئِذٍ ذُؤَابَةٌ. [أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٥/١١٢) من طريق محمد بن عمر عن عبد الله بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَبِي عَوْنٍ عن محمد ابن الحنفية]

ومنها ما أخرجه ابن سعد في الطبقات قال أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: حَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: وَفَدْتُ مَعَ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَعِنْدَهُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ، فَدَعَا عَبْدُ الْمَلِكِ بِسَيْفِ النَّبِيِّ، فَأُتِيَ بِهِ، وَدَعَا بِصَيْقَلٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ حَدِيدَةً قَطُّ أَجْوَدَ مِنْهَا. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: وَلَا وَاللهِ مَا

أَرَى النَّاسُ مِثْلَ صَاحِبِهَا، يَا مُحَمَّدُ، هَبْ لِي هَذَا السَّيْفَ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ: أَيُّنَا رَأَيْتَ أَحَقَّ بِهِ فَلْيَأْخُذْهُ. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنْ كَانَ لَكَ قَرَابَةٌ فَلِكُلِّ قَرَابَةٍ حَقٌّ قَالَ: فَأَعْطَاهُ مُحَمَّدٌ عَبْدَ الْمَلِكِ، وَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ هَذَا – يَعْنِي الْحَجَّاجَ وَهُوَ عِنْدَهُ قَدْ آذَانِي وَاسْتَخَفَّ بِحَقِّي، وَلَوْ كَانَتْ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ أَرْسِلْ إِلَيَّ فِيهَا، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: لَا إِمْرَةَ لَكَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا وَلَّى مُحَمَّدٌ. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ لِلْحَجَّاجِ: أَدْرِكْهُ، فَسُلَّ سَخِيمَتَهُ، فَأَدْرَكَهُ، فَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لِأَسُلَّ سَخِيمَتَكَ وَلَا مَرْحَبًا بِشَيْءٍ سَاءَكَ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ: وَيْحَكَ يَا حَجَّاجُ، اتَّقِ اللهَ، وَاحْذَرِ اللهَ مَا مِنْ صَبَاحٍ يُصْبِحُهُ الْعِبَادُ إِلَّا لِلَّهِ فِي كُلِّ عَبْدٍ مِن عِبَادِهِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ لَحَظَةً إِنْ أَخَذَ أَخَذَ بِمَقْدِرَةٍ وَإِنْ عَفَا عَفَا بِحِلْمٍ، فَاحْذَرِ اللهَ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: لَا تَسْأَلْنِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَهُ، فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: وَتَفْعَلُ؟ قَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ صَرْمَ الدَّهْرِ. قَالَ: فَذَكَرَ الْحَجَّاجُ ذَلِكَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَرْسَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى رَأْسِ الْجَالُوتَ، فَذَكَرَ لَهُ الَّذِي قَالَ مُحَمَّدٌ، وَقَالَ: إِنَّ رَجُلًا مِنَّا ذَكَرَ حَدِيثًا مَا سَمِعْنَاهُ إِلَّا مِنْهُ، وَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ رَأْسُ الْجَالُوتَ: مَا خَرَجَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ إِلَّا مِنْ بَيْتِ نُبُوَّةٍ.

وأخرج البلاذري في أنساب الأشراف من طريق يزيد بن عياض بن جعدبة المتروك:

قَالَ عَبْد الملك لابن الحنفية، حين قدم عَلَيْهِ وهما خلوان: أتذكر فعلتك يوم الدار؟ فَقَالَ: أنشدك الله والرحم يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: والله ما ذكرتها وَلا أذكرها (كذا) وَكَانَ مُحَمَّد سمع مروان قَالَ لعلي يوم الدار: قطع الله الليلة أثرك. فأخذ محمد بحمائل سيف مروان، فرجع علي –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– ففرق بينهما. [أنساب الأشراف].

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَ: كَتَبَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يَتَهَدَّدُهُ وَيَتَوَعَّدُهُ وَيَحْلِفُ لَهُ لَيَجْعَلَنَّ لَهُ مِائَةَ أَلْفٍ فِي الْبَرِّ وَمِائَةَ أَلْفٍ فِي الْبَحْرِ، أَوْ يؤَدِّي إِلَيْهِ الْجِزْيَةَ، فَسَقَطَ فِي دِرْعِهِ. وَكَتَبَ إِلَى الْحَجَّاجِ أَنِ اكْتُبْ إِلَى ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ فَتَهَدَّدَهُ وَتَوَاعَدَهُ، ثُمَّ أَعْلِمْنِي مَا يَرُدُّ عَلَيْكَ، فَكَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ بِكِتَابٍ شَدِيدٍ يَتَهَدَّدُهُ وَيَتَوَاعَدُهُ فِيهِ بِالْقَتْلِ، قَالَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ: إِنَّ للَّهَ تعالى ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتِّينَ لَحَظَةً إِلَى خَلْقِهِ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيَّ نَظْرَةً يَمْنَعُنِي بِهَا مِنْكَ، قَالَ: فَبَعَثَ الْحَجَّاجُ بِكِتَابِهِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ،

فَكَتَبَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ نُسْخَتَهُ، فَقَالَ مَلِكُ الرُّومِ: مَا هَذَا خَرَجَ مِنْكَ، وَلَا أَنْتَ كَتَبْتَ بِهِ، مَا خَرَجَ إِلَّا مِنْ بَيْتِ نُبُوَّةٍ ». [أبو نعيم في الحلية وفيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف]

والخلاصة أن ذلك لم يصح منه ولكن قد يفهم من التاريخ أن ذلك صح لأنه لو لم يكن كذلك لظهرت مخالفته ومعارضته لعبد الملك بن مروان أو من قبل الحجاج كما حصل في شأن عبد الله بن الزبير مع ما أثر عنه من تجنبه الفتن.

** محمد ابن الحنفية والمختار الثقفي

أخرج ابن سعد في «الطبقات الكبرى» من طريق محمد بن عمر المتروك قال: حَدَّثَنِي جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ خَالِدِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: وَحَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ يَحْيَى بْنِ طَلْحَةَ وَغَيْرُهُمَا قَالُوا: كَانَ الْمُخْتَارُ لَّما قَدِمَ الْكُوفَةَ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ وَأَعْيَبَهُ لَهُ، وَجَعَلَ يُلْقِي إِلَى النَّاسِ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ كَانَ يَطْلُبُ هَذَا الْأَمْرَ لِأَبِي الْقَاسِمِ يَعْنِي ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ ثُمَّ ظَلَمَهُ إِيَّاهُ، وَجَعَلَ يَذْكُرُ ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ وَحَالَهُ وَوَرَعَهُ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ إِلَى الْكُوفَةِ يَدْعُو لَهُ، وَأَنَّهُ كَتَبَ لَهُ كِتَابًا فَهُوَ لَا يَعْدُوهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَيَقْرَأُ ذَلِكَ الْكِتَابَ عَلَى مَنْ يَثِقُ بِهِ، وَجَعَلَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ لِمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنِيفِيَّةِ فَيُبَايِعُونَهُ لَهُ سِرًّا، فَشَكَّ قَوْمٌ مِمَّنْ بَايَعَهُ فِي أَمْرِهِ، وَقَالُوا: أَعْطَيْنَا هَذَا الرَّجُلَ عُهُودَنَا أَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَسُولُ ابْنِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَابْنُ الْحَنِيفِيَّةِ بِمَكَّةَ لَيْسَ مِنَّا بِبَعِيدٍ وَلَا مُسْتَتِرٍ، فَلَوْ شَخَصَ مِنَّا قَوْمٌ إِلَيْهِ فَسَأَلُوهُ عَمَّا جَاءَ بِهِ هَذَا الرَّجُلُ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا نَصَرْنَاهُ وَأَعَنَّاهُ عَلَى أَمْرِهِ، فَشَخَصَ مِنْهُمْ قَوْمٌ، فَلَقُوا ابْنَ الْحَنَفِيَّةِ بِمَكَّةَ، فَأَعْلَمُوهُ أَمْرَ الْمُخْتَارِ وَمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: نَحْنُ حَيْثُ تَرَوْنَ مُحْتَسِبُونَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي سُلْطَانَ الدُّنْيَا بِقَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ انْتَصَرَ لَنَا بِمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، فَاحْذَرُوا الْكَذَّابِينَ، وَانْظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَدِينِكُمْ فَانْصَرَفُوا عَلَى هَذَا، وَكَتَبَ الْمُخْتَارُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْتَرِ وَجَاءَ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: الْمُخْتَارُ أَمِينُ آلِ مُحَمَّدٍ وَرَسُولُهُ، فَأَذِنَ لَهُ وَحَيَّاهُ، وَرَحَّبَ بِهِ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَتَكَلَّمَ الْمُخْتَارُ – وَكَانَ مُفَوَّهًا – فَحَمِدَ اللَّهَ،

وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّكُمْ أَهْلُ بَيْتٍ قَدْ أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بِنُصْرَةِ آلِ مُحَمَّدٍ، وَقَدْ رَكِبَ مِنْهُمْ مَا قَدْ عَلِمْتَ وَحُرِمُوا وَمُنِعُوا حَقَّهُمْ، وَصَارُوا إِلَى مَا رَأَيْتَ وَقَدْ كَتَبَ إِلَيْكَ الْمَهْدِيُّ كِتَابًا وَهَؤُلَاءِ الشُّهُودُ عَلَيْهِ، فَقَالَ يَزِيدُ بْنُ أَنَسٍ الْأَسَدِيُّ، وَأَحْمَرُ بْنُ شُمَيْطٍ الْبَجَلِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ كَامِلٍ الشَّاكِرِيُّ، وَأَبُو عَمْرَةَ كَيْسَانُ مَوْلَى بَجِيلَةَ: نَشْهَدُ أَنَّ هَذَا كِتَابَهُ قَدْ شَهِدْنَاهُ حِينَ دَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَقَبَضَهُ إِبْرَاهِيمُ، وَقَرَأَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يُجِيبُ، وَقَدْ أَمَرَنَا بِطَاعَتِكَ وَمُؤَازَرَتِكَ، فَقُلْ مَا بَدَا لَكَ، وَادْعُ إِلَى مَا شِئْتَ، ثُمَّ كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَرْكَبُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، فَزَرَعَ ذَلِكَ فِي صُدُورِ النَّاسِ، وَوَرَدَ الْخَبَرُ عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَتَنَكَّرَ لِمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَجَعَلَ أَمْرُ الْمُخْتَارِ يَغْلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيَكْثُرُ تَبَعُهُ، وَجَعَلَ يَتَتَبَّعُ قَتَلَةَ الْحُسَيْنِ وَمَنْ أَعَانَ عَلَيْهِ فَيَقْتُلُهُمْ، ثُمَّ بَعَثَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْأَشْتَرِ فِي عِشْرِينَ أَلْفًا إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَقَتَلَهُ، وَبَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْمُخْتَارِ، فَعَمَدَ إِلَيْهِ الْمُخْتَارُ فَجَعَلَهُ فِي جُونَةٍ، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَسَائِرِ بَنِي هَاشِمٍ، فَلَمَّا رَأَى عَلِيُّ بْنُ حُسَيْنٍ رَأْسَ عُبَيْدِ اللَّهِ تَرَحَّمَ عَلَى الْحُسَيْنِ، وَقَالَ: أُتِيَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ بِرَأْسِ الْحُسَيْنِ وَهُوَ يَتَغَدَّى، وَأُتِينَا بِرَأْسِ عُبَيْدِ اللهِ وَنَحْنُ نَتَغَدَّى، وَلَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ بِخُطْبَةٍ فِي الثَّنَاءِ عَلَى الْمُخْتَارِ وَالدُّعَاءِ لَهُ وَجَمِيلِ الْقَوْلِ فِيهِ، وَكَانَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ يَكْرَهُ أَمْرَ الْمُخْتَارِ وَمَا يَبْلُغُهُ عَنْهُ، وَلَا يُحِبُّ كَثِيرًا مِمَّا يَأْتِي بِهِ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: أَصَابَ بِثَأْرِنَا، وَأَدْرَكَ وَغْمَنَا، وَآثَرَنَا، وَوَصَلَنَا، فَكَانَ يُظْهِرُ الْجَمِيلَ فِيهِ لِلْعَامَّةِ، فَلَمَّا اتَّسَقَ الْأَمْرُ لِلْمُخْتَارِ كَتَبَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَهْدِيِّ: مِنَ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدِ الطَّالِبِ بِثَارِ آلِ مُحَمَّدٍ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتعالى لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْ قَوْمٍ حَتَّى يُعَذِّرَ إِلَيْهِمْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ الْفَسَقَةَ وَأَشْيَاعَ الْفَسَقَةِ، وَقَدْ بَقِيَتْ بَقَايَا أَرْجُو أَنْ يُلْحِقَ اللَّهُ آخِرَهُمْ بِأَوَّلِهِمْ.

حَدَّثَنِي أَبُو الْعُرْيَانِ الْمُجَاشِعِيُّ قَالَ: بَعَثَنَا الْمُخْتَارُ فِي أَلْفَيْ فَارِسٍ إِلَى مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ. قَالَ: فَكُنَّا عِنْدَهُ. قَالَ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَذْكُرُ الْمُخْتَارَ، فَيَقُولُ: أَدْرَكَ ثَأْرَنَا، وَقَضَى دُيُونَنَا، وَأَنْفَقَ عَلَيْنَا. قَالَ: وَكَانَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ لَا يَقُولُ فِيهِ خَيْرًا وَلَا شَرًّا. قَالَ فَبَلَغَ مُحَمَّدًا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ عِنْدَهُمْ شَيْئًا. أَيْ مِنَ الْعِلْمِ. قَالَ: فَقَامَ فِينَا، فَقَالَ: إِنَّا وَاللهُ، مَا وَرِثْنَا مِنْ رَسُولِ

اللَّهَ إِلَّا مَا بَيْنَ هَذَيْنِ اللَّوْحَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ، حِلًّا وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ فِي ذُؤَابَةِ سَيْفِي. قَالَ: فَسَأَلْتُ: وَمَا كَانَ فِي الصَّحِيفَةِ؟ قَالَ: مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا».

** عقيدة الشيعة في محمد ابن الحنفية

استأثرت قضية الإمامة الكبرى، أو الخلافة، بقدر عظيم من الاهتمام والعناية على مدار التاريخ الإسلامي الطويل. وبينما اعتبر أهل السنة والجماعة أن موضوع الإمامة من الفروع، فإن الشيعة اعتقدوا أنه من أصول الدين وثوابته، ولذلك كان لمنصب الإمام عندهم مكانة كبرى لا تضاهيها مكانة أو منزلة.

ومن بين كل الشخصيات التي آمنت بعض فرق الشيعة بإمامتها، يحتل محمد بن علي بن أبي طالب، والمعروف بابن الحنفية، منزلة شبه متفردة في العقل الجمعي عند الشيعة.

ورغم عدم خروجه في واقعة الطف مع أخيه الإمام الحسين، إلا أن اسمه ارتبط بتأسيس حركة "الكيسانية"، قبل أن يستقر الموقف الشيعي الإمامي على إمامة ابن أخيه الإمام السجاد.

فهناك معتقدات خاصة في الكيسانية بمحمد ابن الحنفية، والكيسانية هي إحدى فرق الشيعة سميت بذلك نسبة إلى كيسان قيل كان مولى لعلي بن أبي طالب وقيل تتلمذ على يد ابن الحنفية ونشأت هذه الفرقة بعد موت علي وانضم إليهم المختار الثقفي وسموا بالمختارية وهي فرق كثيرة.

وتعتقد الكيسانية إِمَامَة محمد ابن الحنفية:

منهم من زعم أَنه كَانَ إِمَامًا بعد أبيه على بن أبي طالب –رضى الله عَنهُ– وَاسْتدل على ذلك بأن عليا دفع إِلَيْهِ الرَّايَة يَوْم الجمل.

ومنهم من قال إن الامامة بعد على كَانَت لابنه الحسن ثم للحسين بعد الحسن ثمَّ صَارَت إلى مُحَمَّد ابن الحَنَفِيَّة بعد أخيه الْحُسَيْنِ بِوَصِيَّة أخيه الْحُسَيْن إليه حين هرب من المدينة الى مَكَّة حين طُولِبَ بالبيعة ليزيد بن مُعَاوِيَة.

ثم افترق الذين قَالُوا بإمامة محمد ابن الحَنَفِيَّة:

فزعم قوم مِنْهُم يُقال لهم «الكربية» أصحاب أبي كرب الضرير أن محمد ابن الحنفية حي لم يمت وأنه في جبل رضوى وَعِنده عين من الماء وعين من العسل يَأْخُذ مِنْهُمَا رزقه وَعَن يَمِينه أسد وَعَن يساره نمر يحفظانه من أعدائه الى وقت خروجه وَهُوَ المهدي المنتظر.

وهذا المعتقد عند الكيسانية أن المهدي هو محمد بن الحنفية، وأما المهدي عند الاثني عشرية محمد بن الحسن العسكري، وعند بقية طوائفهم أئمة مهديون ينتظرون خروجهم بغتة يملأون الأرض عدلاً بزعمهم.

وَزَعَمُوا أَنَّ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ صَبَرَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يَكُونَ مُغَيَّبًا عَنِ الْخَلْقِ أَنَّ للَّهَ فِيهِ تَدْبِيرًا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ.

– وذهب الْبَاقُونَ من الكيسانية إلى الإقرار بِمَوْتَ مُحَمَّد ابن الْحَنَفِيَّةِ وَكَانَ كثير الشاعر على مَذْهَب الكيسانية الذين ادعوا حياة مُحَمَّد ابن الحنفية ولم يصدقُوا بِمَوْتِهِ.

وَلَذَا قَالَ فِي قصيدة لَهُ:

أَلا إِن الْأَئِمَّة من قريش ** ولاة الحق أَرْبَعَة سواء

علي والثلاثة من بنيه ** هم الاسباط ليس بهم خَفَاء

فسبط سبط إيمان وبر ** وسبط غيبته كربلاء

وسبط لا يَذُوق الموت حَتَّى ** يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا ** برضوى عنده عسل وَمَاء

والكيسانية اختلفوا في حبس محمد بن الحنفية بجبل رضوى:

فمنهم من قَالَ كَانَ ذَلِكَ عُقُوبَة لَهُ على خُرُوجه بعد قتل الحسين بن عَلي إِلَى يزيد بن مُعَاوِيَة وطلب الأمان مِنْهُ وقبوله العطاء من قبله وعلى أنه خرج من مكة في أيام ابن الزبير

وقصد عبد الملك بن مروان ثمَّ انْصَرِف من الطَّرِيق وعدل إِلَى الطَّائِفِ وَكَانَ بها عبد الله بن عباس فتوفي عبد الله بن عَبَّاس وَصَلَّى عَلَيْهِ بِهَا محمد بن الحنَفِيَّة ودفنه هُنَاكَ ثمَّ قصد اليمن فلما بلغ شعب رضوى توفي هُنَاكَ ودفن وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بانتظاره يُنكرُونَ مَوته ويزعمون أنه غيب عن النَّاسِ إِلَى أَن يُؤذن لَهُ فِي الْخُرُوج.

قال عبد القاهر: أجبناه عن أبياته هذه [أي كثير الشاعر] بقولنا:

ولاة الحق أَرْبَعَة وَلَكِن ** لثاني اثنين قد سبق العلاء

وفاروق الورى أضحى إماما ** وذو النورين بعد له الولاء

علي بعدهم أضحى إماما ** بترتيبي لهم نزل القضاء

ومبغض من ذكرناه لعين ** وفي نار الجحيم له الجزاء

وأهل الرفض قوم كالنصارى ** حيار بي ما لحيرتهم دواء

– وَقَالَ قوم من الكيسانية لَا نَدْرِي سَبَب حبسه هُنَاكَ وَاللَّهُ فِي حَبسه سر لَا يُعلمهُ إِلَّا هُوَ هَذَا تَفْصِيل قول الكيسانية من الروافض.

** وتمتلئ كتب الإمامية الاثني عشرية بروايات متناقضة ومتعارضة، تكشف – عند إخضاعها للنقد العلمي – عن اضطرابٍ عميق في أصل عقيدة الإمامة، ولا سيما دعوى النص الإلهي المتسلسل على الأئمة الاثني عشر بأسمائهم. ومن أبرز هذه الروايات ما نُسب إلى محمد بن علي المعروف بابن الحنفية، من منازعته لعلي بن الحسين زين العابدين في الإمامة والوصاية بعد مقتل الحسين رضي الله عنهما.

وتكتسب هذه الروايات أهميتها من كونها صادرة من المصادر المعتمدة عند الشيعة أنفسهم، لا من كتب المخالفين، مما يجعلها حُجّةً عليهم، لا لهم. فهي لا تُظهر فقط وقوع النزاع على الإمامة داخل البيت العلوي، بل تكشف كذلك غياب أي احتجاج بالنص النبوي المزعوم على الأئمة الاثني عشر، وهو ما يُعدّ نقضًا جذريًا لأصلٍ من أصول المذهب الإمامي.

ونسلّط الضوء على هذه الروايات، ونحلل مضامينها، ونبيّن كيف تهدم من داخلها دعوى العصمة، والنص، واللطف، واستمرارية الحجة، ونكشف ما فيها من خرافة واضطراب، مثل محاكمة الحجر الأسود، ونطق الجماد، وترك الأرض – بزعمهم – بلا إمام ناطق بالحلال والحرام لسنوات.

تقول الرواية:

إنه لما قتل الحسين بن علي أرسل محمد بن الحنفية إلى علي بن الحسين فخلا به، وقال له: قد قتل أبوك ولم يوص، وأنا عمك وصنو أبيك، وولادتي من علي في سني وقدمتي، وأنا أحق بها منك في حداثتك، لا تنازعني في الوصية والإمامة ولا تجانبني، فقال له علي بن الحسين: يا عم، اتق الله ولا تدّع ما ليس لك بحق، إني أعظك أن تكون من الجاهلين، إن أبي –يا عم– قد أوصى إليَّ في ذلك قبل أن يتوجه إلى العراق، وعهد إليَّ في ذلك قبل أن يستشهد بساعة، وهذا سلاح رسول الله عندي، فلا تتعرض لهذا فإني أخاف عليك نقص العمر وتشتت الحال، إن الله تبارك وتعالى لما صنع الحسن مع معاوية ما صنع أبى أن يجعل الوصية والإمامة إلا في عقب الحسين، فإن رأيت أن تعلم ذلك فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتى نتحاكم إليه ونسأله عن ذلك، قال أبو جعفر: وكان الكلام بينهما بمكة، فانطلقا حتى أتيا الحجر، فقال علي بن الحسين لمحمد بن الحنفية: ائته يا عم وابتهل إلى الله تعالى أن ينطق لك الحجر، ثم سله عما ادعيت، فابتهل في الدعاء وسأل الله ثم دعا الحجر، فلم يجبه، فقال علي بن الحسين: أما إنك يا عم لو كنت وصياً وإماماً لأجابك، فقال له محمد: فادع أنت يا ابن أخي فاسأله، فدعا الله علي بن الحسين بما أراده، ثم قال: أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء والأوصياء وميثاق الناس أجمعين لما أخبرتنا مَن الإمام والوصي بعد الحسين؟ فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه، ثم أنطقه الله بلسان عربي مبين، فقال: اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين بن علي إلى علي بن الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله.

وفي رواية: عن أبي بجير –عالم الأهواز– وكان يقول بإمامة ابن الحنفية، قال: حججت فلقيت إمامي، وكنت يوماً عنده، فمرَّ به غلام شاب فسلم عليه، فقام فتلقاه وقبَّل ما بين عينيه وخاطبه بالسيادة، ومضى الغلام وعاد محمد إلى مكانه، فقلت له: عند الله أحتسب عنائي، فقال: وكيف ذاك؟ قلت: لأنا نعتقد أنك الإمام المفترض الطاعة تقوم تتلقى هذا الغلام وتقول له: يا سيدي؟ فقال: نعم، هو والله إمامي، فقلت: ومن هذا؟ قال: علي ابن أخي الحسين، اعلم أني نازعته الإمامة ونازعني، فقال لي: أترضى بالحجر الأسود حكماً بيني وبينك؟ فقلت: وكيف نحتكم إلى حجر جماد؟ فقال: إن إماماً لا يكلمه الجماد فليس بإمام، فاستحييت من ذلك، وقلت: بيني وبينك الحجر الأسود، فقصدنا الحجر... فذكر القصة. [البحار،42/ 77، 82، الخرائج والجرائح، 194، معجم الخوئي، 16/ 48 وقال، الرواية صحيحة السند، إثبات الهداة، 2/ 5 3/ 6، 11، 15، 21، 28، 32، الكافي، 1/ 348، البصائر، 502، غيبة الطوسي، 16، 119، الإمامة والتبصرة،194، إعلام الورى، 253]

وفي أخرى: عن أبي خالد الكابلي، قال: دعاني محمد بن الحنفية بعد قتل الحسين ورجوع علي بن الحسين إلى المدينة وكنا بمكة، فقال: صر إلى علي بن الحسين، وقل له: إني أكبر ولد أمير المؤمنين بعد أخويَّ الحسن والحسين، وأنا أحق بهذا الأمر منك، فينبغي أن تسلمه إلي، وإن شئت فاختر حكماً نتحاكم إليه، فصرت إليه وأديت رسالته، فقال: ارجع إليه، وقل له: يا عم، اتق الله ولا تدّع ما لم يجعله الله لك، فإن أبيت فبيني وبينك الحجر الأسود، فمن أجابه الحجر فهو الإمام... إلى آخر القصة. [الخرائج والجرائح، 194، البحار، 46/ 29]

هذا غير منازعته له في الصدقات، فعن سفيان بن عيينة، قال: قيل للزهري: من أزهد الناس؟ قال: علي بن الحسين حيث كان، وقد قيل له فيما بينه وبين محمد بن الحنفية من المنازعة في صدقات علي بن أبي طالب: لو ركبت إلى الوليد بن عبد الملك ركبة لكشف عنك من غرر شره وميله عليك بمحمد، فإن بينه وبينه خلة، قال: وكان هو بمكة والوليد

بها، فقال: ويحك! أفي حرم الله أسأل غير الله عز وجل؟ إني آنف أن أسأل الدنيا خالقها، فكيف أسألها مخلوقاً مثلي؟

وقال الزهري: لا جرم أن الله عز وجل ألقى هيبته في قلب الوليد حتى حكم له على محمد بن الحنفية. [علل الشرايع، 78، البحار، 42/ 75 46/ 63]

وفي رواية:

عن ابن غندر قال: جاء مال من خراسان إلى مكة، فقال محمد بن الحنفية: هذا المال لي وأنا أحق به، فقال علي بن الحسين: بيني وبينك الصخرة، فأتيا الصخرة، فكلمها ابن الحنفية فلم تنطق، فكلمها علي بن الحسين فنطقت، وقالت: المال مالك وأنت الوصي ابن الوصي، والإمام ابن الإمام، فبكى محمد، وقال: يا ابن أخي ظلمتك. [إثبات الهداة، 3/ 25]

فهذه بعض مواقف ابن الحنفية من زين العابدين رحمهما الله، ولكن قبل الشروع في التعليق على هذه الروايات، أود أن أذكر هنا نبذة وجيزة عن منزلة ابن الحنفية:

قال الصدوق:

كان محمد مورداً لعطف أمير المؤمنين –يعني: علياً رضي الله عنه– وشفقته، وقال: فوالله ما منعني أن أمضي على بصيرتي إلا مخافة أن يقتل هذان –وأومأ بيده إلى الحسن والحسين– فينقطع نسل رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وذريته من أمته، ومخافة أن يقتل هذا وهذا، وأومأ بيده إلى عبد الله بن جعفر، ومحمد بن الحنفية.

وقال ابن شهر آشوب:

وجعله أمير المؤمنين في حرب صفين مع محمد بن أبي بكر وهاشم المرقال على ميسرة العسكر، وجعل الحسن والحسين ومسلم بن عقيل وعبد الله بن جعفر على الميمنة.

وأعطاه أمير المؤمنين الراية يوم البصرة، وقال له: أنت ابني حقاً، وغيرها.

نرجع إلى روايتنا فنقول: لو لم يكن في كتابنا سوى هذه الرواية فهي حسبه، فقول ابن الحنفية: قد قتل أبوك ولم يوصِ، ورد زين العابدين: إن أبي يا عم أوصى إليَّ في ذلك، من

أعظم الدلالات على بطلان كل ما مرَّ بك من القول بالنص على الاثني عشر، ويكفيك عدم احتجاجه بذلك، وإلا كان حسبه القول: يا عم، إن الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قد نصَّ على الأئمة من بعده، وعينهم بأسمائهم، وأنه لولاهم لما خلق الله شيئاً وأنت منهم، ولا قبل أعمال العباد وأنت منهم إلا باعتقاد إمامتهم... وهكذا، إلى ذكر كل ما مرَّ بك في مقدمة هذا الباب، بدلاً من قوله: إن أبي –يا عم– أوصى إليَّ في ذلك قبل أن يتوجه إلى العراق، وعهد إليَّ في ذلك قبل أن يستشهد بساعة، وإن كنا لا نرى توجيهاً لعهد الحسين رضي الله عنه هذا لذات العلة.

ثم إن احتجاجه بعامل السن رغم كون زين العابدين قد جاوز العشرين سنة لا يخلو من علة، وهي أهمية هذا العامل في مثل هذه المسائل، وما دمنا قد تطرقنا إلى هذه المسألة فلا أرى بأساً من ذكر بعض الدلائل التي تشير إلى أهمية ذلك، فزين العابدين نفسه لم يرَ في سن ابنه الباقر ما يجعله أهلاً للمحرمية، وذلك عندما أمر يزيد بقتله كما يروي القوم، فقال زين العابدين: فإذا قتلتني فبنات رسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من يردهن إلى منازلهن وليس لهن محرم غيري؟ فقال: أنت تردهن إلى منازلهن.

وكان الباقر حينذاك لم يتجاوز الرابعة من العمر، ناهيك أن افتراض مقتله يقتضي أن يتولى أمر المؤمنين من لم يبلغ الخامسة من عمره، لذا يروي القوم أنه –أي: الباقر– تكلم بعد موت أبيه بسبع سنين.

أي: أن الأرض تركت من غير حجة يفزع الناس إليها في حلالهم وحرامهم كما تقتضيه مسألة اللطف عند القوم.

والغريب أن القوم يقولون: إن الشيعة لم تعرف الحلال أو الحرام حتى تكلم الباقر.

ومن موقف الشيعة الإمامية من ابن الحنفية رحمه الله أنه من الزناة!!

حيث رووا ان امرأه أتت أمير المؤمنين عليه السلام، فقالت يا أمير المؤمنين: إني زنيت فطهرني طهرك الله فإن عذاب الدنيا أيسر من عذاب الآخرة الذي لا ينقطع، فقال لها مما

أطهرك؟ فقالت: إني زنيت.. والقصة طويله، ذكر فيها: فصعد أمير المؤمنين عليه السلام المنبر فقال: يا قنبر ناد في الناس الصلاة جامعة، فنادى قنبر في الناس فاجتمعوا حتى غص المسجد بأهله وقام أمير المؤمنين صلوات الله عليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس إن إمامكم خارج بهذه المرأة إلى هذا الظهر ليقيم عليها الحد إن شاء الله فعزم عليكم أمير المؤمنين لما خرجتم وأنتم متنكرون ومعكم أحجاركم لا يتعرف أحد منكم إلى أحد حتى تنصرفوا إلى منازلكم إن شاء الله

قال: ثم نزل فلما أصبح الناس بكرة خرج بالمرأة وخرج الناس متنكرين متلثمين بعمايمهم وبأرديتهم والحجارة في أرديتهم وفي أكمامهم حتى انتهى بها والناس معه إلى الظهر بالكوفة فأمر أن يحفر لها حفيرة ثم دفنها فيها ثم ركب بغلته وأثبت رجليه في غرز الركاب ثم وضع إصبعيه السبابتين في اذنيه ثم نادى بأعلى صوته يا أيها الناس إن الله تبارك وتعالى عهد إلى نبيه صلى الله عليه وآله عهدا عهده محمد صلى الله عليه وآله إلي بأنه لا يقيم الحد من لله عليه حد فمن كان عليه حد مثل ما عليها فلا يقيم عليها الحد. قال: فانصرف الناس يومئذ كلهم ما خلا أمير المؤمنين عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام فأقام هؤلاء الثلاثة عليها الحد يومئذ وما معهم غيرهم قال: وانصرف فيمن انصرف يومئذ محمد بن أمير المؤمنين عليه السلام [الكافي، للكليني، 7 / 187 ، المحاسن، للبرقي، 2 / 310 ، من لا يحضره الفقيه، للصدوق، 4 / 33 ، تهذيب الأحكام، للطوسي، 10 / 11 ، بحار الأنوار، للمجلسي، 40 / 292 ، 42 / 98]

وكذبوا عليه رحمه الله أنه كان يلعن عثمان ويقول: كانت أبواب الضلالة مغلقة حتى فتحها عثمان [تقريب المعارف، لأبي الصلاح الحلبي، 295، بحار الأنوار ، للمجلسي، 31/ 308 ، لماذا لم يصل علي على الملوك الثلاث؟ ، لنجاح الطائي ، 99]

وذكر أبو الصلاح الحلبي (ت: 447 هـ): قالت عائشة وقد بشرها بعض عبيدها بقتل علي صلوات الله عليه – شعر: فإن يك نائيا فلقد نعاه ناع ليس في فيه التراب ثم قالت للعبد: من قتله؟ قال: عبد الرحمن بن ملجم، قالت: فأنت حر لوجه الله، وقد سميتك

عبد الرحمن. ثم تمثلت ببيت آخر: وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر ومجاهرة بعداوة أمير المؤمنين، والغبطة بقتله، وما جرى منها عند وفاة الحسن عليه السلام، وقد أوصى أن يجدد به عهد بالنبي ويدفن بالبقيع، فجاءت مسرعة على بغل يقدمها مروان بن الحكم قائلة: لا والله لا يدفن في بيتي إلا من أحب، خذوا ابنكم واذهبوا حيث شئتم، فلا سبيل لكم إلى دفنه، فقال لها ابن الحنفية – وفي رواية ابن عباس – مالك يا حميراء ألا تحملك الأرض عداوة لبني هاشم، يوما على جمل ويوما على بغل، أما والله لو كان ذلك سائغا لدفن وإن رغم أنفك، لكن الحسن صلوات الله عليه أعرف بحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منك ومن أبيك وصاحبه، أذهبتكم حرمته وضربتم عنده بالمعول. إلى غير ذلك مما يدل على عداوتها عليا وذريته، يعلم ذلك من حالها كل سامع للأخبار [تقريب المعارف، لأبي الصلاح الحلبي، 411، أنظر أيضاً، جواهر التاريخ، لعلي الكوراني العاملي، 1/ 471]

ويقول ياسر الحبيب: محمد بن الحنفية منحرف وسيء

** رواية أهل السنة عن ابن الحنفية رحمه الله.

من الشبهات التي تثار دائماً، أن كتب أهل السنة مليئة بالأحاديث التي يرويها الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم، بينما لا نجدها تحوي من الأحاديث التي يرويها آل علي رضي الله عنهم، فهل السبب هو عدم وجود طريق صحيح إليهم؟ أم ماذا؟

والردّ على هذه الشبهة يكون إن شاء الله تعالى بالتطبيق العملي من خلال سرد كتب التي حوت مرويات آل علي رضي الله عنهم في مصادر أهل السنة لدحض هذه الفرية:

صحيح البخاري، صحيح مسلم، المطالب العالية للحافظ ابن حجر العسقلاني، مستخرج أبي عوانة، صحيح ابن حبان، المستدرك على الصحيحين للحاكم، موطأ مالك، سنن الدارمي، سنن أبي داود، سنن الترمذي، السنن الصغرى، الآثار لأبي يوسف، السنن المأثورة للشافعي، مصنف عبد الرزاق الصنعاني، سنن سعيد بن منصور، مصنف ابن أبي شيبة،

الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم، السنن الكبرى للنسائي، المنتقى لابن الجارود، تهذيب الآثار للطبري، شرح معاني الآثار للطحاوي، مشكل الآثار للطحاوي، سنن الدارقطني، السنن الكبرى للبيهقي، معرفة السنن والآثار للبيهقي، السنن الصغير للبيهقي، مسند أحمد بن حنبل، مسند عبد الله بن المبارك، مسند الشافعي، مسند الطيالسي، مسند الحميدي، مسند ابن الجعد، مسند ابن أبي شيبة، مسند الحارث، البحر الزخار مسند البزار، مسند أبي يعلى الموصلي، الأوسط لابن المنذر، معجم ابن الأعرابي، المعجم الأوسط للطبراني، المعجم الصغير للطبراني، المعجم الكبير للطبراني، مسند الشاميين للطبراني، معجم ابن المقرئ، معجم الصحابة لابن قانع، مسند الشهاب القضاعي، التوحيد لابن خزيمة، شعب الإيمان للبيهقي، الشريعة للآجري، السنة لابن أبي عاصم، السنة لأبي بكر بن الخلال، السنة لعبد الله بن أحمد، شرح أصول الاعتقاد، الإبانة الكبرى لابن بطة، الرد على الجهمية للدارمي، البدع لابن وضاح، الفتن لنعيم بن حماد، العظمة لأبي الشيخ الأصبهاني، جامع البيان في تفسير القرآن للطبري، تفسير ابن أبي حاتم، المصاحف لابن أبي داود، الناسخ والمنسوخ للقاسم بن سلام، الناسخ والمنسوخ للنحاس، الدعاء لمحمد بن فضيل الضبي، الدعاء للطبراني ، الدعوات الكبير ، الخراج ليحيى بن آدم، فضائل الصلاة للفضل بن دكين،كتاب الطهور لأبي عبيد القاسم بن سلام الخزاعي، الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك لابن شاهين، فضائل رمضان لابن أبي الدنيا، فضل الصلاة على النبي لإسماعيل بن إسحاق، الديات لابن أبي عاصم، تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي، فضائل الرمي لإسحاق القراب، أخبار أصبهان لأبي نعيم الأصبهاني، أخبار مكة للفاكهي، تاريخ المدينة لابن شبة، الكنى والأسماء للدولابي ، حلية الأولياء، دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، الضعفاء الكبير للعقيلي، الطبقات الكبرى لابن سعد، التاريخ الكبير، مكارم الأخلاق للطبراني، الأدب المفرد للبخاري، الأدب لابن أبي شيبة، الآداب للبيهقي، الحلم لابن أبي الدنيا.. وغيرهم الكثير.

** وفاته رحمه الله

اختلف العلماء في تاريخ وفاته والمكان الذي دفن فيه:

قال ابن حبان: ومات برضوى سنة ثلاث وسبعين ودفن بالبقيع.

قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ الْمُلائِيُّ: مَاتَ ابْنُ الْحَنَفِيَّةِ سَنَةَ ثَمَانِينَ.

وَقَالَ الوَاقِدِيُّ: أَنْبَأَنَا زَيْدُ بنُ السَّائِبِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللهُ ابْنَ الحَنَفِيَّةِ: أَيْنَ دُفِنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: بِالبَقِيعِ، سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِيْنَ فِي الْمُحَرَّمِ، وَلَهُ خَمْسٌ وَسِتُّوْنَ سَنَةً، فَجَاءَ أَبَانُ بْنُ عُثْمَانَ وَالِي المَدِينَةِ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ أَخِي: مَا تَرَى؟

فَقَالَ أَبَانٌ: أَنْتُمْ أَوْلَى بِجَنَازَتِكُمْ.

فَقُلْنَا: تَقَدَّمْ، فَصَلَّ، فَتَقَدَّمَ.

وقال الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عُمَرَ بنِ عَلِيِّ بنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَقِيلٍ، سَمِعْتُ ابْنَ الحَنَفِيَّةِ سَنَةَ إِحْدَى وَثَمَانِيْنَ يَقُوْلُ: لِي خَمْسٌ وَسِتُّوْنَ سَنَةٌ، جَاوَزْتُ سِنَّ أَبِي، فَمَاتَ تِلْكَ السَّنَةَ.

والواقدي متروك فقوله غير معتبر. إلا أنه تابعه على ذلك: أَبُو عُبَيْدٍ، وَأَبُو حَفْصٍ الفَلاَسُ.

ذكره الذهبي في «السير» فقال: وَانْفَرَدَ الْمَدَائِنِيُّ، فَقَالَ: مَاتَ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِينَ.

وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ: تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِينَ. وَهَذَا غلط

وقال علي ابن المديني: تُوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ وَتِسْعِينَ، وَهَذَا أَفْحَشُ مِمَّا قَبْلِهِ.

والراجح والله أعلم ما قال الزركلي: وقيل: خرج إلى الطائف هاربا من ابن الزبير، فمات هناك.

فقد أخرج البخاري في التاريخ الكبير بسند لا بأس به قال: قالَ لَنَا مُوسى بن إسماعيل: عَنْ أَبِي عوانة عن أبي حمزة، قَالَ: قضينا نُسُكَنا حين قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيرِ، ثم رجعنا إلى المدينة مَعَ مُحمد، فمكث ثلاثة أيام، ثم توفي.

** من أهم المصادر

- تصحيح ما يتعلق بشخصية أبي القاسم محمد ابن الحنفية رحمه الله.. لمحمد بن رمزي بن عبد الرازق
- كتب الحديث والتاريخ والسير

بسم الله الرحمن الرحيم

سعيد بن المسيب

13-94هـ

سعيد بن المسيب هو من أبرز علماء التابعين رضوان الله عليهم، بل هو إمام التابعين، شيخ المفتين، فقيه الفقهاء، عالم أهل المدينة ورأس فقهائها السبعة، إمام مدرسة الحديث، المفتي المعلم، الخلوق المهاب، الواعظ الناصح، الزاهد الورع، العابد المتقي.

كان -رحمه الله- تقيًا ورعًا، يكثر من الذكر ويخشى الله، قال عنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: "أحد الأعلام، وسيد التابعين، ثقة حجة فقيه، رفيع الذكر، رأس في العلم والعمل"، فكان يقرأ القرآن الكريم حتى على راحلته، وكان يحب أن يسمع الشعر لكنه لا ينشده، مهيب يكره كثرة الضحك.

الميلاد والنشأة

** هو أبو محمد سعيد بن المسيِّب بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي القرشي المدني، أبوه وجده صحابيان أسلما يوم فتح مكة.

والمسيَّب: بفتح الياء المشددة وهو المشهور عند أهل العراق. وروي عنه أنه كان يقول: بكسر الياء، ويقول: "سيَّب الله من يسيب أبي". وأهل المدينة يكسرونها عملا بذاك.

أما الإمام النووي (676هـ) فقال: "يقال المسيَّب بفتح الياء وكسرها والفتح هو المشهور، وحكي عنه أنَّه كان يكرهه، ومذهب أهل المدينة الكسر.

وأصل كلمة المسيَّب: البعير يُدرك نتاج نتاجه، فيُسيَّب، أي يترك ولا يركب ولا يحمل عليه، والسائبة التي في القرآن: الناقة التي كانت تُسيَّب في الجاهلية لنذرٍ، ونحوه.

** وهو من سادات العرب، ومن أصل عريق، ومن قوم هم بنو مخزوم، يعرفون بالشدة والصلابة والسيادة في مكة.

ويظهر ذلك في طبع جده الذي استشهد يوم اليمامة سنة ١٢ هـ أثناء محاربة المرتدين من بني حنيفة بقيادة مسيلمة الكذاب، وبتحريض عدو الله الرجال بن عنفوة بن نهشل الحنفي، وكانت قيادة المسلمين لسيف الله خالد بن الوليد المخزومي.

ويعرف طبع جده من قصته مع النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فيما يرويه البخاري: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، فَحَدَّثَنِي: أَنَّ جَدَّهُ حَزْنًا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: (مَا اسْمُكَ). قَالَ: اسْمِي حَزْنٌ، قَالَ: (بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ). قَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي، قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: فَمَا زَالَتْ فِينَا الْحُزُونَةُ بَعْدُ.

** وعروبة سعيد الأصيلة اكسبته شهرة واحتراما وتقديرا في أوساط العرب، في وقت برزت فيه النزعة العربية التي قامت عليها الدولة الأموية في الشام.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما ماتت العبادلة: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، صار الفقه في جميع البلاد إلى الموالي: فقيه مكة: عطاء، وفقيه اليمن: طاووس، وفقيه اليمامة: يحيى بن أبي كثير، وفقيه البصرة: الحسن، وفقيه الكوفة: إبراهيم النخعي، وفقيه الشام: مكحول. وفقيه خراسان: عطاء الخراساني، إلا المدينة فإن الله عز وجل منّ عليها بقرشي فقيه غير مدافع: سعيد بن المسيب رضي الله عنه.

** ولد سعيد في المدينة المنورة بعد استخلاف عمر سنة ١٣ هـ بسنتين. وهذا هو أرجح الروايات بدليل قول محمد بن عمر: والذي رأيت عليه الناس في مولد سعيد بن

المسيب أنه ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر، وقال سعيد نفسه: ولدت لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، وكانت خلافته عشر سنين وأربعة أشهر.

** وقد ولد في المدينة، ورغم نسبه القرشيّ في أعرق بطونها –بني مخزوم– إلا إنه نشأ في المدينة، وترعرع وتعلَّم به، وظلَّ فيها طوال حياته لم يفارقها أبدًا إلا لحجٍّ أو عمرة أو جهاد

كانت مدينة رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مهبط الوحي، وموئل الهداية، ومركز إشعاع الصلاح والتقى، ومنار النور الإلهي ودار الهجرة، وتنزل التشريع، وتكون سنة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ثم صارت عاصمة الخلفاء الراشدين السياسية، ومقر الصحب البررة الكرام، فأصبحت مأوى الفقهاء ومجمع العلماء ومهد السنة، ودار الفقه، ومنبع الحديث.

ففي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ، كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا). (ليأرز) لينضم أهله ويجتمعون. (حجرها) مسكنها الذي تأمن فيه وتستقر.

وفي البخاري أيضا عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ}. رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ النَّاسُ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فَرِيقٌ يَقُولُ: اقْتُلْهُمْ، وَفَرِيقٌ يَقُولُ: لَا، فَنَزَلَتْ: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ}. وَقَالَ: (إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الْخَبَثَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ).

وهدد النبي من يريدها بسوء، فهي حرم آمن كمكة، فقال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ، حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا كُلُّهُ، لَا يُخْتَلَى خَلاهَا، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إِلا لِمَنْ أَشَارَ بِهَا، وَلا تُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ إِلا أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ، وَلا يُحْمَلُ فِيهَا السِّلاحُ لِقِتَالٍ) [أحمد، صحيح لغيره]

وقال عليه السلام: «(لَا يَكِيدُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَحَدٌ إِلَّا انْمَاعَ، كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ) [البخاري] (يكيد) يدبر لهم ما فيه ضرر بغير حق. (انماع) ذاب، أي أهلكه الله تعالى ولم يمهله.

فهنيئا لمن مات فيها وعاش فيها، قال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (من اسْتطَاعَ أن يَمُوتَ بالمدينةِ، فلْيمُتْ بها، فإنِّي أشْفعُ لمن يموتُ بِها) [الترمذي، صحيح]

**كان لهذه النشأة أثرها الكبير في تكوين شخصية ابن المسيب، قوة وعزة وصلابة في الحق، واستقامة في السلوك، وزهدا وورعا وتدينا حتى لقب براهب قريش، وسدادا في القول والعمل، وخصوبة في العلم والثقافة، وجرأة في الفتيا، بسبب مخالطته الصحابة وتلقيه عنهم الآثار والأحاديث النبوية، فكان خير خلف لخير سلف، وأصبح تاجا في رأس القرن الثاني الذي شهد له الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بالخيرية، ففي البخاري عن عِمْرَان بْنَ حُصَيْنٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما– قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ). قَالَ عِمْرَانُ: لَا أَدْرِي، أَذَكَرَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بَعْد قرنه قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً، قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ).

(قرني) أهل قرني وهم أصحابي، والقرن مائة سنة، أو أهل زمان واحد، سموا بذلك لاقترانهم في الوجود، وقيل غير ذلك. (يلونهم) يأتون بعدهم قريبين منهم. (يظهر فيهم السمن) المعنى: أنهم يحبون التوسع في المآكل والمشارب التي هي أسباب السمن، وقيل غير ذلك.

** تزوج سعيد بابنة الصحابي الجليل أبي هريرة –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، فكان صهره، زوجه أبو هريرة بابنته، وكان إذا رآه قال: أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. ولهذا أكثر عنه من الرواية.

ففي سنن ابن ماجة –بسند ضعيف– بسنده عن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ لَقِيَ أَبَا هُرَيْرَةَ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سُوقِ الْجَنَّةِ. قَالَ سَعِيدٌ: أَوَفِيهَا سُوقٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– +قال: "إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا دَخَلُوهَا، نَزَلُوا فِيهَا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، فَيَزُورُونَ اللَّهَ عز وجل، فَيُبْرِزُ لَهُمْ عَرْشَهُ، وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ أَدْنَاهُمْ– وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ– عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ وَالْكَافُورِ، مَا يُرَوْنَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ أَفْضَل مِنْهُمْ مَجْلِسًا.

لكن في صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا).

ويظهر أن له زوجة أخرى أنجب منها الأولاد، ولعله تزوجها قبل ابنة أبي هريرة، وهي أم حبيب بنت أبي كريم، بن عامر، بن عبد ذي الشرى، بن عتاب، بن أبي صعب، بن فهم ابن ثعلبة، بن سليم، بن غانم بن دوس.

** وابن المسيب كان أقرب إلى الفقر منه إلى الغني، بيد أنه كان جميل الوصف، حسن الهندام، بدوي الملبس، نظيف الجسد، ملتزما بالسنة النبوية في مظهره كله.

وكان طويل القامة، أبيض الرأس واللحية، لا يغير خلقته، ولا يخضب رأسه بالحناء، مع أنه لا بأس بالخضاب كله، ويصفر لحيته، ويصلي أحيانا في نعليه، ولا يحفي شاربه جدا، وإنما يأخذ منه أخذا حسنا، ولم يكن بين عينيه أثر السجود، بالرغم من كثرة عبادته وصلاته في جوف الليل، وكان أعور ويظهر أن فقد إحدى عينيه أكسبه حدة الذهن، وقوة الذاكرة،

وسرعة البديهة، إذ من المعروف أنه إذا فقدت إحدى الحواس ترتد قوة الحاسة إلى حواس أخرى.

وروي عن عاصم الأسدي قال: رأيت سعيد بن المسيب لا يدع ظفره يطول، ورأيت سعيداً يحفي شاربه شبيهاً بالحلق، ورأيته يصافح كل من لقيه، ورأيت سعيداً يكره كثرة الضحك، ورأيت سعيداً يتوضأ كلما بال، وإذا توضأ شبك بين أصابعه.

وكان يلبس مُلاء شرقية. قال عمران بن عبد الله: ما أحصي ما رأيت على سعيد بن المسيب من عدة قمص الهروي، وكان يلبس هذه البرود الغالية البيض، وكان يحتلط في العيدين: يوم الفطر والنحر. [أي أنه يلبس لباسا خاصا في الأعياد].

وقال اسماعيل بن عمران: كان سعيد بن المسيب يلبس الميلسانا إزراره ديباج.

وقال محمد بن هلال: لم أر سعيد ابن المسيب لبس ثوبا غير البياض. أي أنه كان يلبس لباس أهل السنة.

وقال خالد بن الياس: رأيت على سعيد بن المسيب قميصا إلى نصف ساقية وكميه، طالعة أطراف أصابعه، ورداء فوق القميصين: خمس أذرع وشبرا.

وكان يلبس السراويل، وله جميمة [تصغير جمة] ليست بالكثيرة قد فرقها.

وقال عاصم: رأيت سعيد بن المسيب يحتفي، يمشي بالنهار حافيا ورأيت عليه بتا. [الطيلسان]

ووصف لنا عبيد بن نسطاس عمامته فقال: رأيت سعيد بن المسيب يعتم بعمامة سوداء، ثم يرسلها خلفه، ورأيت عليه إزارا وطيلسانا وخفين. [والطيلسان ثوب يلبس على الكتف، يحيط بالبدن ينسج للبس. خال من التفصيل والخياطة]

وقال عثيم: رأيت سعيد بن المسيب يلبس في الفطر والأضحى عمامة سوداء، ويلبس عليها برنسا أحمر أرجوانا.

وكان لا يستحب أن يسمي ولده بأسماء الانبياء.

عن علي بن زيد قال: رآني سعيد بن المسيب وعلي جبة خز [ما نسج من صوف وخيط حرير] فقال: إنك لجيد الجبة، قلت: وما تغني عني وقد أفسدها علي سالم. فقال سعيد: أصلح قلبك والبس ما شئت.

عصره والحياة السياسية

** عصر سعيد هو عصر التابعين أي من نهاية عهد الخلفاء الراشدين وولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى أوائل القرن الثاني الهجري.. والتابعي: هو من لقي الصحابي وأخذ عنه.

وعصر التابعين متداخل في عصر الصحابة، فقد كان كبار التابعين، وعلى رأسهم سعيد بن المسيب –كما سنرى في فصل منزلته العلمية– يفتون بالأمصار مع وجود الصحابة فيها.

وقد أثنى الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]

ومعنى اتباعهم – كما قال ابن القيم– هو سلوك سبيل صحابة الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– والسير على منهاجهم في التزام القرآن والسنة النبوية، واتباع سيرة الصحب والخلفاء الراشدين المهديين بالذات، واقتفاء العلم الصحيح، والعمل بما يعلمه المؤمن الصادق، عملا بما أوصى به نبي الله إذ قال: (أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختِلافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّنَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فإنَّ كلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَة). [رواه أَبُو داود والترمذي، وَقالَ: حديث حسن صحيح].

** وقد استفاد سعيد فعلا من علم الصحابة، فوهبه الله علما واسعا وعملا جليلا، فعن إِبْرَاهِيم بْنُ الأَشْعَثِ خَادِمُ الْفُضَيْلِ، قَالَ: سَمِعْتُ الْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ، يَقُولُ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ اسْتَغْنَى عَمَّا لا يَعْلَمُ، وَمَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِمَا لا يَعْلَمُ».

** وهذا العصر هو المعروف عند مؤرخي التشريع الاسلامي بالدور الثالث الذي بدأ فيه الاضطراب العلمي، وتعذر الاجماع غالبا، وانحصرت الثقة العلمية بالفقهاء، وكانت أسباب هذا الاضطراب اجمالا هي ما يأتي:

1/ تفرق المسلمين سياسيا، وانقسامهم إلى طوائف ثلاث: خوارج، وشيعة، وجمهور معتدلين. فقد استبدت كل طائفة بآرائها وعززت موقفها، وجرحت موقف الآخرين، حتى وصل الحد إلى التكفير والبراءة. وكان لهذا التفرق أثره الكبير في الحركة العلمية والاستنباط الفقهي.

2/ تفرق علماء المسلمين في الامصار بعد أن كانوا محصورين في المدينة. ولكن ظل لمكة والمدينة بسبب حرمتهما الدينية مكانة علمية، ودور في تحقيق اللقاء والاتصال بين علماء الامصار.

انقسام العلماء من الجمهور المعتدلين إلى مدرستين: مدرسة المدينة أو أهل الحديث، ومدرسة الكوفة أو أهل الرأي. فغلبت على أصحاب المدرسة الأولى التزام النصوص، وغلب على أرباب المدرسة الثانية استنباط الاحكام الشرعية من طريق القياس أو الأخذ بالرأي الصحيح الموافق لروح التشريع الاسلامي. وكان ابن المسيب من المدرسة الأولى، لذلك قال الربيعة بن فروخ، لما سأله عن علة حكم في الديات: أعراقي انت؟

4/ شيوع رواية الحديث بعد أن كانوا يتحرجون منها، مخافة الكذب على رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. فكان الصحابة ومعهم كبار المفتين من التابعين كابن المسيب، وفقهاء المدينة السبعة، يفتون الناس بما حفظوه من الأحاديث النبوية، أو برأيهم فيما لا نص فيه.

5/ ظهور الوضاعين للحديث والكذب على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو ما كان يخافه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

6/ ظهور متعلمي الموالي الذين أفادهم الاسلام بمعارفه، وأعزهم بتسويتهم مع العرب، وتلقيهم العلم عن علماء المسلمين أثناء الفتح الإسلامي. والموالي: هم من دخل في الاسلام من غير العرب من أبناء فارس والروم ومصر، لأن من أسلم على يد رجل فهو مولاه. ومنهم أبناء الاسرى، الذين رباهم المسلمون، وعلموهم القرآن والسنة، فصاروا فقهاء البلاد، بالرغم من ظهور العصبية العربية الشديدة في عهد الأمويين.

وعصره في الجملة كان مشحونا بالفتن والثورات والاضطرابات الدموية من الناحية السياسية: فقد شهد وهو صغير يافع مقتل عمر، وتبعه وهو في مقتبل الشباب مقتل عثمان والفتنة الكبرى، وآل الأمر وهو في ريعان الشباب إلى مقتل علي وحروب الصحابة العنيفة مثل موقعة صفين بين جماعة علي وجماعة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أجمعين.

ثم شهد انفصال المدينة والبيعة لخليفتين: ابن الزبير في الحجاز ومصر، ويزيد في الشام، والحروب الرهيبة التي دارت بينهما وامتدت إلى المدينة، في موقعة الحرة المؤلمة الفظيعة سنة ٦٣ هـ.

وتمخضت الفتن والأحداث إلى ظهور الفرق من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة أثرت كلها تأثيرا بعيدا في توجيه السياسة الإسلامية. وكادت الأمة العربية تمزقها العصبية القبلية عند وفاة مروان بن الحكم. ولكن استطاع عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولة التغلب على ابن الزبير في مكة واسترجاع جميع البلاد تحت سلطته. إلا أنه في عهد الأمويين تأثرت النواحي الاخلاقية والدينية والعلمية تأثرا جزئيا لا يصل إلى درجة الهزة العنيفة التي اصابت الحياة السياسية.

فلم تعد هناك تلك الروح الإسلامية الصافية المثالية التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين، ولم يبق لمبدأ الشورى منزلته التي كانت في عهد السلف، فكان الأمويون ملوكا دنيويين، أكثر منهم خلفاء دينيين. وخف التمسك الدقيق أحيانا بالسنة، وظهرت الكراهية

الشديدة بين العلماء والحكام، فلم يبايعهم بعض الفقهاء كما تجلى من سعيد بن المسيب قائلا: "جزى الله معاوية، فهو أول من جعل هذا ملكا".

وعذب سعيد وسجن وضرب من قبل والي المدينة فاعتبر الفقهاء وعلى رأسهم ابن المسيب أنفسهم حماة الدين ليحققوا المثل الاعلى الذي ينشده الاسلام ويعم الحياة العامة كلها.

** ولكن مع كل هذا: ظلت في عصر بني أمية الذي عاش فيه سعيد أيضا نشوة الفتوحات الاسلامية عالية، كما كانت في عهد الراشدين إذ امتدت إلى الشرق والغرب من المحيط الأطلسي إلى تخوم الصين، وبقي الدين والايمان غضا في القلوب، والعقائد راسخة، ولأحكام الدين المكان الأول في نفوس المسلمين عامة، حكاما ومحكومين.

وانتعشت الحركة الفقهية بين العلماء في الامصار، وسخط الخلفاء على ما كان يتسرع به الولاة من ايذاء أحد من الفقهاء كما سنعلم بالنسبة لابن المسيب مثلا، ولم يقصر العرب عن غيرهم في ميدان الفقه ورواية الحديث خلافا لما زعم بعض الشعوبيين.

ولم يصح ما زعمه المستشرقون من وجود ظاهرة عدم الاهتمام بأحكام الدين، وعدم المعرفة بشئونه، لدى الحكام، والعلماء والتابعين والشعب.

ولم يبرز هذا الانفصال الموسع بين ما سموه (أهل الحديث وأهل الرأي) إذ لم يكن لهاتين النزعتين موطن، ولا اختص بهما اقليم، وهما موجودتان في الحجاز وفي العراق وفي جميع الاقطار. وكل من الفريقين يعمل بالرأي وبالحديث معا، كل في حدوده الشرعية المعروفة، فهذا ابن المسيب كان يبحث عن روح التشريع، ويتغلغل هو وغيره في استقصاء المعاني، وكان واسع الفتيا، حتى سموه «الجريء» بسبب خصوبة علمه وسعة نظره وقوة حفظه، وإيجابيته في الافتاء بالحوادث والقضايا الجديدة التي أملاها التطور الحادث، دون معارضة السنن أو طرحها حقيقة مما يجعله رأيا مذموما حينئذ.

** وبعد أن كانت المدينة في شباب ابن المسيب تصخب بالحياة الزاهرة في عهد الخلفاء الراشدين، اذ كانت عاصمة الدولة الاسلامية الفتية، صارت منكمشة على نفسها، بانتقال عاصمة الدولة والخلافة إلى الشام في عهد الأمويين بدءا من خلافة معاوية بن ابي سفيان. وبقيت لها في الواقع منزلتها العلمية والأدبية لما لها من حرمة في قلوب المسلمين. وقد اينعت النهضة العلمية التي ظهرت في المدينة وازدهرت في العصر العباسي.

ومن وقت تحول الخلافة إلى ملكية وراثية وانتقال عاصمتها من المدينة، بدأت نواة الانفصال أو التباعد بين السياسة والدين أو بين العلماء والحكام، ولولا أن أغلب الخلفاء كان يجمع بين العلم والفقه والتدين والسياسة، لا تسع الخرق والهوة، وتحقق عزل الدين عن الحياة، كما آل إليه الأمر في الوقت الحاضر وما سبقه من عصور الانحطاط والتخلف في البلاد الاسلامية.

** الفرق بين الخليفة والملك: عن سفيان بن ابي العرجا قال: قال عمر بن الخطاب: والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك؟ فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم. فقال قائل: يا أمير المؤمنين، إن بينهما فرقا، قال: ما هو؟ قال: الخليفة لا يأخذ إلا حقا، ولا يضعه إلا في حق، وأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس، فيأخذ من هذا ويعطي هذا، فسكت عمر.

وقال سلمان الفارسي: قال له عمر: أملك أنا أم خليفة؟ فقال له سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر، ثم وضعته في غير حق، فأنت ملك غير خليفة فاستعبر عمر.

** كان موقف ابن المسيب في أوقات الازمات والفتن إما إيجابيا، أو حياديا، وتظهر إيجابيته في معارضته البيعة لخليفتين: الوليد وسليمان، بعد عبد الملك بن مروان، أو امتناعه من البيعة كما حدث مع عبد الله بن الزبير، أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر كموقفه من معاوية والحجاج وغيرهما.

وأما حياديته فتتجلى في ملازمته المسجد واعتزاله الفتنة حيث لا ينفع التوسط والشفاعة والتفاهم كما حدث منه أثناء موقعة الحرة العظيمة، حتى قيل عنه: "انظروا إلى هذا الشيخ المجنون" وهناك حيادية قهرية بدت حينما جلده أمير المدينة ونهى الناس عن مجالسته.

** وفي الجملة كانت بيئة علمية برزت فيها عبقريات فئة، تعتمد أحاديث الرسول – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وآراء الصحابة، وخصوصا فتاوى عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عباس.

قال الإمام مالك: كان أعلم الناس عندنا بعد عمر زيد، وكان إمام الناس عندنا بعده ابن عمر، وكان سعيد بن المسيب جل ما يفتي به من فتاوى زيد، وكان يقول: هو أعلم من تقدمه بالقضاء، وأبصرهم بما يرد عليه، مما لم يسمع فيه بشيء.

** وكان المفتون في المدينة من التابعين: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. وهؤلاء هم المعروفون بالفقهاء السبعة.

وإنما قيل: «الفقهاء السبعة» لأنهم كانوا بالمدينة في عصر واحد، ومنهم انتشر العلم والفتيا. وقيل: لأن الفتيا بعد الصحابة صارت إليهم، وشهروا بها.

وقد اعتبر بعضهم الخليفة عبد الملك بن مروان من فقهاء المدينة قبل استخلافه، فقال أبو الزناد: فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب، وعبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير، وقبيصة ابن ذؤيب، وقال الاعمش: فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة وقبيصة، وعبد الملك.

** وكل العلماء متفقون على أن أفضل هؤلاء الفقهاء هو ابن المسيب.

قال جعفر بن ربيعة: قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أما أفقههم فقها وأعلمهم بقضايا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وقضايا أبي بكر وقضايا عمر وقضايا عثمان وأعلمهم بما مضى عليه الناس فسعيد بن المسيب.

وقال الزهري: كنت أطلب العلم من ثلاثة: سعيد بن المسيب وكان أفقه الناس، وعروة بن الزبير وكان بحرا لا تكدره الدلاء، وكنت لا تشاء أن تجد عند عبيد الله طريقة من علم لا تجدها عند غيره إلا وجدت.

وقال الخرجي عنه: رأس علماء التابعين وفردهم وفاضلهم وفقيههم.

ثم انتقلت الفتوى من هؤلاء إلى غيرهم مثل أبان بن عثمان وسالم، ونافع، وابي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعلي بن الحسين.

وجاء بعد هؤلاء: أبو بكر بن حزم، وعبد الله بن عمر ابن عثمان، وعبد الله والحسين ابنا محمد ابن الحنفية، وجعفر ابن محمد، وعبد الرحمن بن القاسم، ومحمد بن المنكدر، ومحمد ابن شهاب الزهري.

** لم يكن سعيد بن المسيب –سيد التابعين– إلا مثلا أعلى للقيم والفضائل والنشاط والطموح والرجولة، والتدين المتين، وكان ينظر إليه كأنه علم من أعلام من تقدمه من صحب نبي الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فهو نسيج وحده، وطراز رفيع، مثل أتباعه للرعيل الأول خير تمثيل.

لهذا قال ابن سعد في «الطبقات»: كان سعيد جامعا، ثقة، كثير الحديث، ثبتا، فقيها، مفتيا، مأمونا، ورعا، عاليا.

وقال في «وفيات الأعيان» و «مرآة الجنان»: كان سيد التابعين من الطراز الأول، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع.

** وحق له أن يكون من أعلام الدنيا ومن أبناء الإسلام النجباء فلقد كان سعيد بمثل هذه الجلالة المتسمة بالتواضع، البعيدة عن أي شائبة من شوائب الكبر والبطر، والاغترار بالنفس.

قال عبد الرحمن بن حرملة: "ما كان إنسان يجترئ على سعيد بن المسيب، يسأله عن شيء حتى يستأذنه، كما يستأذن الأمير".

وكان بادي الإيمان، متنورا بنور الله، متشبع القلب والجوارح –بسبب صلاحه وتقواه– بالبهاء والصفاء والنورانية الربانية، التي تتفتح أمامها الظلمات، وتستضيء بها الحوالك.

قال ابن حرملة: أدرك سعيد بن المسيب رجلا من قريش، ومعه مصباح في ليلة مطيرة، فسلم عليه، وقال: كيف أمسيت يا أبا محمد؟ قال: أحمد الله. فلما بلغ الرجل منزله دخل، وقال: نبعث معك بالمصباح، قال: لا حاجة لي بنورك، نور الله أحب إلي من نورك.

** كان سعيد جريئا في الفتوى، وفي نقد الحكام، وإنكار المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يبالي بسيطرة حاكم أو تعذيب أمير ظالم. وكل همه أن يرضى الله، ويغضب ويزأر في وجه الظلمة لله، ولا يقبل عطايا الحكام، ويرفض قبض نصيبه من بيت المال من الخراج، حتى لا تستكين نفسه، أو يبيع ضميره، أو يسكت عما يراه حقا، أو يتغاضى عما يراه منكرا.

وكان يقول: لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة، إلا بإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة.

وكان يعتزل في المسجد أثناء الفتن والأحداث، ويعتكف إلى العبادة ويضرع بالدعاء حتى يفرج الله تعالى الكرب، ويزيل الهم والغم.

قال ابن الجوزي: ما أعرف للعالم قط لذة ولا عزا، ولا شرفا ولا راحة، ولا سلامة أفضل من العزلة، فإنه ينال بها سلامة بدنه ودينه وجاهه عند الله عز وجل وعند الخلق، لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قول المخالط لهز. لهذا كان سعيد جليلا

مهيبا في أعين الخلفاء، ذا جلد وصبر كالجبال في نظر الأمراء، لا يبالي بحبس وضرب وتشهير.

** قال المطلب بن السائب: كنت جالسا مع سعيد بن المسيب بالسوق، فمر بريد لبني مروان، فقال له سعيد: من رسل بني مروان أنت؟ قال: نعم، قال: فكيف تركتهم؟ قال: بخير، قال: تركتهم يجيعون الناس، ويشبعون الكلاب، قال: فاشرأب الرسول، فقمت اليه، فلم أزل أرجيه، حتى انطلق. ثم قلت السعيد: يغفر الله لك، تشيط بدمك بالكلمة هكذا تلقيها، قال: اسكت يا أحيمق، فوالله لا يسلمني الله، ما أخذت بحقوقه.

** وعن نقده لمعاوية –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– ما روي عن ابن حرملة قال: ما سمعت سعيد بن المسيب سب أحدا من الأئمة قط، إلا أني سمعته يقول: قاتل الله فلانا، كان أول من غير قضاء رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وقد قال النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (الولد للفراش وللعاهر الحجر) وذلك أنه استلحق سنة ٤٤ هـ بنسبه زيادا، فصار يدعى «زياد بن أبي سفيان»، بعد أن كان يدعى (زياد بن أبيه). وهذا الاستلحاق غير صحيح في رأي سعيد بن المسيب، ورأي غيره من الصحابة والتابعين، إذ لا يثبت النسب بقول واحد –وهو الابن– على أبيه، ما لم يصدقه أبوه في ذلك، وكان أبو سفيان حينذاك ميتا إذ مات سنة ٣٣ هـ في خلافة عثمان.

ودافع ابن العربي عن معاوية في هذا الاستلحاق، إذ أن أبا سفيان اعترف لعلي بن أبي طالب بأبوته لزياد، فكان استلحاق زياد لأشياء صحيحة، وعمل مستقيم، وقد قال الامام مالك: إن الأخ إذا استلحق أخا يقول: هو ابن أبي، ولم يكن له منازع، بل كان وحده: يرث، ولا يثبت النسب.

وقال الشافعي – في أحد القولين – يثبت النسب ويأخذ المال.

هذا اذا كان المقر به غير معروف النسب.

والحارث بن كلدة مالك الجارية سمية التي ولد منها زياد – لم يدع زيادا ولا كان إليه منسوبا، وإنما كان ابن أمته ولد على فراشه – أي في داره – فكل من ادعاه فهو له، إلا أن يعارضه من هو أولى به منه، فلم يكن على معاوية في ذلك مغمز، بل فعل فيه الحق على مذهب مالك. ثم إن هذه المسألة موضع خلاف بين العلماء، وحكم القاضي في مسائل الخلاف بأحد القولين يمضيها ويرفع الخلاف فيها.

** قال علي بن زيد بن جدعان: قيل لسعيد بن المسيب: ما شأن الحجاج لا يبعث إليك، ولا يهيجك، ولا يؤذيك، قال: ما أدري، غير أنه صلى ذات يوم مع أبيه صلاة، فجعل لا يتم ركوعها ولا سجودها، فأخذت كفا من حصباء، فحصبته بها. قال الحجاج: فمازلت بعد ذلك أحسن الصلاة.

** ولم يكن سعيد راضيا على حكم بني مروان في الشام، ولا على خلافة عبد الله بن الزبير في الحجاز، لتخلي بني أمية عن مبدأ الشورى في الإسلام وإصراره البيعة على سيرة أبي بكر وعمر، ولعدم استكمال البيعة من أولي الحل والعقد والمسلمين لابن الزبير، فضرب وعذب وسجن من أمراء المدينة، لنصرة من ولوهم عليها. ويتبين ذلك مما يأتي:

ولما استوثق الأمر لابن الزبير سنة 64هـ أرسل جابرًا بن الأسود بن عوف الزهري واليًا من طرفه على المدينة، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير، فقال سعيد بن المسيب: لا حتى يجتمع الناس –يقصد في جميع الأمصار– فضربه ستين سوطًا، فبلغ ذلك ابن الزبير، فكتب إلى جابر يلومه ويقول: مالنا ولسعيد، دعه.

وأنكر منكرا على جابر هذا: فعن عبد الواحد بن أبي عون قال: كان جابر بن الأسود، وهو عامل ابن الزبير على المدينة، قد تزوج الخامسة قبل أن تنقضي عدة الرابعة، فلما ضرب سعيد بن المسيب، صاح به سعيد، والسياط تأخذه: والله ما رَبَعَت [توقف وانتظر] على كتاب الله، يقول الله: {فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع}

وإنك تزوجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة. وما هي إلا ليال، فاصنع ما بدا لك، فسوف يأتيك ما تكره. فما مكث إلا يسيرا حتى قتل ابن الزبير.

وأعلن سعيد صراحة عدم محبته لكل من بني أمية وابن الزبير: عن الحكم بن اسحاق قال: كنت جالسا إلى سعيد بن المسيب فقال المولى له: اتق الله، لا تكذب علي كما كذب مولى ابن عباس (عكرمة) على ابن عباس. فقلت لمولاه: ذاك أني لا أدري ابن الزبير أحب إلى أبي محمد، أو أهل الشام؟! قام: فسمعها سعيد، فقال: يا عراقي، أيهما أحب اليك؟ قلت: ابن الزبير أحب إلي من أهل الشام. قال: أفلا أضبث [ضبث بالشيء قبض عليه بكفه] بك الآن، فأقول: هذا زبيري؟ فقلت: سألتني، فأخبرتك، فأخبرني أيهما أحب اليك؟ قال: كلا، لا أحب.

** لم تشهد المدينة بعد فتنة عثمان أشد ولا أرهب من يوم موقعة الحرة المؤلمة الفظيعة سنة ٦٣ هـ، التي حدثت على باب طيبة، عندما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية عن الخلافة بسبب إسرافه في المعاصي، فأرسل إليهم جيشا كثيفا وأمر جنوده بقتالهم ثم المسير إلى مكة لقتال ابن الزبير، فحدثت هذه الموقعة بين جنود يزيد وأهل المدينة. ذكرها الحسن مرة، فقال: والله ما كاد ينجو منهم أحد، قتل فيها خلق من الصحابة رضي الله عنهم ومن غيرهم، ونهبت المدينة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وترى سعيد بن المسيب في هذه الموقعة والفتن المظلمة يلجأ إلى صلاة الجماعة تاركا الفتنة، ويختار جوار بيت الله تعالى، إذ لا فائدة من الخوض في فتنة لارجاء للاصلاح فيها، ولا سبيل للدفاع عن دين الله، ونصرة مدينة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وحماية أصحابه.

عن عبد الحميد بن سليمان [قال الذهبي: عبد الحميد ليس بثقة] عن أبي حازم قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: لقد رأيتني ليالي الحرة، وما في المسجد أحد من خلق الله غيري، وإن أهل الشام ليدخلون زمراً زمراً يقولون: انظروا إلى هذا الشيخ المجنون، وما يأتي

وقت صلاة إلا سمعت أذاناً في القبر، ثم تقدمت فأقمت فصليت، وما في المسجد أحد غيري.

وعن طلحة بن محمد بن سعيد عن أبيه قال: كان سعيد بن المسيب أيام الحرة في المسجد، لم يبايع ولم يبرح إلا ليلا إلى الليل. قال: فكنت إذا حانت الصلاة أسمع أذانا يخرج من القبر، حتى أمن الناس، وما رأيت خيراً من الجماعة.

وكانت أول محنة مع الظالمين سنة 63هـ عندما وقعت فاجعة الحرة بأهل المدينة، وانتهك جيش يزيد بن معاوية بقيادة مسلم بن عقبة المري حرمة المدينة، وأخذ الطاغية مسلم بن عقبة المري في استعراض الناس على السيف، فقتل منهم المئات، وأحضر الإمام سعيد بن المسيب بين يديه، فقال له: بايع، فقال سعيد: أبايع على سيرة أبي بكر وعمر، فغضب الطاغية من ذلك، لأن الطغاة على مر العصور تؤرقهم وتقض مضاجعهم سيرة العمرين، وأخبار العدل والإحسان في عهدهما، فغضب الطاغية، وأمر بضرب عنقه، فقام أحد أعيان المدينة وشهد أن الإمام سعيد مجنون لا يقبل منه، فأعرض عنه الطاغية وتركه.

قال مصعب بن عبد الله، حدثني مصعب بن عثمان: أن الذي شهد لسعيد بن المسيب حين أراد مسلم بن عقبة قتله: عمرو بن عثمان، ومروان بن الحكم، شهدا أنه مجنون، فخلي سبيله.

أي ثبات بعد هذا؟ ثبات حين خوف الناس، وثقة بالله وبسلامة خطة السير حين الهلع، وحرص على الجماعة حين الفزع.

** تكرر احتكاك سعيد بن المسيب مع الخليفة عبد الملك ابن مروان، فقد طلب منه ابنته لابنه الوليد، فرفض تزويجه بها، وزوجها لطالب علم فقير هو كثير بن أبي وداعة.

ورفض سعيد مجالسة عبد الملك لانحرافه عن سنة رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قائلا لرسوله: لست من حُدَّاثه.

عن ميمون بن مهران، قال: إن عبد الملك بن مروان قدم المدينة، فاستيقظ من قائلته، فقال لحاجبه: انظر، هل ترى في المسجد أحدا من حُداثي، فلم ير فيه إلا سعيد بن المسيب، فأشار إليه بأصبعه، فلم يتحرك سعيد، ثم أتاه الحاجب، فقال: ألم تر أني أشير اليك، قال: وما حاجتك؟ فقال: استيقظ أمير المؤمنين، فقال: انظر، هل ترى في المسجد أحدا من حداثي، فقال سعيد: لست من حداثه.

فخرج الحاجب، فقال: ما وجدت في المسجد إلا شيخاً أشرت إليه، فلم يقم، قلت له: إن أمير المؤمنين استيقظ، وقال لي: انظر هل ترى أحدا من حداثي، قال: إني لست من حداث أمير المؤمنين. قال عبد الملك بن مروان: ذلك سعيد بن المسيب، دعه.

** وتمتد حبائل الترغيب والترهيب التي يملكها السلطان ليروض كبار النفوس، ويشتري الضمائر، وذوي القدرات العالية، والأخلاق الرصينة، ويبادر الخليفة عبد الملك بن مروان إلى هذه الوسائل الرخيصة مع فقيه الفقهاء سعيد بن المسيب، فتراه أشد الناس ترفعاً عن الرغبة في شيء، وأمنعهم عن الرهبة من شيء، وأصلبهم في الوقوف على حدود الله، حتى يقلع الحكام عن سياستهم، ويلتزموا بأحكام الاسلام الرشيدة

عن عمران بن عبد الله الخزاعي قال: حج عبد الملك بن مروان، فلما قدم المدينة، فوقف على باب المسجد أرسل إلى سعيد بن المسيب رجلا يدعوه ولا يحركه. قال: فأتاه الرسول، وقال: أمير المؤمنين واقف بالباب يريد أن يكلمك. فقال: ما لأمير المؤمنين إلي حاجة، ومالي إليه حاجة، وإن حاجته إلي لغير مقضية، قال: فرجع الرسول إليه، فأخبره، فقال: ارجع إليه فقل: إنما أريد أن أكلمك، ولا تحركه. قال: فرجع إليه، فقال له: أجب أمير المؤمنين، فقال له سعيد ما قال له أولا. قال: فقال له الرسول: لولا أنه تقدم الي فيك ما ذهبت إليه إلا برأسك، يرسل إليك أمير المؤمنين يكلمك، تقول مثل هذه المقالة؟ فقال: إن كان يريد أن يصنع بي خيرا فهو لك، وإن كان يريد غير ذلك فلا أحل جبوتي [ما

يشتمل به من ثوب ونحوه] حتى يقضي ما هو قاض. فأتاه فأخبره، فقال: رحم الله أبا محمد، أبي إلا صلابة.

** وفي سنة 84هـ توفي عبد العزيز بن مروان بمصر، وكان ولي عهد الخليفة، ولما طلب من سعيد المبايعة رفض بشدة لعدم صلاحية الوليد للولاية – بحسب رأي الإمام سعيد – فقام والي المدينة هشام بن المغيرة بجلد الإمام سعيد في محضر عام من الناس، وقام بتشهيره على حمار، وقد ألبسوه ثوبًا من شعر، وطافوا به في المدينة، ثم ردوه إلى السجن، وكان الإمام وقتها قد جاوز الستين سنة، ومع ذلك لم يعط بيعته، وصمم على رأيه، ولو هددوه بالقتل ما تغير موقفه أبدًا.

وبعد أن ضربوه وشهروه وحبسوه، منعوه من إلقاء الدروس بالمسجد النبوي، ومنعوا أحدًا من الجلوس إليه، فكان الإمام العَلَم الذي يفتقر الناس إلى علمه، أفقه فقهاء المدينة، والمعول عليه عند نوازل الأمور يجلس وحيدًا في المسجد، لا يجرؤ أحد على مجالسته، وكان هو يشفق على الغرباء أن ينالهم أذى إذا طلبوا الحديث معه، فيقول لمن جاءه: إنهم قد جلدوني، ومنعوا الناس أن يجالسوني.

ويلتزم سعيد سنة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فيمتنع عن مخالفة أي حكم منها، وإذا كان النبي قد نهى عن البيعة لاثنين، فلا بد من تنفيذ ذلك، مهما كلفه الامتناع من ثمن باهظ.

قال عمران بن عبد الله: دعي سعيد للبيعة للوليد وسليمان بعد عبد الملك بن مروان. قال: فقال: لا أبايع لاثنين ما اختلف الليل والنهار. قال: فقيل: ادخل من الباب واخرج من الباب الآخر، قال: والله لا يقتدي بي أحد من الناس. قال: فجلده مائة، وألبسه المسوح. [ما يلبس من نسيج الشعر تقشفا أو قهرا للجسد]

وقال عبد الرحمن بن عبد القارىء لسعيد بن المسيب، حين قدمت البيعة للوليد وسليمان بالمدينة من بعد أبيهما: إني مشير عليك بخصال ثلاث، قال: وما هي؟ قال: تعتزل

مقامك، فإنك هو وحيث يراك هشام بن إسماعيل –والي المدينة– قال: ما كنت لأغير مقاما قمته منذ أربعين سنة. قال: تخرج معتمرا؟ قال: ما كنت لأنفق مالي، وأجهد بدني في شيء ليس لي فيه نية. قال: فما الثالثة؟ قال: تبايع. قال: أرأيت إن كان الله أعمى قلبك، كما أعمى بصرك. قال: فما علي!! –وكان أعمى–

قال رجاء بن جميل الأيلي: فدعاه هشام إلى البيعة، فأبى، فكتب فيه إلى عبد الملك، فكتب إليه عبد الملك: مالك ولسعيد، ما كان علينا منه شيء نكرهه، فأما إذا فعلت، فاضربه ثلاثين سوطا، وألبسه تُبَّان شعر [سروال قصير بطول شبر يستر العورة المغلظة فقط]، وأوقفه للناس لئلا يقتدي به الناس.

فدعاه هشام، فأبى، وقال: لا أبايع لاثنين، قال: فضربه ثلاثين سوطا، وألبسه تبان شعر، وأوقفه للناس.

قال رجاء بن جميل الأيلي: حدثني الأيليون الذين كانوا في الشُرَط [رجال الأمن] بالمدينة قالوا: علمنا أنه لا يلبس التبان طائعا، قلنا له: يا أبا محمد، إنه القتل، فاستر عورتك، قال: فلبسه، فلما ضرب قلنا له: إنا خدعناك. قال: يا معجلة أهل أيلة لولا أني ظننت القتل ما لبسته.

وتتكرر الوساطة من فقهاء المدينة مع سعيد لمحاولة اقناعه بالبيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، خشية عليه، وصونا له من التعذيب والإهانة والتشهير، فتبوء كل المحاولات بالفشل، ولم تفلح كل الحيل والمساومات عن التنازل عن موقفه.

فلقد حاول هشام بن إسماعيل أمير المدينة أن يتلافى هذا الموقف بكل وجوه الحكمة ففشل، ومن ذلك أنه وسَّط بينه وبين سعيد طائفة من كبار أصحاب سعيد، وفيهم من هم بمنزلته في العلم والصلاح، مثل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله بن عمر (وهؤلاء الثلاثة من الفقهاء السبعة)، وعرضوا على سعيد بن المسيب أن يقرأ عليه أمير المدينة كتاب أمير المؤمنين بولاية العهد لابنيه وأن يسكت سعيد فلا يقول لا ولا نعم، أو أن يجلس في بيته يوم البيعة العامة فلا يشترك فيها، أو أن يغير مجلسه في المسجد فيكتفي الأمير

بأن يرسل إليه من يبحث عنه في مجلسه المعتاد فلا يجده فيه، فأبى أن يجيب إلى شيء من ذلك وجلس في مجلسه المعتاد ودُعِي للبيعة فرفض، فعوقب بالجلد، وأبى أن يصاهر ولي العهد.

قال يحيى بن سعيد: كتب والي المدينة هشام بن إسماعيل [وهشام بن إسماعيل خال هشام بن عبد الملك وباسمه سمى هشام بن عبد الملك] إلى عبد الملك بن مروان: أن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب، فكتب أن اعرضه على السيف، فإن مضى، وإلا فاجلده خمسين جلدة، وطف به أسواق المدينة.

فلما قدم الكتاب على الوالي، دخل سليمان بن يسار، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله، على سعيد بن المسيب، فقالوا: إنا قد جئناك في أمر، قد قدم فيك كتاب من عبد الملك بن مروان، إن لم تبايع ضربت عنقك. ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا، فأعطنا إحداهن فإن الوالي قد قبل منك:

أن يقرأ عليك الكتاب، فلا تقل: لا، ولا نعم. قال: فيقول الناس: بايع سعيد بن المسيب، قال: ما أنا بفاعل. وكان إذا قال: لا، لم يطيقوا عليه أن يقول: نعم. قال: فمضت واحدة، وبقيت اثنتان.

قالوا: فتجلس في بيتك، فلا تخرج إلى الصلاة أياما، فإنه يقبل منك إذا طلبت في مجلسك فلم يجدك. قال: وأنا أسمع الأذان فوق أذني: حي على الصلاة، حي على الفلاح، ما أنا بفاعل. قالوا: مضت اثنتان، وبقيت واحدة.

قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره، فإنه يرسل إلى مجلسك، فإن لم يجدك، أمسك عنك، قال: فرقا لمخلوق؟! ما أنا بمتقدم لذلك شبراً، ولا متأخر شبرا.

فخرجوا، وخرج إلى الصلاة –صلاة الظهر– فجلس في مجلسه الذي كان يجلس فيه، فلما صلى الوالي بعث إليه، فأتي به، فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا، إن لم تبايع ضربنا عنقك، قال: نهى رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عن بيعتين، فلما رآه لا يجيب، أخرج إلى السدة، فمدت عنقه، وسلت عليه السيوف، فلما رآه قد مضى، أمر به، فجرد فإذا

عليه تبان شعر. فقال: لو علمت أني لا أقتل، ما اشتهرت بهذا التبان، فضربه خمسين سوطا، ثم طاف به أسواق المدينة، فلما رده والناس منصرفون من صلاة العصر، قال: إن هذه لوجوه ما نظرت اليها منذ أربعين سنة.

** قال محمد بن القاسم: وسمعت شيخنا يزيد في حديث سعيد بإسناد لا أحفظه: إن سعيداً لما جرد ليضرب.. قالت له امرأة: ان هذا لمقام الخزي. فقال لها سعيد: من مقام الخزي فررنا.

وقال قتادة: أتيت سعيد بن المسيّب، وقد ألبس تبّان شعر وأقيم في الشمس فقلت لقائدي: أدنني منه فأدناني منه، فجعلت أسأله خوفاً من أن يفوتني وهو يجيبني حسبة والناس يتعجبون.

وقال عبد الله بن يزيد الهذلي: دخلت على سعيد بن المسيّب السجن، فإذا هو قد ذبحت لهُ شاة، فجعل الإهاب على ظهره، ثم جعلوا له بعد ذلك قضباً رطباً، وكان كلما نظر إلى عضديه قال: اللهم انصرني من هشام.

وقال الواقدي: كتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره أن يقف هشام بن إسماعيل للناس، وكان فيه سيئ الرأي، فدعا سعيد ابنه ومواليه فقال: أن هذا الرجل يوقَف للناس أوقد وُقف فلا يتعرض له أحد، ولا يؤذه بكلمة، فأنا سنترك ذلك لله وللرحم، فإن كان ما علمت لسيء النظر لنفسه فأما كلامه فلا أكلمه أبداً!

وجلس عبد الله بن القاسم إلى سعيد بن المسيب، فقال له: إنه قد نهي عن مجالستي، قال: قلت: إني رجل غريب، قال: إنما أحببت أن أعلمك.

وكذلك قال لآخر: هو العلاء بن عبد الكريم.

وقال قتادة: إنه كان إذا أراد الرجل أن يجالسه قال: إنهم قد جلدوني، ومنعوا الناس أن يجالسوني.

وعن أبي يونس القزي قال: دخلت مسجد المدينة، فإذا سعيد جالس وحده، فقلت: ما شأنه؟ قال: نهي أن يجالسه أحد.

** ثم ندم الحكام على صنيعهم، ولام الخليفة واليه على ما فعل بابن المسيب، وتم إخلاء سبيله من السجن من قبل والي المدينة الذي جلده وسجنه.

بعد أن قام هشام بن إسماعيل المخزومي والي المدينة في عهد عبد الملك بضرب ابن المسيب، رده إلى السجن وحبسه، وكتب إلى عبد الملك يخبره بخلافه، وما كان من أمره، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع به، ويقول: سعيد كان والله أحوج إلى أن تصل رحمه، من أن تضربه، وإنا لنعلم ما عند سعيد شقاق ولا خلاف.

ودخل قبيصة بن ذؤيب على عبد الملك بن مروان بكتاب هشام بن إسماعيل يذكر أنه ضرب سعيداً، وطاف به، قال قبيصة: يا أمير المؤمنين يفتاب عليك هشام بمثل هذا، يضرب ابن المسيب ويطوف به، والله لا يكون سعيد أبدا أمحل [المماحلة: المكايدة والمماكرة] ولا ألج منه حين يضرب، سعيد لو لم يبايع ما كان يكون منه، ما سعيد ممن يخاف فتقه، ولا غوائله على الإسلام وأهله، وإنه لمن أهل الجماعة والسنة.

وقال قبيصة: اكتب إليه يا أمير المؤمنين في ذلك. فقال عبد الملك: اكتب أنت إليه عنك تخبره برأيي فيه، وما خالفني من ضرب هشام إياه. فكتب قبيصة إلى سعيد بذلك، فقال سعيد حين قرأ الكتاب: الله بيني وبين من ظلمني.

ودخل على سعيد بن المسيب السجن أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فجعل يكلم سعيداً ويقول له: إنك خرقت به [قسوت على الخليفة، والخرق الحمق]، فقال: يا أبا بكر، اتق الله وآثره على ما سواه. قال: فجعل أبو بكر يردد عليه: إنك خرقت به ولم ترفق. فجعل سعيد يقول: إنك والله أعمى البصر، أعمى القلب.

قال: فخرج أبو بكر من عنده، وأرسل إليه هشام بن إسماعيل، فقال: هل لان سعيد بن المسيب منذ ضربناه؟ فقال أبو بكر: والله، ما كان أشد لسانا منه منذ فعلت به ما فعلت، فاكفف عن الرجل.

وجاء هشام بن إسماعيل كتاب من عبد الملك بن مروان يلومه في ضربه سعيد بن المسيب، ويقول: ماضرك لو تركت سعيدا ووطئت ما قال؟!.

وندم هشام بن إسماعيل على ما صنع بسعيد، فحلى سبيله.

أجل! إنها صلابة الرجال الأشداء، وصرامة المؤمنين بحق، الذين لا تزعزعهم الرياح الهوج، ولا تحركهم قيد أنملة، أو تحولهم عن المبدأ الذي آمنوا به مهما لاقوا من عذاب، أو تعرضوا لنقمة ومحن شديدة.

وهكذا صبر الأنبياء على الأذى، وسار على دربهم – درب الجهاد والنضال في سبيل الله– ورثتهم العلماء المخلصون، الذين لا يعكر إخلاصهم وإيمانهم رذاذ من حطام الدنيا، أو يفت من عزيمتهم تنكيل أو عذاب مهما اشتد أو قسى، وإنما يستعذب العالم المخلص طعم العذاب في سبيل مرضاة الله، والحفاظ على سنة نبي الله في الأرض.

** كان الوليد بن عبد الملك جبارا ظالما، ولم يكن مثل أبيه عبد الملك الذي كان معتبرا من فقهاء المدينة، وإذا كان التكبر على المتكبر صدقة – كما يقول الناس – فإن سعيد بن المسيب صاحب العزة والاباء والتقدم على الجبارين، لن يأبه بالوليد، كما لم يأبه بأبيه عبد الملك.

فلما استخلف الوليد بن عبد الملك، قدم المدينة، فدخل المسجد، فرأى شيخا قد اجتمع الناس عليه، فقال: من هذا؟ فقالوا: سعيد بن المسيب. فلما جلس أرسل إليه، فأتاه الرسول فقال: أجب أمير المؤمنين. فقال: لعلك أخطأت باسمي، أو لعله أرسلك إلى غيري؟ قال: فأتاه الرسول فأخبره، فغضب وهم به. وفي الناس يومئذ بقية، فأقبل عليه جلساؤه،

فقالوا: يا أمير المؤمنين، فقيه أهل المدينة، وشيخ قريش، وصديق أبيك، لم يطمع ملك قبلك أن يأتيه. فما زالوا به حتى انفض عنه.

وقال الواقدي وغيره: وحج بالناس في هذه السنة. أي سنه ٩١ أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فلما قرب من المدينة، أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة، فتلقوه، فرحب بهم، وأحسن اليهم، ودخل المدينة النبوية، فأخلي له المسجد النبوي، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيب، لم يتجاسر أحد أن يخرجه، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم، فقالوا له: تنح عن المسجد أيها الشيخ، فان أمير المؤمنين قادم، فقال: والله لا أخرج منه، فدخل الوليد المسجد، فجعل يدور فيه، يصلي ههنا وههنا، ويدعو الله عز وجل، قال عمر بن عبد العزيز: وجعلت اعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه، فحانت منه التفاتة، فقال. من هذا، هو سعيد بن المسيب؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، ولو علم بأنك قادم، لقام إليك، وسلم عليك. فقال: قد علمت بغضه لنا، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه وإنه، وشرعت أثني عليه. وشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين، فقلت: يا أمير المؤمنين، انه ضعيف البصر –وإنما قلت ذلك لأعتذر له– فقال: نحن أحق بالسعي إليه: فجاء فوقف عليه، فسلم عليه، فلم يقم له سعيد، ثم قال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: بخير والحمد لله، كيف أمير المؤمنين؟ فقال الوليد: بخير والحمد لله وحده. ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز: هذا فقيه الناس. فقال: أجل يا أمير المؤمنين.

راهب قريش

** يدهش الإنسان ويذهل أمام سيرة ابن المسيب التي اترعت بأخبار تصف لنا عبادته وصلاته وحجه وصومه كأمثال الجبال، تنوء بحملها همم الرجال الاشداء، وكيف تسنى له ذلك مع اشتغاله بالعلم، وطلبه الحديث، وانهماكه في التفكير والافتاء، حتى إنه لقب بـ «براهب قريش» لعبادته وفضله.

وتختل الموازين العادية عند ذوي الإيمان الراسخ، فتصبح الطاعة حلاوة، والتدين غذاء، والتعب الجسدي سموا للروح ومتعة للنفس، والعبادة راحة وسعادة.

كما أنه كان مهتماً بالوعظ، وإرشاد الناس وتوجيههم وتذكيرهم وتعليق قلوبهم بالله، وتزهيدهم بالدنيا وتحذيرهم من مفاتنها

** قال ابن المسيب: ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرة من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله.

وقال خالد بن داود – ابن أبي هند – سألت سعيد بن المسيب: ما يقطع الصلاة؟ قال: الفجور، ويسترها التقوى.

وقد جمع ابن المسيب بين روح العبادة وحقيقتها، وبين مراسمها وكيفيتها المشروعة، فاعتبر – وهو الواقع– أن التفقه في الدين والتفكر في أوامر الله، والورع عن محارم الله، وأداء فرائض الله هو العبادة.

وهذا صحيح تماما لأن الشكل أو المظهر لا قيمة له إذا لم يحقق المغزى والمعنى الذي يتضمنه. وغاية العبادة الحقة هي أن تمتلئ النفس خشية وأن تلتزم بالمقاصد التشريعية السامية التي شرعت من أجلها العبادة

قال خُنَيْس، قلت لسعيد بن المسيب –وقد رأيت أقواما يصلون ويتعبدون–: يا أبا محمد ألا تتعبد مع هؤلاء القوم، فقال لي: يا ابن أخي، إنها ليست بعبادة، قلت له: فما التعبد يا أبا محمد؟ قال: التفكر في أمر الله، والورع عن محارم الله، وأداء فرائض الله تعالى.

وقال صالح بن محمد بن زائدة: إن فتية من بني ليث كانوا عبادا، وكانوا يروحون بالهاجرة إلى المسجد، ولا يزالون يصلون حتى يصلى العصر. فقال صالح لسعيد: هذه هي العبادة!! أو تقوى على ما يقوى عليه هؤلاء الفتيان؟ فقال سعيد: ما هذه العبادة، ولكن العبادة: التفقه في الدين، والتفكر في أمر الله تعالى.

وقيل له وقد نزل الماء في عينه، ألا تقدح عينك؟ قال: عني – على مَن – أفتحها؟

وقال: كنت بين القبر والمنبر، فسمعت قائلا يقول ولم أره: اللهم إني أسألك عملاً باراً، ورزقاً دارًّا وعيشاً قاراً. قال سعيد فلزمتهن فلم أر إلا خيراً.

وسئل عن آية من كتاب الله فقال: لا أقول في القرآن شيئاً وكان لا يكاد يفتي فتياً ولا يقول شيئاً إلا قال: اللهم سلمني وسلم مني.

** وكان ابن المسيب يكثر من الصلاة في جوف الليل، يتهجد فيه، فكان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يقول لنفسه إذا دخل الليل: قومي يا مأوى كل شر، والله لأدعنك تزحفين زحف البعير، فكان يصبح وقدماه منتفختان، فيقول لنفسه: بذا أمرت، ولذا خلقت.

قال ابن حرملة: حفظت صلاة ابن المسيب وعمله بالنهار، فسألت مولاه عن عمله بالليل، فأخبرني، فقال: وكان لا يدع أن يقرأ بصاد والقرآن كل ليلة، فسألته عن ذلك، فأخبر أن رجلا من الانصار صلى إلى شجرة، فقرأ بصاد، فلما مر بالسجدة سجد، وسجدت الشجرة معه، فسمعها تقول: اللهم أعطني بهذه السجدة أجرا، وضع عني بها وزرا، وارزقني بها شكرا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود.

والحديث في سنن الترمذي –بسند حسن– عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ وَأَنَا نَائِمٌ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَسَجَدْتُ، فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اكْتُبْ لِي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ، قَالَ الحَسَنُ: قَالَ لِيَ ابْنُ جُرَيْجٍ: قَالَ لِي جَدُّكَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَقَرَأَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سَجْدَةً، ثُمَّ سَجَدَ»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَسَمِعْتُهُ وَهُوَ «يَقُولُ مِثْلَ مَا أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ»

وقال عبد المنعم بن إدريس عن أبيه: صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة [العشاء] خمسين سنة [حلية الأولياء وطبقات ابن سعد]

قال عاصم بن العباس: سمعت ابن المسيب يقرأ القرآن بالليل على راحلته فيكثر.

** كان يحافظ على صلاة الجماعة، لم تفته التكبيرة الأولى في الصف الاول مدة خمسين سنة.

قال سعيد نفسه: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة [يعني لمحافظته على الصف الأول]

وقال أيضا: من حافظ على الصلوات الخمس في جماعة، فقد ملأ البر والبحر عبادة.

وقال إسماعيل بن أمية عن سعيد بن المسيب قال: ما دخل علي وقت صلاة إلا وقد أخذت أهبتها، ولا دخل علي قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق.

وقال الأوزاعي: كانت لسعيد بن المسيب فضيلة لا نعلمها كانت لأحد من التابعين: لم تفته الصلاة في جماعة أربعين سنة، عشرين منها لم ينظر في أقفية الناس.

وعن ابن حرملة عن سعيد بن المسيب قال: ما لقيت الناس منصرفين من صلاة منذ أربعين سنة.

حتى إن الطاغية مسلم بن عقبة المري لما استولى على المدينة سنة 63هـ في موقعة الحرة منع الناس من الصلاة في المسجد النبوي؛ فخاف الجميع منه ما عدا سعيد بن المسيب، الذي رفض أن يخرج من المسجد النبوي؛ أو يترك صلاة الجماعة.

** وقد أراد ابن المسيب أن يفتح له باب إلى جنان الخلد، فلازم المساجد، ومجالس العلم فيها، وهي كلها رياض الجنة.

قال الإمام مالك رضي الله عنه: بلغني أن سعيد بن المسيب كان يلزم مكانا من المسجد لا يصلي من المسجد في غيره، وإنه ليالي صنع به عبد الملك ما صنع، قيل له: أن يترك الصلاة فيه، فأبي إلا أن يصلي فيه.

وقال سعيد: ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا في المسجد.

وقال مولاه برد: ما نودي للصلاة منذ أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد.

كان رحمه الله شديد الحرص على أداء صلاة الجماعة في الصبح والعشاء، ولقد حدث لابن المسيب مرض في عينيه، ولم يترك صلاتي الصبح والعشاء جماعة.

اشتكى عينيه مرة، فقيل له: يا ابا محمد، لو خرجت إلى العقيق، فنظرت إلى الخضرة، فوجدت ريح البرية، لنفع ذلك بصرك، فقال سعيد: فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح.

وقال محمد بن سعيد: كان سعيد بن المسيب أيام الحرة في المسجد لم يبايع ولم يبرح، وكان يصلي معهم الجمعة، ويخرج إلى العيد، وكان الناس يقتتلون وينتهبون وهو في المسجد لا يبرح إلى الليل.

وقال ابن حرملة: قلت لمبرد مولى ابن المسيب: ما صلاة ابن المسيب؟ فأما صلاته فقد عرفناها. فقال: والله ما أدري، إنه ليصلي صلاة كثيرة، إلا أنه يقرأ بـ {ص والقرآن ذي الذكر}

** تاقت نفسه إلى دخول الجنة من باب الريان، الذي لا يدخل منه الا الصائمون يوم القيامة، فاذا دخلوا اغلق، فلم يدخل منه أحد، لذلك أكثر من الصوم، فكان يسرد الصوم، ويصوم الدهر، ويفطر أيام العيدين، والتشريق [الثلاثة الأيام التي تلي عيد الأضحى] لحرمة صومها شرعا.

** وقد انقسم العلماء في حكم صوم الدهر إلى طوائف ثلاث:

1/ قال ابن حزم وابن خزيمة وطائفة: أنه يحرم لما ورد فيه من الوعيد الشديد عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فروى أحمد عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَنْ صَامَ الدَّهْرَ، ضُيِّقَتْ عَلَيْهِ جَهَنَّمُ هَكَذَا). وَقَبَضَ كَفَّهُ. [موقوفه صحيح]

يقول ابن حزم رحمه الله: "لا يحل صوم الدهر أصلا".

2/ وقال اسحاق وأهل الظاهر، وفي رواية عن أحمد: أنه يكره، ففي مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لَا صَامَ مَنْ صَامَ الْأَبَدَ) [إسناده صحيح البخاري ومسلم]، وهو إما محمول على معنى الدعاء عليه، زجرا له عن صنيعه، أو على سبيل الأخبار عن أنه لم يصم ولم تحصل له فضيلة الصوم، بسبب مكابدته الجوع والظمأ، حتى انقلب عنده عادة، ولم يفتقر إلى الصبر على الجهد الذي يتعلق به الثواب.

ويؤيد المعنى الثاني حديث مسلم: قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ بِمَنْ يَصُومُ الدَّهْرَ كُلَّهُ؟ قَالَ: (لَا صَامَ، وَلَا أَفْطَرَ) [مسلم] – أَوْ قَالَ: لَمْ يَصُمْ، وَلَمْ يُفْطِرْ.

قال في فتح الباري: أي لم يحصل أجر الصوم لمخالفته، ولم يفطر، لأنه أمسك.

وعن أنس بن مالك –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قال: جَاءَ ثَلاثُ رَهطٍ إلى بُيُوتِ أَزوَاجِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَسأَلُونَ عَن عِبَادَةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَلَمَّا أُخبِرُوا كَأَنَّهُم تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وأَينَ نَحنُ مِنَ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟ قَد غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُم: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهرَ وَلَا أُفطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: (أَنتُمُ الَّذِينَ قُلتُم كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخشَاكُم للَّهِ وَأَتقَاكُم لَه، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي) [البخاري ومسلم]

فدل قوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لكني أصوم وأفطر...فمن رغب عن سنتي فليس مني) على أن صيام الدهر مخالف لسنة النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (يَا عَبْدَ اللَّهِ! أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟) فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: (فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا...) إلى آخر الحديث.

وفي رواية: فَقُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ) [البخاري ومسلم]

وهو أيضا مذهب الحنفية، واختيار ابن قدامة، وابن تيمية من الحنابلة خلافا للمذهب، وهو اختيار اللجنة الدائمة للإفتاء بالسعودية.

جاء في «الدر المختار» من كتب الحنفية: "والمكروه تنزيها كصوم دهر".

ويقول ابن الهمام الحنفي: "يكره صوم الدهر لأنه يضعفه أو يصير طبعا له، ومبنى العبادة على مخالفة العادة ".

ويقول ابن قدامة رحمه الله: "الذي يقوى عندي أن صوم الدهر مكروه وإن لم يصم هذه الأيام – يعني العيد والتشريق –، فإن صامها فقد فعل محرما، وإنما كره صوم الدهر لما فيه من المشقة والضعف، وشبه التبتل المنهي عنه".

وقد أجاب المخالفون لهذا القول عن أدلته بما أجاب به الإمام النووي رحمه الله حيث يقول:

"أحدها: جواب عائشة رضي الله عنها وتابعها عليه خلائق من العلماء، أن المراد: من صام الدهر حقيقة، بأن يصوم معه العيد والتشريق، وهذا منهي عنه بالإجماع.

وحديث (لا صام من صام الأبد) محمول على أن معناه أنه لا يجد من مشقته ما يجد غيره ; لأنه يألفه ويسهل عليه، فيكون خبرا لا دعاء، ومعناه لا صام صوما يلحقه فيه مشقة كبيرة، ولا أفطر، بل هو صائم له ثواب الصائمين.

والثالث: أنه محمول على من تضرر بصوم الدهر أو فوت به حقا، ويؤيده أنه في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص كان النهي خطابا له، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه عجز في آخر عمره وندم على كونه لم يقبل الرخصة، وكان يقول: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فنهى النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ابن عمرو بن العاص لعلمه بأنه يضعف عن ذلك، وأقر حمزة بن عمرو – سيأتي حديثه فيما بعد – لعلمه بقدرته على ذلك بلا ضرر" انتهى.

3/ ذهب جمهور العلماء إلى استحباب صوم الدهر لمن أطاقه. وهو قول المالكية، والشافعية، والحنابلة، أما المالكية والشافعية فقد صرحوا بالاستحباب، وأما الحنابلة فنصوصهم جاءت بلفظ الجواز.

والاستحباب مقيد عند الجميع بأن لا يؤدي صوم الدهر إلى تقصير في أداء الحقوق والواجبات، أو يخاف الصائم ضررا على نفسه، فإن أدى لذلك فيكره حينئذ عند الشافعية والحنابلة، ويجوز عند المالكية.

وتأولوا أحاديث النهي عن صيام الدهر التي اعتمد عليها ابن حزم وغيره بأن المراد من صام الدهر مع الأيام المنهي عنها من العيدين وأيام التشريق. وهو تأويل مردود بنهيه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لابن عمرو، وتعليله بأن لنفسه عليه حقا، ولأهله عليه حقا، ولضيفه عليه حقا.

ففي البخاري عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رضي الله عنهما: بَلَغَ النَّبِيَّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنِّي أَسْرُدُ الصَّوْمَ، وَأُصَلِّي اللَّيْلَ، فَإِمَّا أَرْسَلَ إِلَيَّ وَإِمَّا لَقِيتُهُ، فَقَالَ: (أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ وَلَا تُفْطِرُ، وَتُصَلِّي وَلَا تَنَامُ؟ فَصُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَظًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ وَأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَظًّا). قَالَ: إِنِّي لَأَقْوَى لِذَلِكَ، قَالَ: (فَصُمْ صِيَامَ دَاوُدَ عليه السلام. قَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: (كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى). قَالَ: مَنْ لِي بِهَذِهِ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ عَطَاءٌ: لَا أَدْرِي كَيْفَ ذَكَرَ صِيَامَ الْأَبَدِ، قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (لَا صَامَ مَنْ صَامَ الْأَبَدَ). مَرَّتَيْنِ.

وأما قوله (لا صام من صام الابد) فمحمول على من كان يدخل على نفسه بالصوم مشقة، أو يفوت حقا. ولذلك لم ينه –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حمزة بن عمرو الاسلمي عن متابعة الصيام، حينما قال له: يا رسول الله، إني أسرد الصوم.

ففي صحيح البخاري عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ حَمْزَةَ بْنَ عَمْرٍو الأَسْلَمِيَّ قالَ: يا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْرُدُ الصَّوْمَ.

وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ حَمْزَةَ بْنَ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيَّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي رَجُلٌ أَسْرُدُ الصَّوْمَ أَفَأَصُومُ فِي السَّفَرِ؟ قَالَ: (صُمْ إِنْ شِئْتَ، وَأَفْطِرْ إِنْ شِئْتَ) [وموضع الدلالة أن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لم ينكر عليه سرد الصوم]

لكن وقد أجاب ابن حزم عن حديث حمزة بن عمرو الأسلمي وغيره من الصحابة الذين ورد أنهم كانوا يسردون الصوم: بأن سرد الصوم ليس هو صيام الدهر كله، وإنما هو متابعة الصيام لأشهر طويلة حتى يقال: لا يفطر، ولكن ليس صيام العام كله، وروى عن بعض الصحابة كعمر بن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– النهي الصريح عن صيام الدهر.

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله:

"تعقب بأن سؤال حمزة إنما كان عن الصوم في السفر لا عن صوم الدهر، ولا يلزم من سرد الصيام صوم الدهر، فقد قال أسامة بن زيد إن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كان يسرد الصوم فيقال لا يفطر. [أخرجه أحمد] ومن المعلوم أن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لم يكن يصوم الدهر فلا يلزم من ذكر السرد صيام الدهر".

وورد متابعة بعض الصحابة رضوان الله عليهم للصوم، ومن ذلك:

يقول النووي رحمه الله: "عن ابن عمر أنه سئل عن صيام الدهر فقال: كنا نعد أولئك فينا من السابقين [رواه البيهقي].

وعن عروة أن عائشة كانت تصوم الدهر في السفر والحضر [رواه البيهقي بإسناد صحيح].

وعن أنس قال: (كان أبو طلحة لا يصوم على عهد النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من أجل الغزو، فلما قبض النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لم أره مفطرا إلا يوم الفطر أو الأضحى [رواه البخاري في صحيحه]

ولا شك أن ابن المسيب بصومه الأبد ما عدا الأيام المنهي عنها سائر على مذهب الجمهور من الصحابة.

لكن والذي يظهر رجحانه هو القول القاضي بكراهة صيام الدهر والمنع منه، وذلك لقوة أدلتهم وصراحتها

** لم يترك سعيد بابا من أبواب الجنة وسبيلا من سبل الطاعة إلا ولجه، وكان في قمة الصلحاء والاتقياء والمتقربين إلى الله بحسن الافعال. فأكثر من الحج والعمرة رغم أن فريضتهما في العمر مرة، ولكنه تطوع فيما بعد ذلك، طمعا في مغفرة الله وثوابه، قال ابن حرملة: سمعت ابن المسيب يقول: لقد حججت أربعين حجة.

** وقد دأب سعيد على الأعمال الصالحة طيلة حياته دون أن يعرف غير الطاعة والعلم والعمل في مرضاة الله، قال: "ما أظلني بيت بالمدينة بعد منزلي، إلا أني آتي ابنة لي، فأسلم عليها أحيانا.

وأدل دليل على ذلك ما عرفناه عنه: ملازمة للمساجد، ومحافظة على صلاة الجماعة خمسين سنة، وقيام بالليل وصلاة للصبح والعشاء بوضوء واحد خمسين سنة، وصوم للدهر، وحجه أربعين حجة. فمن ذا يقاربه او يلحق به؟!

ومن هنا قالوا في حقه: جمع بين الحديث والتفسير، والفقه والورع والعبادة.

وقالوا: صاحب عبادة، وجماعة وعفة وقناعة.

** في مسند أحمد والأدب المفرد للبخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، قَالَ: (لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ مِنَ الدُّعَاءِ) [حسن]

كان ابن المسيب يكثر من الدعاء. وكان يكثر أن يقول في مجلسه: «اللهم سلم سلم» وهذا يوحي بكثرة الفتن من حوله في الدنيا، وتخوفه من عذاب الله في الآخرة.

وقال مرة: دخلت المسجد في ليلة أضحيان [ليلة مضيئة لا غيم فيها]، قال: وأظن أني قد أصبحت، فإذا الليل على حاله، فقمت أصلي، فجلست أدعو، فاذا هاتف يهتف من خلفي: يا عبد الله، قل: قلت: ما أقول: قال: قل: (اللهم إني أسألك بأنك مالك الملك، وأنك على كل شيء قدير، وما تشاء من أمر يكن) قال سعيد: فما دعوت بها قط بشيء الا رأيت نجحه.

وكان يدعو على أعداء الاسلام، لا على من ظلمه.. فقيل لسعيد بن المسيب: ادع على بني أمية، فقال: اللهم أعز دينك، وأظهر أولياءك، وأخز أعداءك في عافية لأمة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وقال علي بن زيد: قلت لسعيد بن المسيب: يزعم قومك أن ما منعك من الحج أنك جعلت لله عليك إذا رأيت الكعبة أن تدعو الله على بني مروان. قال: ما فعلت وما أصلي صلاة إلا دعوت الله عليهم، وإني قد حججت واعتمرت بضعا وعشرين سنة، وإنما كتبت علي حجة واحدة وعمرة، وإني أرى ناسا من قومك يستدينون فيحجون ويعتمرون، ثم يموتون، ولا يقضى عنهم، ولجمعة أحب إلي من حج أو عمرة تطوعا.

قال علي بن زيد: فأخبرت بذلك الحسن - أي البصري - فقال: ما قال شيئا، لو كان كما قال ما حج أصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولا اعتمروا.

والحقيقة أن نقد الحسن البصري له في غير محله، إذ لا يشرع الحج لا فرضا ولا تطوعا إلا إذا كان الحاج مستطيعا موسرا مالكا الزاد والراحلة. ولا تجوز الاستدانة، ثم يأتي الموت ولا وفاء، كما قال سعيد، فمن المعلوم أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- امتنع عن الصلاة على صحابي عليه دين: «ديناران»، وقال: صلوا على صاحبكم. قال أبو قتادة: هما علي يا رسول الله، فصلى عليه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وقال: (الآن بردت جلدته) [أحمد بإسناد حسن]. أو فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك [ضعيف]. وقال عليه السلام بالنسبة للشهداء: (يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ) [مسلم].

وحينئذ تكون صلاة الجمعة الفريضة حالة الدين أحب من الحج تطوعا كما لاحظ سعيد وأراد من كلامه في مثل هذا الشأن.

وكان بإخلاصه وصفائه وصدقه مجاب الدعوة: قال علي بن زيد – وكان مكفوف البصر – قال لي سعيد بن المسيب: قل لقائدك –أي من يقوده في الطريق – يقوم، فينظر إلى وجه هذا الرجل، وإلى جسده، فانطلق فنظر، فإذا رجل أسود الوجه، فجاء، فقال: رأيت وجه زنجي، وجسده أبيض، فقال: إن هذا سب هؤلاء الرهط: طلحة والزبير وعليا، فنهيته، فأبى، فدعوت عليه، فقلت: إن كنت كاذبا، فسود الله وجهك، فخرجت بوجهه قرحة، فاسود وجهه.

** قال يحيى ابن أبي كثير: العالم من خشي الله، وخشية الله الورع.

من هذه التوصيات والعظات النبوية والحكم البالغة كان ابن المسيب زاهدا ورعا قانعا عفيفا.

قال عنه المؤرخون: صاحب عبادة وجماعة وعفة وقناعة، وكان كاسمه بالطاعات سعيدا، ومن المعاصي والجهالات بعيدا.

وقال ابن كثير: كان سعيد بن المسيب من أورع الناس فيما يدخل بيته وبطنه، وكان من أزهد [الزهد: هو الاعراض عن الشيء لاستصغاره وارتفاع الهمة عنه لاحتقاره] الناس في فضول الدنيا، والكلام فيما لا يعني.

أما طعامه فكان بسيطا مما يدل على علو نفس وتقشف في الحياة. فكان طعام إفطاره من الصيام: الخبز والزيت.

وكان إذا غابت الشمس أتي بشراب له من منزله إلى المسجد، فيشر به.

أي أنه يعمل بالسنة، فيفطر في المسجد النبوي على شيء قليل: ماء أو تمرات ثلاث، ثم يصلي المغرب، ثم يعود إلى منزله لإتمام فطوره.

وفي أثناء حبسه في السجن قصة أخرى مثيرة. قال أبو أمية مولى بني مخزوم: صنعت ابنة سعيد بن المسيب طعاما كثيرا حين حبس، فبعثت به إليه، فلما جاءه الطعام دعاني سعيد، فقال: اذهب إلى ابنتي فقل لها: "لا تعودي لمثل هذا أبدا، فهذه حاجة هشام بن إسماعيل [أمير المدينة]، يريد أن يذهب مالي فأحتاج إلى ما في أيديهم، وأنا لا أدري ما أحبس، فانظري إلى القوت الذي كنت آكل في بيتي فابعثي إلي به".

فكانت تبعث إليه بذلك. وهذا يدل على مبلغ صبره وتحمله المشاق وفطنته ونظرته البعيدة إلى المستقبل، وأنه على العالم أن لا يذل لأرباب الدنيا ورجال الحكم.

** وتمتد نظرته بنحو أعمق إلى الحياة الدنيوية نفسها، فيراها فانية، وأنها متاع الغرور، فيترفع عن زخارفها، وتعلو نفسه عن مباهجها ومفاتنها، ومن أولاها فتنة الطعام والشراب.

قال يحيى بن سعيد: دخلنا على سعيد نعوده، ومعنا نافع بن جبير، فقالت أم ولده: إنه لم يأكل منذ ثلاث، فكلموه، فقال نافع ابن جبير: إنك من أهل الدنيا ما دمت فيها، ولا بد لأهل الدنيا مما يصلحهم، فلو أكلت شيئا، قال: كيف يأكل من كان على مثل حالنا هذه؟ بضعة يذهب بها إلى النار أو إلى الجنة. فقال نافع: ادع الله أن يشفيك، فإن الشيطان قد كان يغبطه مكانك من المسجد. قال: بل أخرجني الله تعالى من بينكم سالما.

** قال الزهري: لا يوثق الناس بعلم عالم لا يعمل، ولا يرضى بقول عالم لا يرضى.

ونظرة ابن المسيب المتقشفة الزاهدة إلى الحياة ليست قاصرة على نفسه، وإنما يريد وضعها مبدأ دائما للناس، عن طريق ربطهم بآثار البيت النبوي في البناء والبساطة وعدم التفاخر والتكاثر في الدنيا، ويتضح هذا من القصة التالية:

حينما أصدر الوليد بن عبد الملك أمرا بإدخال بيوت أزواج النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في مسجد رسول الله، وأرسل كتابا لواليه على المدينة بتنفيذ ذلك، قال سعيد:

والله لوددت أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرى ما اكتفى به رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها – يعني الدنيا –.

وقد وصف عمران بن أبي أنس كيفية هذه البيوت، فقال: كان منها أربعة أبيات بلبن، لها حجر [غرف] من جريد النخل، وكانت خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها، على أبوابها مسوح [كساء] الشعر، ذرعنت الستر [أي ما تستر به] فوجدته ثلاث أذرع في ذراع.

وقال سعيد بن المسيب يوم أدخالها في المسجد: ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده.

من مواعظه وأقواله

كان سعيد –أسعده الله– حسن الموعظة في أقواله، ينطق بالحكمة، ويجيد النصح والتذكير والتخويف. ومن درر أقواله:

- من استغنى بالله افتقر إليه الناس.
- الدنيا نذلة، وهي إلى كل نذل أميل، وأندل منها من أخذها من غير وجهها، ووضعها في غير سبيلها.
- إنه ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه.
- من كان فضله أكثر من نقصه، وهب نقصه لفضله.
- لا تقولن: مصيحف، ولا مسيجد: ولكن عظموا ما عظم الله، كل ما عظم الله فهو عظيم حسن.
- قالَ بُرْدٌ مَوْلَى ابْنِ المُسَيّبِ لِسَعِيْدِ بنِ المُسَيّبِ: مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مَا يَصْنَعُ هَؤُلاَءِ! قَالَ سَعِيْدٌ: وَمَا يَصْنَعُوْنَ؟ قَالَ: يُصَلّي أَحَدُهُم الظُّهْرَ، ثُمَّ لاَ يَزَالُ صَافّاً رِجْلَيْهِ

حَتَّى يُصَلِّيَ العَصْرَ فَقَالَ: وَيْحَكَ يَا بُرْدُ! أَمَا –وَاللهِ– مَا هِيَ بِالعِبَادَةِ، إِنَّمَا العِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللهِ وَالكَفُّ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ.

- وقال فيما يتعلق بالذرية والأولاد: قلة العيال أحد اليسارين.
- وغضب سليمان بن عبد الملك على ابن عبيد مولاه، فشكا إلى سعيد بن المسيب فكتب إليه: أما بعد، فإن أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره عما تقتضيه رعيته، وفي عفو أمير المؤمنين سعة للمسيئين فرضى عنه.

** ويشتد به الورع والخوف من الله إلى سد كل المنافذ التي تؤدي به إلى المعصية والفسق، ومن أخطرها: «النساء».

قال سعيد: قد بلغت ثمانين سنة، وما شيء أخوف عندي من النساء. وكان بصره قد ذهب. وفي رواية: وقد ذهبت إحدى عينيه، وهو يعشو بالأخرى.

وفي رواية: كان يقول وقد أتت عليه أربع وثمانون سنة: ما شيء أخوف عندي من النساء. فقالوا يا أبا محمد، إن مثلك لا يريد النساء ولا تريده النساء قال: هو ما أقول لكم

وقال أيضا: ما أيس الشيطان من شيء الا أتاه من قبل النساء.

** قال: ابن أبي ربيعة أشعر في الغزل، وابن قيس أكثر أفانين شعر

وقال عاصم: كان يحب أن يسمع الشعر ولا ينشده

وقال الأصمعي: قيل لسعيد بن المسيب: هاهنا قوم نسّاك يعيبون إنشاد الشعر قال: نسكوا نسكا أعجمياً

** كان ابن المسيب –رحمه الله– متواضعا لله وللناس، عملا بالسنة النبوية وتأسيا بقول الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وشوقا إلى قربه في الجنان حيث يقول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟) " فَسَكَتَ الْقَوْمُ،

فَأَعَادَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: (أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا) [أحمد بسند حسن].

ويؤكد هذا الالتزام الفعلي للتواضع قول سعيد نفسه: يد الله فوق عباده، فمن رفع نفسه وضعه الله، ومن وضعها رفعه الله. الناس تحت كنفه يعملون أعمالهم، فاذا أراد الله فضيحة عبد أخرجه من تحت كنفه، فبدت للناس عورته.

وعن عمران بن عبد الله قال: أرى نفس سعيد بن المسيب كانت أهون عليه في الله من نفس ذباب.

وقال سعيد بن عبد العزيز: لما احتضر عبد الملك بن مروان أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصارا [محور الثياب مبيضها] بالوادي، فقال: ما هذا؟ قالوا: قصار، فقال: كنت قصارا أعيش من عمل يدي. فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله: قال: الحمد الله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم.

وقال سعيد أيضا: لما حضره –أي عبد الملك– الموت، جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه، ويقول: وددت أني اكتسبت قوتا يوما بيوم، واشتغلت بعبادة ربي عز وجل.

وهذه كلمات تهز العروش، وتزلزل العظمات، وتردع الحكام، وتذكر كل كبير أو سلطان أو جبار أنه سيندم حينما يشعر بآثار المسئولية، ويحس بأعبائها الضخمة، ويتمنى الفرار من سؤال الله عن قيامه بالواجبات وأدائه الحقوق العامة والخاصة.

قال أبو مسهر: قيل لعبد الملك في مرض موته: كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 94]

** ومن ملامح فقهه أنه كان ذا خلق جم، وسماحة ووقار وهيبة، وتواضع وصفاء ونقاء.

وعن سماحة نفسه يقول عمران بن عبد الله الخزاعي: كان سعيد بن المسيب لا يخاصم أحدا، ولو أراد إنسان رداءه، رمى به إليه.

وقد أدرك سعيد بفطنته ووعيه وتدينه وعلمه مخاطر الجشع، فكان متعففا غاية التعفف عن أن يقبل من أحد شيئا.

قال عمران بن عبد الله: كان سعيد بن المسيب لا يقبل من أحد شيئا، لا دينارا ولا درهما ولا شيئا. قال: وربما عرض عليه الأشربة، فيعرض، فليس يشرب من شراب أحد منهم.

وقال أحمد العجلي: كان لا يأخذ العطاء، وله أربعمائة دينار يتجر بها في الزيت.

وروي عن عمران بن عبد الله قوله: «كان سعيد يكثر الاختلاف إلى السوق».

وروي عن عمران أيضاً قوله: «كان في رمضان يؤتى بالأشربة في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام، فليس أحد يطمع أن يأتي سعيد بن المسيب بشراب فيشربه، فإن أتي من منزله بشراب شربه، وإن لم يؤت من منزله بشيء لم يشرب شيئاً حتى ينصرف».

وعن عمران أيضاً قال: «كان لسعيد بن المسيب في بيت المال بضعة وثلاثون ألفاً عطاء، فكان يدعى إليها فيأبى»

وروي عن سعيد بن المسيب قوله: «ما أظلني بيت بالمدينة بعد منزلي، إلا أني آتي ابنة لي فأسلم عليها أحياناً».

وقال مالك بن أنس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: كان سعيد بن المسيب يماري غلاما له في ثلثي درهم، وأتاه ابن عمه بأربعة آلاف درهم، فأبى أن يأخذها.

وتأبى نفسه مد يده إلى حاكم، فيزهد حتى في مرتبه وعطائه المخصص له من بيت المال.

قال عمران بن عبد الله بن طلحة: دعي سعيد بن المسيب إلى نيف وثلاثين ألفا ليأخذها، فقال: لا حاجة لي فيها، ولا في بني مروان، حتى ألقى الله، فيحكم بيني وبينهم.

نفس كبيرة كهذه تتعالى على الملوك لجدير بها أن تحتل مكانة كبرى في نفوس الناس، يصبح قوله حكما، ورأيه قانونا متبعا، وترفعه ونزاهته مثلا أعلى يحتذى، وفعله وتعففه مضرب المثل، ومنبع الشهرة واذاعة الصيت، وحديث المجالس. وهي عزة المؤمن بحق: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8]

وقال عمر لابي عبيدة: "إن الله أعزكم بالإسلام، فمهما طلبتم العز في غيره أذلكم". والمعنى ينبغي أن يكون طلبكم العز بالدين لا بصور الافعال.

قال الأصبهاني في «حلية الأولياء»: فأما أبو محمد سعيد ابن المسيب بن حزن المخزومي، فكان من الممتحنين، امتحن فلم تأخذه في الله لومة لائم، صاحب عبادة وجماعة، وعفة وقناعة، وكان كاسمه بالطاعات سعيداً، ومن المعاصي والجهالات بعيدا.

** ابن المسيب تاجرا..

يقول د. وهبة الزحيلي: ولقد أطال العلماء في بيان أفضل المكاسب التي أصولها الزراعة والتجارة والصناعة، فقال النووي: والصواب أن أطيب المكاسب ما كان بعمل اليد، وإن كان زراعة فهو أطيب المكاسب لما يشتمل عليه من كونه عمل اليد، ولما فيه من التوكل، ولما فيه من النفع العام للآدمي وللدواب والطير.

قال الحافظ ابن حجر: وفوق ذلك ما يكسب من أموال الكفار بالجهاد، وهو مكسب النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وهو أشرف المكاسب، لما فيه من إعلاء كلمة الله تعالى.

ودليل الإمام النووي واضح من حديثي النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) [البخاري] وسئل النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أي الكسب أطيب؟ قال: (عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ). [أحمد، حسن]

قال شراح الحديث: وتقديم عمل اليد على البيع المبرور دال على أنه الأفضل، ودال على أطيبية التجارة الموصوفة بالبر وهي البيع المبرور: وهو ما خلص عن اليمين الفاجرة، لتنفيق السلعة، وعن الغش في المعاملة.

قال الماوردي: والأشبه بمذهب الشافعي أن أطيب المكاسب التجارة. وأردف قائلا: والأرجح عندي ان أطيبها الزراعة، لأنها أقرب إلى التوكل.

ولقد كان سعيد يعتبر التجارة أفضل المكاسب، وكان تاجرا يتجر في الزيت. وكان أبوه المسيب أيضا زياتا يتجر بالزيت.

قال عمران بن عبد الله: وكان سعيد بن المسيب يكثر الاختلاف إلى السوق.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: كان سعيد رجلا صالحا فقيها، كان لا يأخذ العطاء، وله أربعمائة دينار، يتجر بها في الزيت.

وقال سعيد: ما من تجارة أحب الي من البز، ما لم تقع فيه الأيمان.

وكان أبو بكر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يخرج إلى التجارة، ويترك رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فلا ينهاه عن ذلك.

وقال عمر ابن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لأن أموت بين شعبتي جبل أطلب كفاف وجهي، أحب إلي من أن أموت غازيا في سبيل الله.

وكان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يتجرون. ومن سادات التابعين: سعيد بن المسيب، فمات وخلف مالا، وكان يتجر الزيت، وسفيان الثوري كانت له بضائع، وابن المبارك. ومازال السلف على هذا.

قال ابن قتيبة في «غريب الحديث» في قوله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (واليد العليا خير من اليد السفلى) قال: "هي . أي العليا – المعطية. قال: فالعجب عندي من قوم يقولون: هي الآخذة. ولا أرى هؤلاء القوم إلا قوما استطابوا السؤال، فهم يحتجون للدناءة، فأما الشرائع فإنها بريئة من حالهم".

وذلك بدليل بقية الحديث: (واليد العليا: المنفقة، والسفلى: السائلة) ورواية أخرى: (يد المعطي: العليا).

من هنا قال ابن المسيب: "لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حله، يعطي منه حقه، ويكف به وجهه عن الناس".

وقال أيضا: "لا خير فيمن لا يحب هذا المال، يصل به رحمه، ويؤدي به أماتنه، ويستغني به عن خلق ربه".

وقال يحيى بن سعيد: أنه –أي سعيد– مات وترك ألفين أو ثلاثة آلاف دينار.

وقال أي سعيد: ما تركتها إلا لأصون بها ديني وحسبي.

وقد ذكرنا أنه كان له مال يتجر فيه، ويقول: اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلا ولا حرصا عليه، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها، وإنما أريد أن أصون به وجهي عن بني مروان، حتى ألقى الله، فيحكم في وفيهم، أصل منه رحمي، وأؤدي منه الحقوق التي فيه، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار.

وقال: من استغنى بالله افتقر الناس إليه.

وهذا الكلام هو روح الاسلام، ولاسيما بالنسبة لعلماء الامة، وقد أصاب الامام ابن الجوزي في تأكيده على هذا المعنى في مناسبات عدة، فقال: "ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال، للاستغناء عن الناس، فإنه إذا ضم إلى العلم حيز الكمال، وأن جمهور العلماء شغلهم العلم عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لا بد منه، وقل الصبر، فدخلوا مداخل شانتهم، وان تأولوا فيها، الا أن غيرها كان أحسن لهم".

وقال أيضا: "حضرنا بعض أغدية أرباب الأموال، فرأيت العلماء أذل الناس عندهم، فالعلماء يتواضعون لهم، ويذلون الموضع طمعهم فيهم، وهم لا يحفلون بهم لما يعلمونه من احتياجهم إليهم".

وبهذا يظهر أن تفضيل أكثر العلماء الفقر على الغنى هو من ناحية المبدأ العام، أو بالنظر إلى ما يسبب كل واحد، فالفقر غالبا يكون مدعاة للطاعة، إذ أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها أساس كل طاعة.

والغنى غالبا يكون سببا للطغيان والفسق: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6-7]

وأما إذا أدى الغني حقوق الله في ماله، وقام بطاعة ربه، فهو في الدنيا في رأيي لا شك أفضل من الفقير، لأنه أكثر فائدة للامة، مثل عثمان ابن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما.

قال ابن عطاء: الغني الشاكر القائم بحقه أفضل من الفقير الصابر.

وأكثر العلماء على ان الغني المنفق ماله في الخير أفضل أي في الآخرة من الفقير الحريص. فإن كان الغني متمتعا بالمال في المباحات، فالفقير القنوع أفضل منه. وإن كان الغني حريصا على ماله ممسكا له، فالفقير القانع أفضل منه.

** لقد ربي الاسلام ابن المسيب وأمثاله من الصحابة والتابعين على الزهد في الدنيا، والاهتمام بالباقي الخالد، والنفور من المناصب المزخرفة، والسلطة المزيفة الفانية. فتجده يأبى تزويج ابنته لابن خليفة، ويسارع إلى تزويجها من طالب علم فقير على درهمين. وسنذكر هذه القصة العجيبة، ونستطرد إلى ذكر قصة أخرى مشابهة، حتى يتبين لنا أن ما فعله ابن المسيب ليس أمرا مستحيلا، أو فريد المثال، وإنما يمكن محاكاته عند ذوي النفوس الصافية، والايمان الراسخ، والعقيدة الصلبة التي لا تتزعزع أمام الرياح الهوج، أو الأعاصير العاتية وإن لحق بها الأذى، وتعرضت للضرب والحبس.

قال إبراهيم بن عبد الله الكتاني: إن سعيد بن المسيب زوج ابنته بدرهمين.

وقال ابن كثير: وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكَثِيرِ بْنِ أَبِي وِدَاعَةَ وكانت من أحسن النساء، وأكثرهم أدبا، وأعلمهم بكتاب الله، وسنة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأعرفهم بحق الزوج، وكان فقيرا، فأرسل اليه بخمسة آلاف. وقيل: بعشرين ألفا، وقال: استنفق هذه. وقصته في ذلك مشهورة، وقد كان عبد الملك بن مروان خطبها لابنه الوليد فأبي سعيد أن يزوجه بها، فاحتال عليه، حتى ضربه بالسياط.

قال ابن أبي وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أياما، فلما جئته، قال: أين كنت؟ قال: توفيت أهلي، فاشتغلت بها: فقال: ألا أخبرتنا، فشهدناها، قال: ثم أردت أن أقوم، فقال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني، وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ فقال: أنا، فقلت: أو تفعل؟ قال: نعم. ثم حمد الله تعالى، وصلى على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وزوجني على در همين، أو قال: ثلاثة.

قال: فقمت، وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلي، وجعلت أتفكر ممن آخذ، وممن أستدين، فصليت المغرب وانصرفت إلى منزلي، واسترحت، وكنت وحدي صائما، فقدمت عشائي أفطر، وكان خبزا وزيتا، فإذا بآت يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، قال: فأفكرت في كل إنسان اسمه سعيد، إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم ير أربعين سنة، إلا بين بيته والمسجد. فقمت، فخرجت، فإذا سعيد بن المسيب، فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد، ألا ارسلت إلي، فآتيك؟!

قال: لأنت أحق أن تؤتى. قال: قلت: فما تأمر، قال: إنك كنت رجلا عزبا، فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فاذا هي قائمة من خلفه في طوله. ثم أخذها بيدها، فدفعها بالباب، ورد الباب، فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب، ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الزيت والخبز، فوضعتها في ظل السراج، لكيلا تراه، ثم صعدت إلى السطح، فرميت الجيران، فجاءوني، فقالوا: ما شأنك؟ قلت: ويحكم، زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم، وقد جاء بها على غفلة، فقالوا: سعيد بن المسيب زوجك؟! قلت: نعم! وها هي في الدار، قال: فنزلوا هم إليها، وبلغ أمي، فجاءت وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام.

قال: فأقمت ثلاثة أيام، ثم دخلت بها، فاذا هي من أجمل الناس، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وأعرفهم بحق الزوج.

قال: فمكثت شهرا لا يأتيني سعيد ولا آتيه، فلما كان قرب الشهر، أتيت سعيدا، وهو في حلقته، فسلمت عليه، فرد علي السلام، ولم يكلمني حتى تقوض [تقوضت الحلق والصفوف: انتقضت وتفرقت] أهل المجلس. فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان، قلت: خيرا يا أبا محمد، على ما يحب الصديق، ويكره العدو. قال: إن رابك شيء فالعصا، فانصرفت إلى منزلي، فوجه إلي بعشرين ألف درهم.

وفي رواية: قال يحيى بن سعيد: كان لسعيد بن المسيب جليس يقال له عبد الله بن أبي وداعة، فأبطأ عنه أياماً، فسأل عنه فقيل له: إن سعيد بن المسيب سأل عنك، فأتاه وسلم عليه، ثم جلس، فقال له سعيد: أين كانت غيبتك يا أبا محمد؟ فقال: إن أهلي كانت مريضة فمرضتها ثم ماتت فدفنتها. فقال يا عبد الله، أفلا أعلمتنا بمرضها فنعودها، أو بموتها فنشهد جنازتها؟ ثم عزّاه عنها ودعا له ولها، ثم قال: يا عبد الله، تزوج ولا تلق الله وأنت عزب. فقال: يرحمك الله! من يزوجني؟ فوالله ما أملك غير أربعة دراهم. فقال: سبحان الله! أو ليس في أربعة دراهم ما يستعف به الرجل المسلم؟ يا عبد الله! أنا أزوجك ابنتي إن رضيت. قال عبد الله: فسكت استحياء منه وإعظاماً لمكانه. فقال مالك سكت؟ ألعلك سخطت ما عرضنا عليك؟ قال: يرحمك الله! وأين المذهب عنك؟ فوالله إني لأعلم أنك لو شئت زوجتها بأربعة آلاف وأربعة آلاف، قال: قم يا عبد الله فادع لي نفراً من الأنصار، فقمت فدعوت له حلقة من بعض حلق الأنصار، فأشهدهم على النكاح بأربعة دراهم، ثم انقلبنا، فلما صلينا العشاء الآخرة وصرت إلى منزلي، إذا برجل يقرع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. فوالله خطر ببالي كل سعيد بالمدينة غير سعيد بن المسيب؛ وذلك انه ما رؤى قط خارجاً من داره إلا إلى جنازة أو إلى المسجد. فقلت مَن سعيد؟ قال: سعيد بن المسيب. فارتعدت فرائصي، وقلت: لعل الشيخ ندم فجاء يستقيلني، فخرجت إليه أجر رجلي وفتحت الباب فإذا بشابة ملتفة بساج، ودواب عليها مذابح؛ وخادم بيضاء؛ فسلم علي ثم قال لي: يا عبد

الله هذه زوجتك. فقلت مستحيياً منه: يرحمك الله! كنت أحب أن يتأخر ذلك أياماً. فقال لي: لمَه؟ أولست أخبرتني أن عندك أربعة دراهم؟ قلت: هو كما ذكرت، ولكن كنت أحب أن يتأخر ذلك. قال: إنها إذن عليك لغير ميمونة، وما كان الله ليسألني عن عزبتك الليلة وعندي لك أهل. هذه زوجتك، وهذا متاعكم، وهذه خادم تخدمكم معها ألف درهم نفقة لكم، فخذها يا عبد الله أمانة لك، فوالله إنك لتأخذها صوامة قوامة، عارفة بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاتق الله فيها، ولا يمنعك مكانها مني إن رأيت منها ما تكره أن تحسن أدبها. ثم سلمها إليّ ومضى. قال: فوالله ما رأيت امرأة قط أقرأ لكتاب الله تعالى، ولا أعرف بسنة رسول الله صلى عليه وسلم، ولا أخوف لله عز وجل منها. لقد كانت المسألة المعضلة تعي الفقهاء فأسألها عنها فأجد عندها منها علماً

وروى أنها لما تزوجت، وبكر زوجها خارجاً سألته: أين يذهب؟ فقال لها إلى حلقة أبيك سعيد. قالت له: اجلس أعلمك علم سعيد!

قال عبد الله بن سليمان: وكانت بنت سعيد بن المسيب خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك حين ولاه العهد، فأبى سعيد أن يزوجه. فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد، حتى ضربه مائة سوط، في يوم بارد، وصب عليه جرة ماء، وألبسه جبة صوف.

قال عبد الله: وابن أبي وداعة هذا: هو كثير بن المطلب بن أبي وداعة.

أي عزيمة شديدة كهذه، وأي رجل يفعل مثله، ألا يتنافس الناس عادة لتزويج ذوي المناصب العالية، والرتب الرفيعة، وأي منصب؟ خليفة وابن خليفة، مناه أن قبل، وهدده إن أبي، ولكنه أبي وزوجها لطالب العلم الفقير؟

إنه الإيمان الذي لا يتزعزع، وصلابة الدين الذي لا يقهر، وتربية الإسلام التي لا تنجزأ ولا تتنصف، فرضي الله عنه، وأعزه في الخالدين إلى يوم الدين.

وهناك قصة مشابهة لهذه القصة يتبين لنا منها أصالة المنطلق الذي نركز عليه، وهو الإسلام أولا وآخرا. وهي قصة أبي الفوارس شاه شجاع الكرماني: فانه لما زاد في الملك زهد في الملك، ودخل في طريق القوم: خطب ابنته بعض الملوك، فلم يزوجها منه، وطاف في

المساجد، فوجد فقيرا يحسن صلاته، فقال له: ألك زوجة؟ قال: لا، قال: فهل لك في زوجة جميلة، تقرأ القرآن، فقال الرجل: "أنا رجل فقير، ما يزوجني أحداً. قال: أما تقدر على درهمين؟ قال: "بلى "قال: "فاشترى بدرهم خبزًا، وبدرهم طيبًا، فقد تم الأمر.

ففعل ذلك، فزوجه ابنته. فلما دخلت ابنته بيت الفقير، رأت قرصًا [رغيف خبز] في البيت، عادت إلى ورائها (عودة إلى الخلف فورًا). فسألها عن رجوعها، فذكرت كلامًا معناه: "إني لا أرضى أن أبيت على معلوم [أي لا أقبل أن أنام وفي بيتي طعام مدخر ومضمون للغد]، فإما أن تُخرجه، وإلا خرجت.

فلما اتخذ الرغيف وتصدق به، طابت نفسها، فاستقرت عنده وعاشت معه.

العالم الرباني

العلماء ورثة الأنبياء، قائمون في الأمة مقامهم، مضطلعون بدورهم، والجماهير دائمًا تتطلع إليهم، وعيونهم معلقة بهم، خاصة وقت الأزمات والنوازل، وكلما كان العالم الرباني منظورًا إليه، مقتدى به، كانت التبعة أعظم، والمحنة أشد، فالعالم الرباني هو رجل الأمة ودليل العامة، ودرع الحق والشرع الذي يحمي بيضة الدين، ويذب عن حياضه، وبثباته على الحق يثبت الكثيرون، وبتهاونه يضيع أيضًا الكثيرون، لذلك ما من عالم رباني قام في الأمة إلا تعرض لكثير من المحن والابتلاءات، وهذه محنة واحد من سادتهم وأكابرهم.

إن المقومات الشخصية العالية لابن المسيب انتجت أفضل الثمار وأصلبها، وحققت أعظم الآثار وأخلدها، فكان سعيد دائم الحركة والنشاط في سبيل الله، لا يدع لحظة من الوقت تمر من دون مشاركة بناءة في نصرة دين الله والحق، وإعلاء مجد الأمة، وانتهال العلم ونشر التعليم، مما بوأه مكانة رفيعة في عصره، وأحله منزلة عالية في نفوس الناس جميعا، حتى عرفه القاصي والداني، وتحدث عنه الركبان، وسجل صفحة خالدة في تاريخ الاسلام، فقيل عنه: "مناقبه ومآثره تفوت الحصر، وقد صنف فيها، كان من سادات التابعين فقها وورعا وعبادة وفضلا، وزهادة وعلما".

** عاش سعيد في بيئة علمية مزدهرة في المدينة المنورة، فاغترف منها حتى روي، من طريق الصحب الكرام، يدفعه لذلك نهم علمي، وتحفز نفسي، وحرص على الفائدة، ويساعده حافظة قوية، وصفاء نفس، وتفرغ كامل، وشباب طامح.

حدث الإمام مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال: كنت أرحل الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

وروى الزهري عن سعيد قال: إن كنت لأسير ثلاثا في الحديث الواحد.

** ولقد وهب ابن المسيب ذكاء حادا، ونباهة عالية، وذاكرة مدهشة عجيبة، قال عمران بن عبد الله الخزاعي: والله ما أراه مر على أذنه شيء قط الا وعاه قلبه، يعني سعيد بن المسيب.

وقال عمران أيضا: سألني سعيد بن المسيب، فانتسبت له، فقال: لقد جلس أبوك إلي في خلافة معاوية، فسألني عن كذا وكذا، فقلت له: كذا وكذا.

أي أنه يستوعب الأشخاص والأحداث والتواريخ فيصفها وصفا دقيقا، كأنه يعرف من بحر، أو لكأن السامع يرى الحادثة من كلامه رأي العين.

قيل في سعيد: وكان سعيد جامعا، ثقة، كثير الحديث، ثبتا، فقيها، مفتيا، مأمونا، ورعا، عاليا، رفيعا.

فهو السيد المجمع على جلالته وديانته وإمامته الذي سما كل سيد تابعي بعد السيد العارف بالله أويس القرني.

** وكان لسعيد حلقة علمية دائمة في المسجد النبوي، يتدارس العلم ويدرسه، وينشر معارفه وعلومه في التفسير والحديث، ويجتهد في القضايا المتجددة، ويعبر الرؤيا للناس،

ويذكر ويحذر، ويخوف من عذاب الله، ويرهب من مخالفة أحكام الشريعة، ويزود الناس بالوصايا والحكم البليغة.

قال عاصم بن العباس الاسدي: كان سعيد بن المسيب يذكر ويخوف.

وقال عاصم أيضا: كان سعيد بن المسيب يحب أن يسمع الشعر، ولا ينشده.

وعن غنيمة جاريته قالت: كان سعيد لا يأذن لابنته في اللعب ببنات العاج [الدمى الصغيرة]، وكان يرخص لها في الكبر – يعني الطبل.

وكان يأتيه الناس من كل مكان يسألونه عن أقضية الرسول عليه السلام والصحابة: أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية.

قال متحدثا بنعمة الله عليه: "ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ولا أبو بكر وعمر مني". قال مستعر: وأحسبه قال: وعثمان ومعاوية.

وكان يفتي الناس وأصحاب رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أحياء.

وكان ابن عمر اذا سئل عن الشيء يشكل عليه، قال: سلوا سعيد بن المسيب فإنه قد جالس الصالحين.

وقال عنه أيضا: ألم أخبركم أنه أحد العلماء. ولو رأى هذا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لسره، هو والله أحد المفتين.

وكان يستفتح القراءة ببسم الله الرحمن الرحيم ويقول: إنها أول شيء كتب في المصحف، وأول الكتب، وأول ما كتب به سليمان بن داود إلى المرأة (بلقيس)

ولقد كان مهيبا وقورا يتهيبه الناس حين سؤاله.. قال ابن حرملة: ما كان إنسان يجترىء على سعيد بن المسيب يسأله عن شيء، حتى يستأذنه كما يستأذن الأمير.

قال الزهري: وكان لسعيد بن المسيب عند الناس قدر كبير عظيم، لخصال ورع يابس، ونزاهة، وكلام بحق عند السلطان وغيرهم، ومجانبة السلطان، وعلم لا يشاكله علم أحد، ورأي بعد صَليب، ونعم العون الرأي الجيد، وكان ذلك عند سعيد ابن المسيب، رحمه الله من

رجل فيه عزة لا تكاد تراجع إلا إلى محك، ما استطعت ان أواجهه بمسألة حتى أقول: قال فلان كذا، وقال فلان كذا وكذا، فيجيب حينئذ.

وأضاف الزهري يروي لنا الكثير من مجالس سعيد العلمية فقال:

وكنا نجالس ابن المسيب، لا نسأله حتى يأتي إنسان فيسأله، فيهيجه ذلك، فيحدث أو يبتدىء هو فيحدث.

كنت أجالس عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير العزري، أتعلم منه نسب قومي، فأتاه رجل جاهل يسأله عن المطلقة واحدة، ثنتين، ثم تزوجها رجل ودخل بها، ثم طلقها، على كم ترجع إلى زوجها الأول؟ قال: لا أدري. اذهب إلى ذلك الرجل – واشار إلى سعيد بن المسيب – قال: فقلت في نفسي: هذا أقدم من سعيد بدهر.. فقمت فاتبعت السائل، حتى سأل سعيد بن المسيب، فلزمت سعيدا، فكان هو الغالب على المدينة والمستفتى.

جالسته عشر سنين كيوم واحد.

قال مكحول: لما مات سعيد بن المسيب استوى الناس. ما كان أحد يأنف أن يأتي إلى حلقة سعيد بن المسيب، ولقد رأيت فيها مجاهدا وهو يقول: لا يزال الناس بخير ما بقي بين أظهرهم.

وهكذا كانت مجالس سعيد العلمية بحرا يتدفق بالعلم والنور والمعرفة والموعظة الحسنة، والفقه، ولقد اهتم بالفقه كثيرا، حتى سمي: «فقيه الفقهاء»

فما أعظم هذه المنزلة: منزلة التعلم والتعليم، فبالتعلم خير المرء في الدنيا والآخرة، وبالتعليم تعميم الخير والنفع للناس جميعا.

** كان سعيد عزيز النفس، أبيا، صريحا، صلبا في الحق ومجادلة أهل الباطل، لا يتردد في الجهر برأيه، ولا يسكت عما يراه منكرا، سواء بالنسبة لعامة الناس، أم بالنسبة للحكام والامراء.

قال ابن الجوزي عنه: وقد كان سعيد بن المسيب لا يغشى الولاة، وهذا فعل الحازم.

وقال سعيد نفسه: لا تملوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالانكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة.

ومن صراحته وصلابته ما وصفه لنا الحكم بن أبي اسحاق قال: كنت جالسا إلى سعيد بن المسيب، فقال لمولى له: اتق الله، لا تكذب علي، كما كذب مولى ابن عباس على ابن عباس، فقلت لمولاه – بُرْد: ذاك أني لا أدري ابن الزبير أحب إلى أبي محمد [أي ابن المسيب] أو أهل الشام؟! قال: فسمعها سعيد، فقال: يا عراقي أيهما أحب اليك؟ قلت: ابن الزبير أحب إلي من أهل الشام: قال: أفلا أضبث [ضبث بالشيء قبض عليه بكفه] بك الآن، فأقول: هذا زبيري؟ فقلت: سألتني فأخبرتك، فأخبرني أيهما أحب إليك؟ قال: كُلا لا أحب.

ومن انكاره المنكر واعتباره مصلحا اجتماعيا: ما ذكره عبد الرحمن بن حرملة أنه سأل سعيد بن المسيب قال: وجدت رجلا سكران، أفتراه يسعني ألا أرفعه إلى السلطان؟ فقال له سعيد: إن استطعت أن تستره بثوبك فاستره.

ومن المعلوم أن ستر العصاة هو مبدأ اسلامي عام، وقد ترتب على هذه الحادثة توبة هذا السكران، فقال: والله لا أعود له أبدا.

ويدل لذلك تتمة القصة.. قال ابن حرملة: فرجعت إلى البيت فإذا الرجل قد أفاق، فلما رآني عرفت فيه الحياء. فقلت: أما تستحي؟ لو أخذت البارحة، لحددت [أي طبق عليك حد السكر وهو أربعون أو ثمانون جلدة] فكنت بين الناس مثل الميت، لا تجوز لك شهادة، فقال: والله لا أعود له أبدا. قال ابن حرملة: فرأيته قد حسنت حاله بعد.

ولا بن المسيب كلمة رائعة في هذا المقام، تبين نسبة صلاح الإنسان وتقييمه وأخلاقه، وضرورة الغض عن بعض مساوئه، قال مالك بن أنس، قال سعيد بن المسيب: إنه ليس من شريف ولا عالم، ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، من كان فضله أكثر من نقصه، وهب نقصه لفضله.

** راوية عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهم.

أخذ سعيد بن المسيب العلم عن مشيخة المدينة، وأفذاذ علمائها وكبار صحابتها، وروى عنهم الأحاديث النبوية، ونقل عنهم الآثار، وتمرن عليهم في القضاء، وتمرس على الاجتهاد من آرائهم. حتى أنه قال: ما بقي أحد أعلم بكل قضاء قضاه رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ولا ابو بكر وعمر وعلي وعثمان ومعاوية مني. فكان لتلمذته على هؤلاء الأساتذة العظام أكبر الأثر في سعة علمه وخصوبة فقهه، وسداد رأيه.

قال الامام مالك: كان يقال لابن المسيب: راوية عمر، فإنه كان يتبع أقضية عمر يتعلمها، وإن كان ابن عمر ليرسل اليه يسأله عن بعض شأن عمر وأمره.

وفي البداية والنهاية لابن كثير: عن مالك قوله: بلغني أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه.

وقال يحيى بن سعيد: كان يقال: ابن المسيب راوية عمر. قال ليث: لأنه كان أحفظ الناس لاحكامه واقضيته.

وكان سعيد ملازما لأبي هريرة، وكان زوج ابنته. قال ابو حاتم: هو أثبت التابعين في أبي هريرة. وكان مكثرا الرواية عنه، وحفظ المسند من حديثه.

وسئل الزهري عمن أخذ سعيد بن المسيب علمه؟ فقال: عن زيد بن ثابت، وجالس سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر، ودخل على أزواج النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: عائشة، وأم سلمة. وكان قد سمع من عثمان بن عفان، وعلي، وصهيب، ومحمد بن مسلمة. وجل روايته المسندة عن أبي هريرة، وكان زوج ابنته، وسمع من أصحاب عمر وعثمان. وكان يقال: ليس أحد أعلم بكل ما قضى به عمر وعثمان منه.

قال سليمان بن يسار: كنا نجالس زيد بن ثابت أنا وسعيد ابن المسيب وقبيصة بن ذؤيب، ونجالس ابن عباس، فأما أبو هريرة فكان سعيدا أعلمنا بمسنداته لصهره منه.

** أرسل ابن المسيب كثيرا عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وعن أبي بكر الصديق وعن عمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص، وبقية العشرة المبشرين بالجنة.

وأسند في روايته عن عمر وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وأبي بن كعب، وحكيم ابن حزام، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وأبيه المسيب، وعمار بن ياسر، ومعاذ بن جبل، وأبي الدرداء، وجبير بن مطعم، ومعاوية بن أبي سفيان، وجبير بن الحويرث ومعمر بن عبد الله بن نضلة، وأبي ذر، وحسان بن ثابت، وزيد ابن ثابت، وعقبة بن عامر، وصهيب بن سنان، وجابر بن عبد الله وسعد بن عبادة، وصفوان بن المعطل، وصفوان بن أمية، وعبد الرحمن بن سمرة، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وأبي ثعلبة الخشني، وأبي موسى الأشعري، وأبي واقد الليثي، وأبي بكرة، وأبي قتادة الأنصاري، وأبي أيوب الأنصاري، وسلمان الفارسي، وأنس بن مالك، وعتاب بن أسيد، وعمرو بن أبي سلمة، وعبد الله بن زيد المازني، وعثمان بن أبي العاصي، وعائشة، وأم سلمة، وأسماء بنت عميس، وضباعة بنت عم الرسول: الزبير، وخولة بنت حكيم، وفاطمة بنت قيس، وأم سليم، وأم شريك، وطائفة آخرين.

وروى أيضا عن مروان بن الحكم. وروى أخبارا كثيرة في خلافات ومناقشات الصحابة مع بعضهم، وحضر عصر عثمان وعلي ومعاوية وبني مروان، وحضر أيضا أيام ابن الزبير في الحجاز، ووقعة الحرة، وحصار الكعبة، وغير ذلك من الحوادث، وله علمه بأخبار الجاهلية والإسلام. وكان اعلم التابعين بأنساب قريش.

** اختلف في اثبات سماع سعيد من عمر بن الخطاب على رأيين:

فقال الامام مالك: لم يسمع منه، ولكنه أكب على المسألة في شأنه وأمره، حتى كأنه رآه.

ويؤيد هذا الرأي ما ذكره بكثْير بن الأشج قال: سئل سعيد بن المسيب، هل أدركت عمر بن الخطاب؟ فقال: لا.

ويقول ابن معين: رأى سعيد عمر وكان صغيراً ابن ثماني سنين، وهل يحفظ ابن ثماني سنين شيئاً؟

وقيل لابنه يحيى: يصح لسعيد سماع من عمر؟ قال: لا، إلا رؤية رآه على المنبر ينعى النعمان بن مقرن.

وقال محمد بن عمر: ويروى أنه سمع من عمر، ولم أر أهل العلم يصححون ذلك، وإن كانوا قد رووه.

وقال الواقدي: لم أر أهل العلم يصححون سماعه عن عمر، وإن كانوا قد رووه.

والقول الثاني: قال الإمام أحمد: لقد سمع سعيد من عمر ورآه.

قال أبو طالب: قلت لأحمد بن حنبل: سعيد بن المسيب عن عمر حجة – أي في روايته؟! قال: هو عندنا حجة، قد رأى عمر، وسمع منه، إذا لم يقبل سعيد عن عمر، فمن يقبل؟ قال الحاكم: أدرك عمر فمن بعده من العشرة المبشرين بالجنة.

ويؤيد هذا القول روايات من سعيد عن عمر تصرح بالرؤية أو بالسماع. فقد روى ابن سعد عن سعيد أنه قال: سمعت من عمر كلمة ما بقي أحد حي سمعها غيري: كان عمر حين رأى الكعبة قال: اللهم أنت السلام ومنك السلام.

وقال سعيد أيضا: سمعت عمر على المنبر وهو يقول: لا أجد أحدا جامع، فلم يغتسل، أنزل، أو لم ينزل، إلا عاقبته.

وروى ابن المسيب أن عمر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– صلى على أبي بكر بين القبر والمنبر، وكبر عليه أربعا.

وروى عن عمر دعاءه في السنة التي حج فيها أن يقبض إلى الله.

وقال سعيد: قال عمر بن الخطاب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– على هذا المنبر –يعني منبر المدينة–: اني أعلم أقواما سيكذبون بالرجم، ويقولون: ليس في القرآن، ولولا أني أكره أن

أزيد في القرآن لكتبت في آخر ورقة أن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قد رجم، ورجم أبو بكر، وأنا رجمت. [قال ابن حجر: هذا الاسناد على شرط مسلم].

يقول د. وهبة الزحيلي: والواقع في تقديري للرأيين السابقين في سماعه من عمر أن سعيد بن المسيب فتن بشخصية عبر، وأحبها حبا كبيرا، فتلقف مروياته وآراءه، وكل ما صدر عنه، حتى قيل له: «راوية عمر».

ولا عجب على مثل ذاكرة سعيد القوية وحافظته المدهشة وذكائه المفرط ونباهته منذ الصغر: أن يتذكر شخصية عمر، وبعض أقواله على المنبر، وهو صبي يافع عمره ثماني سنوات، إذ أنه ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر، واستمرت خلافته عشر سنوات وأربعة أشهر.

لهذا ترجح سماعه في بعض المرويات، دون الإغراق في ذكرها، أو المبالغة في عددها.

قال يحيى بن معين: رأى عمر وكان صغيرا.

وقال ابو حاتم الرازي: رآه على المنبر، ينعى النعمان بن مقرن.

** ولقد ثبت سماع سعيد من عثمان بن عفان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، قال سعيد: سمعت عثمان –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– يقول وهو يخطب على المنبر: كنت أبتاع التمر من بطن من اليهود، يقال لهم: بنو قينقاع، فابتعته بربح، فبلغ ذلك رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فقال: يا عثمان، إذا اشتريت فاكتل، وإذا بعت فكل.

** تفرد سعيد بن المسيب بالرواية عن أبيه المسيب بن حزن، فلم يرو عنه غيره، من صحابي ولا تابعي وغيرهما.

** تتلمذ على سعيد وروى عنه خلق كثير، من أشهرهم: ابنه محمد، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن شهاب الزهري، وعمرو ابن دينار، وقتادة، وشريك بن أبي نمر، وأبو

الزناد، وسعد ابن إبراهيم، وعمرو بن مرة، وبكير بن الاشج، ويحيى بن سعيد الانصاري، وداود بن أبي هند، وطارق بن عبد الرحمن، وعبد الحميد بن جبير بن شعبة، وعبد الخالق بن سلمة، وعبد المجيد ابن سهيل، وعمرو بن مسلم بن عمارة بن أكيمة، وأبو جعفر الباقر، وابن المنكدر، وهاشم بن هاشم بن عتبة، ويونس بن يوسف، ومحمد بن عمرو بن عطاء، وطارق بن شهاب، ويونس ابن يوسف، ومحمد بن علي بن الحسين، وعبد الرحمن بن حميد الزهري، وعمارة بن عبد الله بن صياد، وغيرهم.

** قال الشيخ أبو عبد الله بن خفيف الزاهد الشيرازي في كتاب له: اختلف الناس في أفضل التابعين، فأهل المدينة يقولون: سعيد بن المسيب، وأهل الكوفة يقولون: أويس القرني، وأهل البصرة يقولون: الحسن البصري.

وبغض النظر عن هذا الاختلاف الذي له صبغة إقليمية، سنذكر شهادات الناس فيه قاطبة، على اختلاف منازعهم، من الخلفاء، والصحابة، والمعاصرين له من التابعين، والمحدثين والفقهاء، وكبار المؤرخين، لنتبين أنه كان بحق أفضل التابعين.

قال عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– لرجل سأله عن مسألة: أئت ذاك فسله، يعني سعيدا، ثم ارجع إلي فأخبرني، ففعل ذلك وأخبره. فقال: ألم أخبرك أنه أحد العلماء.

وكان ابن عمر إذا سئل عن الشيء يشكل عليه قال: سلوا سعيد بن المسيب، فإنه قد جالس الصالحين.

وقال عنه: هو والله أحد المفتين.

وقال أيضا لاصحابه عنه: لو رأى هذا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–لسره.

** كان سعيد ذا جلالة وتقدير في أعين الخلفاء، وبخاصة عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز.

فكان عمر بن عبد العزيز لا يقضي بقضاء حتى يسأل سعيد ابن المسيب، فأرسل إليه إنسانا يسأله، فدعاه فجاءه حتى دخل، فقال عمر: أخطأ الرسول، إنما أرسلناه يسألك في مجلسك.

وقال عمر أيضا: ما كان بالمدينة عالم إلا يأتيني بعلمه، وأوتى بما عند سعيد بن المسيب.

قال نافع مولى ابن عمر: هو والله أحد المتقنين.

وحدث قدامة بن موسى الجمحي قال: كان سعيد بن المسيب يفتي وأصحاب رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أحياء.

وعن عطاء أن سعيد بن المسيب كان إذا دخل المسجد يوم الجمعة لم يتكلم كلاماً حتى يفرغ من صلاته، وينصرف الإمام، ثم يصلي ركعات، ثم يقبل على جلسائه ويُسأل.

وقال ابن أبي الحويرث: شهدت محمد بن جبير بن مطعم يستفتي سعيد بن المسيب.

وعن عمرو بن ميمون بن مهران عن أبيه –أي ميمون– قال: قدمت المدينة، فسألت عن أعلم أهل المدينة، فدفعت إلى سعيد بن المسيب.

وقال عنه زين العابدين علي بن الحسين: أعلم الناس بمن تقدمه من الآثار وأفضلهم في روايته.

وقال سليمان بن موسى: كان أفقه التابعين.

قال مكحول –فقيه الشام– طفت الأرض كلها في طلب العلم، فما لقيت أحدا أعلم من سعيد بن المسيب.

وقال أيضا: سعيد ابن المسيب عالم العلماء.

وقال قتادة والزهري ومكحول وغيرهم: ما رأينا أعلم من ابن المسيب.

وقال الزهري أيضا: جالسته سبع حجج، وأنا لا أظن عند أحد علما غيره.

كان سعيد أعلم الناس بقضاء عمر وعثمان. لزمت سعيدا فكان هو الغالب على علم المدينة والمستفتى.

وقال قتادة أيضا: ما رأيت أعلم بالحلال والحرام منه. ما جمعت علم الحسن –أي البصري– إلى علم أحد من العلماء، إلا وجدت له عليه فضلا، غير أنه كان إذا أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد بن المسيب يسأله.

وقال الزهري: العلماء أربعة: ابن المسيّب بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام.

وقال ابن شهاب: قال لي عبد الله بن ثعلبة ابن أبي صعيران: كنت تريد هذا، يعنى الفقه، فعليك بهذا الشيخ سعيد بن المسيّب.

وقال القاسم بن محمد ومحمد بن عمر: هو سيدنا وأعلمنا، هو خيرنا وسيدنا.

وسئل القاسم بن محمد؛ وهو أحد فقهاء المدينة السبعة عن مسألة فقال للسائل: أسألت أحدًا غيري؟ قال نعم: عروة، وفلانًا، وسعيدًا بن المسيب، فقال: أطع ابن المسيب؛ فإنه سيدنا وعالمنا.

وقال الأوزاعي: سئل الزهري ومكحول: من أفقه من لقيتما؟ قالا: سعيد بن المسيب.

وقال إسماعيل بن أمية: سعيد بن المسيب عالم العلماء.

وقال شهاب بن عباد العَصَري: حججت، فأتينا المدينة، فسألنا عن أعلم أهل المدينة، فقالوا: سعيد بن المسيب.

وقال يحيى بن سعيد: أدركت الناس يهابون الكتب، ولو كنا نكتب يومئذ لكتبنا من علم سعيد ورأيه شيئاً كثيراً.

وقال أبو زرعة: مدني قرشي ثقة إمام.

وقال أبو حاتم: ليس في التابعين أنبل منه، وهو أثبتهم في أبي هريرة.

وقال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علما منه، وإذا قال سعيد: مضت السنة، فحسبك به، وهو عندي أجل التابعين.

** قال الامام الشافعي: إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن.

وقال أحمد: مرسلات سعيد صحاح، لا نرى أصح من مرسلاته.

وقال: أفضل التابعين سعيد بن المسيب، فقيل له: فعلقمة والأسود، فقال: سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود.

وقال الإمام مالك: بلغني أن عبد الله بن عمر كان يرسل إلى ابن المسيب يسأله عن بعض شأن عمر وأمره، وكان يقال لابن المسيب: راوية عمر، فإنه كان يتبع أقضية عمر يتعلمها.

وعن يحيى بن سعيد قال: كان يقال: ابن المسيب راوية عمر. قال ليث: لأنه كان أحفظ الناس لأحكامه وأقضيته.

وقال أحمد بن عبد الله العجلي: كان سعيد رجلا صالحا فقيها، كان لا يأخذ العطاء، وكانت له بضاعة أربعمائة دينار، وكان يتجر في الزيت، وكان أعور.

** قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: وكان سعيد جامعا ثقة، كثير الحديث، ثبتاً، فقيها، مفتيا، مأمونا، ورعا، عاليا، رفيعا.

وقال ابن حبان البستي في كتابه «الثقات»: كان من سادات التابعين فقها، ودينا، وورعا، وعبادة، وفضلا، وكان أفقه أهل الحجاز، وأعبر الناس لرؤيا، ما نودي بالصلاة من أربعين سنة إلا وسعيد في المسجد.

وقال محمد بن يحيى بن حبان: كان رأس من بالمدينة في دهره، المقدم عليهم في الفتوى سعيد بن المسيب، ويقال: فقيه الفقهاء.

وقال الأصبهاني في حلية الأولياء: فأما أبو محمد سعيد ابن المسيب ابن حزن المخزومي، كان من الممتحنين، امتحن فلم تأخذه في الله لومة لائم، صاحب عبادة وجماعة، وعفة وقناعة، وكان كاسمه بالطاعات سعيدا، ومن المعاصي والجهالات بعيدا.

وقال ابن خلكان في «وفيات الاعيان»: كان سيد التابعين من الطراز الأول، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع، سمع سعد بن أبي وقاص الزهري، وأبا هريرة رضي الله عنهما.

وقال الذهبي: هو الإمام، شيخ الإسلام، فقيه المدينة، أجل التابعين، كان واسع العلم، وافر الحرمة، متين الدين، قوالا بالحق، فقيه النفس.

وقال أيضا: عالم المدينة بلا مدافعة.

وقال عنه ابن كثير: سيد التابعين على الإطلاق.

وقال اليمني في «مرآة الجنان»: هو السيد المجمع على جلالته وديانته وإمامته الذي سما كل سيد تابعي بعد السيد العارف بالله: أويس القرني.

وقال الخزرجي عنه: رأس علماء التابعين وفردهم وفاضلهم وفقيههم.

وقال ابن حجر العسقلاني عنه: أحد العلماء الأثبات، الفقهاء الكبار، من كبار الثانية [أي الطبقة الثانية]، اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل.

وقال عنه ابن العماد: مناقبه ومآثره تفوت الحصر وقد صنف فيها.

وترجم له الزركلي فقال: سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع. وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي: راوية عمر.

ابن المسيب مفسرا ومحدثا

تلقى التابعون تفسير القرآن عن الصحابة، كما تلقوا عنهم علم السنة، وإن كانوا قد يتكلمون في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، كما يتكلمون في بعض السنن بالاستنباط والاستدلال.

وأعلم الناس بالتفسير من علماء التابعين هم: أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس. وأهل الكوفة من أصحاب ابن

مسعود، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه الإمام مالك التفسير، وأخذه عنه أيضا ابنه عبد الرحمن وعبد الله بن وهب.

والتفسير إما أن يكون بالمأثور والنقل عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، أو عن غيره من الصحابة والتابعين، وإما أن يكون بالرأي والاستنباط والتأويل.

والنوع الاول ليس لأحد أن يتعرض له باجتهاد ولا غيره، لأنه من باب الرواية مثل أسباب النزول.

وأما النوع الثاني فهو ترجيح أحد المحتملات بالدليل بلا قطع ولا جزم: وهو ما استنبطه العلماء العاملون بمعاني القرآن.

وخير التفسير: ما كان بالقرآن نفسه، ثم بالسنة النبوية، لأنها شارحة للقرآن ومبينة له، قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (اني أوتيت القرآن ومثله معه) [ابو داود والترمذي]

ثم بأقوال الصحابة، فانهم أدرى لما شاهدوه من القرائن عند نزوله، ولما اختصوا به من الفهم التام، والعمل الصالح. ثم بأقوال التابعين.

ولا يجوز التفسير بالرأي والاجتهاد بلا أصل يعتمد عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:36]

وقال أبو بكر –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أي أرض تقلتني، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

أما الرأي المستند إلى دليل فجائز بلا إنكار من أحد، ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به.

** عاش سعيد حريصًا على فهم أحكام القرآن وتبين مقاصده، كما كان يفهمها الصحابة. وعلى تلقى أحاديث الرسول وسماعها من أفواه الذين سمعوها من النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، حتى كان يسافر الأيام والليالي ليسمع حديثًا واحدًا من فم صحابي لا يحفظ غيرُه ذلك الحديث. وبذلك صار رأس أهل المدينة المقدَّم عليهم في الفتوى وعلوم الشريعة.

** والشيخ سعيد إذا نخرط في سلك حديثه لا تحس منه إنساناً يتكلم من جعبته... فحديث الرجل وشرحه هو شرح عُلوي مستقًى من منابع النبوة! فإذا حدَّث الشيخ يوماً بشرح حديث أو آية استنبط منها معانٍ لو قسم الإعجاز البياني إلى قسمين.. قسم التنزيل الرباني، وقسم البيان البشري لكان للرجل قسم البيان البشري بلا منازع أو مجادل.

** ولقد كان سعيد بن المسيب ممن يتحرج من تفسير مالا علم له به، ويتهيب من القول في القرآن برأيه المحض بدون دليل.

سئل ابن المسيب عن آية من كتاب الله، فقال: لا أقول في القرآن شيئا.

ولهذا قل ما نقل عنه في التفسير.

وكان أجرأ على الافتاء بالرأي في الفقه والاهتمام به أكثر من تناول تفسير القرآن.

عن يزيد بن أبي يزيد قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، واذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأنه لم يسمع.

وسأله رجل عن آية من القرآن، فقال: لا تسألني عن آية من القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه، يعني عكرمة.

وقال عبيد الله بن عمر: لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

** والحقيقة أن ابن المسيب كان من أشهر المفسرين من التابعين كما ذكر في طبقات المفسرين. وهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا، فلا حرج عليه.

ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة بين الأقوال، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه.

وهذا هو الواجب على كل أحد، كما قال ابن تيمية –رحمه الله–: فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: 187]، ولما جاء في الحديث المروي في الترمذي بسند صحيح (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ)

** كان سعيد يعظم الحديث النبوي، ويتأدب عند روايته، قال طلحة بن محمد بن سعيد بن المسيب: دخل المطلب بن حنطب على سعيد بن المسيب في مرضه، وهو مضطجع، فسأله عن حديث، فقال: أقعدوني، فأقعدوه، قال: إني أكره أن أحدث حديث رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وأنا مضطجع.

** وابن المسيب ثقة من أعلام رواة الحديث، سواء أكان مستندا أو مرسلا، وإن كان الحديث المسند أعلى رتبة من المرسل.

فقد قسم الحاكم طبقات التابعين إلى خمس عشرة طبقة، فذكر أن أعلاهم من روى عن العشرة المبشرين بالجنة، وذكر منهم سعيد بن المسيب، إلا أنه لم يدرك الصديق، قولا واحدا، لأنه ولد في خلافة عمر لسنتين مضتا أو بقيتا.

وقال الحاكم: وأصح أسانيد المكثرين من الصحابة عن أبي هريرة: الزهري، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة.

وقال الذهبي: وأصح الاحاديث: ما جاء عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة. وما جاء عن أبي الزناد، عن الأعرج عن أبي هريرة. وما جاء عن ابن عون وأيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة.

وروى ابن منده في الوصية من طريق يزيد بن أبي مالك قال: كنت عند سعيد بن المسيب، فحدثني بحديث، فقلت له: من حدثك يا أبا محمد بهذا فقال: يا أخا أهل الشام، خذ، ولا تسأل، فإنا لا نأخذ إلا عن الثقات.

وقال يحيى بن معين: مرسلات ابن المسيب أحب إلي من مرسلات الحسن.

وقال الشافعي: إرسال ابن المسيب عندنا حسن. قالوا: لأنه تتبعها فوجدها مسندة.

والواقع أن الشافعي يعتبر مراسيل كبار التابعين حجة، إن جاءت من وجه آخر مرسلة أو مسندة، أو اعتضدت بقول صحابي، أو أكثر العلماء، أو كان المرسل لا يروي إلا عن ثقة.

وقال أحمد بن حنبل: مرسلات سعيد صحاح، لا نرى أصح من مرسلاته.

وقال أحمد أيضا: ومن مثل سعيد ثقة من أهل الخير.

وفي الجملة: كان ابن المسيب إماما في الحديث، كما كان إماما في التفسير والفقه وتعبير الرؤيا.

وقد أجمع المحدثون على ثقته وضبطه، وحبه للسنة وحرصه عليها، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب»: اتفقوا على أن مرسلاته أصح المراسيل.

** أسند عنه الإمام الشافعي والإمام أحمد في مسنديهما كثيرا من الأحاديث، وأسند سعيد عن كبار الصحابة، والمكثرين من الرواية.

فقيه الفقهاء

** اشتهر سعيد بن المسيب بالفقه والفتوى، لأنه كان فقيه النفس، واسع العلم، خصب المعرفة، وأعلم الناس بالقضاء، حتى قيل له: «فقيه الفقهاء».

ولقد وافقت خلافة عبد الملك بن مروان (65–76هـ) زمن النضوج من حياة سعيد بن المسيب، وكانت شهرة سعيد في العلم والتقوى قد ملأت أرجاء العالم الإسلامي، وكان عبد الملك لا يرى نفسه أقل من سعيد فقهًا في علوم الشريعة، ولا أقل حرصًا منه ومن أمثاله على إقامة أحكامها وإعزاز كلمة الله، ويمتاز بما اختصه الله به من توسيع دائرة الفتوح. وجميع المشتغلين يومئذ بعلوم الشريعة كانوا يعملون أن عبد الملك كان قبل ولايته الخلافة من رؤوسهم النابهين، وإن إمام دار الهجرة مالك بن أنس اعتبر أقضية أمير المؤمنين عبد الملك مرجعًا في أحكام الإسلام فدوَّنها في كتاب الإسلام الذي سماه (الموطأ): لكن أهل الصلابة في العلم والفقه كانوا يؤاخذون أمثال عبد الملك بن مروان بأنهم وإن تمسكوا بالشريعة في كل الأحوال وأقاموا أحكامها كما يجب، إلا أنهم تساهلوا في الأمور التي تتصل بالملك والسياسة، وكان يجب عليهم أن لا يتساهلوا في ذلك اقتداء بسيرة الخلفاء الأربعة الراشدين. وأمثال عبد الملك كانوا يرون أن ما كان عليه الخلفاء الراشدون إنما كان فوق مستوى البشر، وأن من يلي الملك بعدهم إما أن يتساهل من الناحية التي تتصل بالملك والسياسة فقط أو أن يعم تساهله جميع النواحي، فهم يرون أنفسهم من أهل الخير والصلاح لأنهم لم يتساهلوا إلا من الناحية السياسة، فإذا أمنوا على ملكهم ولم ينازعهم أحد فيه فإنهم مستقيمون على طريق الشرع في جميع الأحوال الأخرى.

** ومن أهم ملامح فقهه –رحمه الله– أنه كان مرجعاً للفتوى والتعليم والتدريس وبث المعرفة ورفع الجهل عن الناس.

فيروى عن محمد بن يحيى بن حبان أنه قال: «كان رأس من بالمدينة في دهره والمقدم عليهم في الفتوى سعيد بن المسيب، ويقال فقيه الفقهاء».

وكان أعلم الناس بما تقدمه من الآثار وأفقههم في رأيه، كما قال عنه أبو علي بن حسين، وقال عنه ابن القيم: ثم صارت الفتوى –بعد الصحابة– في أصحاب هؤلاء –أي الصحابة المكثرين من الفتوى–كسعيد ابن المسيب راوية عمر وحامل علمه.

قال جعفر بن ربيعة: قلت لعراك بن مالك: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أما أفقههم فقها وأعلمهم بقضايا رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وقضايا أبي بكر، وقضايا عمر، وقضايا عثمان وأعلمهم بما مضى عليه الناس، فسعيد بن المسيب.

قال ابن قتيبة: كان سعيد أفقه أهل الحجاز.

وقال الجاحظ في رسالته في التجارة: هل كان في التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل؟.

** كان سعيد بن المسيب بعد ابن عباس واسع الفتيا. وكانت الفتوى إذا جاءت المدينة تتردد بين علمائها إلى أن تصل إليه فيفتي.

قال أبو اسحاق: كنت أرى الرجل في ذلك الزمان، وإنه ليدخل، يسأل عن الشيء، فيدفعه الناس عن مجلس إلى مجلس، حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا. كانوا يدعونه سعيد بن المسيب – الجريء.

وكان يفتي وأصحاب الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– متوافرون أحياء.

والحقيقة: أن الجرأة تذم ممن قل علمه، فيفتي عن كل ما يسأل عنه بغير علم. أما من اتسع علمه، وقوي فهمه، ووفر حفظه، فإنها جرأة محمودة، بل إقدام يجب أن يكون.

وهكذا كان سعيد جريئا إيجابيا مقداما لا يتهيب الفتيا بعد أن استكمل شروطها، وأعد لها العدة الكافية.

ولقد أدى واجبه، وقام بالدور الخطير الملقى على عاتقه، ولم يتهرب من مجابهة المسئولية الجسيمة الملقاة على أمثاله من العلماء، وذلك لأنه تجددت قضايا، وطرأت مسائل في عصر التابعين لم تكن في عهد الصحابة. ولولاه ومن معه من فقهاء المدينة لتغير مجرى الفقه الاسلامي.

** وكان لفقههم خصائص معينة منها:

ترك العمل بالنصوص المطلقة، أو العامة، لأنهم رأوا العمل بها ينافي المصلحة، فعملوا بما يحقق هذه المصلحة، وإن ترتب عليه تقييد النص، أو تخصيصه أو ترك ظاهره.

ومن ذلك إجازة التسعير للسلع والحاجيات، ورد شهادة القريب لقريبه أو الزوج لزوجته وبالعكس، ومنع النساء من الخروج إلى المساجد.

** كان منهج سعيد بن المسيب في الاجتهاد الفقهي هو نفس منهج الصحابة، بالاعتماد على مصادر الفقه الأساسية الأربعة: وهي الكتاب والسنة والاجماع والقياس.

فاذا لم يجد حكما للحادثة في القرآن والسنة والاجماع نظر وتخير من أقوال الصحابة واتبع عن دليل وفكر لا عن تقليد، ومن هذا الاتباع أطلق على سعيد وأمثاله اسم التابعين.

فهم الذين اتبعوا الصحابة بإحسان حقا، لأنهم أولوا العلم والبصائر الذين لا يقدمون على كتاب الله وسنة رسوله رأيا ولا قياسا ولا معقولا، ولا قول أحد من العالمين.

ولم يعرف أن أحدا من التابعين خالف قول الصحابة أو أقوالهم إذا وجدت، أما إذا لم يجد فيها قولا كما لم يجده في الكتاب والسنة والاجماع اجتهد واستنبط حكم الله بما يؤديه اليه اجتهاده، باستخدم القياس، أو الاستصلاح (العمل بالمصالح)، أو العرف ونحو ذلك.

ولقد كان للتابعين وعلى رأسهم سعيد الفضل الأول في وضع أساس الصرح العالي للفقه الاسلامي، وتكون المدارس الفقهية، ونشوء المذاهب بسبب أخذهم الفقه عن كبار الصحابة، فتكونت في البلاد مدارس متأثرة بمنهج بعض الصحابة مثل زيد بن ثابت، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص في الحجاز، وعمر، وعبد الله ابن مسعود في العراق.

وكانت ذخيرتهم أحاديث الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، وآراء الصحابة، وآراؤهم الشخصية المستنبطة. ثم اختلفت البلاد في المسائل والمبادىء، فبدأ تكون المدارس، وأهمها مدرسة أهل الحديث أو مدرسة المدينة. ومدرسة أهل الرأي أو مدرسة الكوفة.

ولقد كان ابن المسيب يجمع بين العمل بالحديث والعمل بالرأي، فشإذا وجد الحديث لم يذهب إلى الرأي، واذا لم يجد حديثا تغلغل في بحث روح التشريع، وغاص في تعرف

المصالح وعلل الأحكام، والمعاني التي تستهدفها النصوص، ثم أفتى عن علم وتثبت وفهم، فسمي: الجريء.

وهكذا نعرف أنه لم يكن هناك انفصال بين المدارس التي تكونت في عهد ابن المسيب، وكانت كلها تعتمد السنة والرأي، إلا أن الغالب في الحجاز التزام الحديث، والغالب في العراق الجنوح إلى الرأي المتمشي مع هدي الشريعة بسبب قلة الحديث، والتحري الشديد لصحة الروايات، والاستيثاق الزائد في الراوي.

** ذكر ابن جرير الطبري أنه كانت هناك عشر مسائل مختلف فيها بين سعيد بن المسيب، وبين بقية العلماء، أي أن له فرائد أو غرائب تفرد بها، وخالف بها إجماع المسلمين: عن يحيى ابن سعيد قال: الناس يخالفون سعيد بن المسيب في عشر خصال قد عرفوه: كان يقول: لا يسلف في شيء من الأشياء، ثم ذكر الخصال العشر.

والحقيقة: أن الرواية عن سعيد في مثل هذه الأمور مشكوك فيها. وادعاء وجود الإجماع فيها غير ثابت، بدليل أن أحدا لم يذكر لنا أي مسألة أجمع عليها فقهاء التابعين ولو صحت مخالفة سعيد في هذه المسائل، أليس ذلك دليلا واضحا على أن الاجماع لم ينعقد؟!

وأهم هذه المسائل ما يأتي:

١ – عدم جواز السلم أو السلف: كان يقول: لا يسلف في شيء من الاشياء ودليله حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: (لا يحل بيع ما ليس عندك)

ولكن روي عن سعيد نفسه خلاف هذا القول، فقال: في السلف في الثياب والحنطة بذرع معلوم، وكيل معلوم، ليس به بأس [اختلاف الفقهاء للطبري].

والسلف: هو بيع آجل بعاجل، كأن يقول مزارع لغيره: أسلفتك مداً من الحنطة بدينار. علما بأن الحنطة لم يحن وقت حصادها، وإنما ستسلم وقت الحصاد، وأن قبض الثمن كله يجب في مجلس العقد وقد أجيز شرعا استثناء من القواعد العامة التي تقضي بعدم جواز

بيع الشيء المعدوم وقت التعاقد لحاجة الناس إليه، وتيسيرا عليهم. أخرج الأئمة السنة في كتبهم عن ابن عباس حديث من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم)

وتأول الطبري حديث عمرو بن شعيب بأنه يحتمل أن يكون نهياً عن بيع ما ليس عند الإنسان من الأشياء غير المضمونة عليه، ويجوز بيع ما كان مضمونا بصفته.

٢ – التحليل بدون وطء: روي عنه أنه قال: تحل المطلقة ثلاثاً للزوج الأول بمجرد عقد الثاني، من غير وطء، فلا يشترط وطؤه في حلها للأول.

لكن قال ابن كثير: وفي صحته عنه نظر، على أن الشيخ أبا عمر بن عبد البر قد حكاه عنه في الاستذكار، والله أعلم.

وروى ابن جرير الطبري عنه –أي سعيد بن المسيب– عن ابن عمر عن النبي –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها، قبل أن يدخل بها البتة، فيتزوجها زوج آخر، فيطلقها قبل أن يدخل بها، أترجع إلى الأول؟ قال: (لا، حتى تذوق عُسَيْلَتَهُ، ويذوق عسيلتها) ورواه أيضا أحمد والنسائي، وابن ماجه.

وعقب ابن كثير على ذلك فقال: فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعا، على خلاف ما يحكى عنه، فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند، والله أعلم.

3– عدم استحباب الوضوء للمتوضيء: روي عن سعيد ابن المسيب أنه قال: الوضوء من غير حدث اعتداء. أي أن تجديد الوضوء غير مستحب. وعلق على ذلك ابن كثير بقوله: هو غريب عن سعيد، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحباباً فقد دلت السنة على ذلك.

4– قراءة الجنب القرآن: قال سعيد بن المسيب: يقرأ الجنب القرآن، أليس هو في جوفه؟ وأجاز له أيضا العبور في المسجد، وبه أخذ مالك والشافعي وأحمد.

5– قاتل العمد يرث المقتول: حكي عن سعيد بن المسيب وابن جبير والخوارج أن قاتل العمد يرث حقه من المقتول، لأن آية الميراث تتناوله بعمومها، فيجب العمل بها فيه.

وعلق ابن قدامة الحنبلي عليه فقال: ولا تعويل على هذا القول لشذوذه، وقيام الدليل على خلافه، لما روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (من قتل قتيلا، فإنه لا يرثه، وإن لم يكن له وارث غيره، وإن كان والده أو ولده، فليس لقاتل ميراث).

6– لا يؤكل الجراد إذا مات بغير سبب: روي عن سعيد أنه قال: لا يؤكل الجراد إذا مات بغير سبب. وهو قول مالك وأحمد. ولا فرق في قول عامة أهل العلم في إباحة أكله بين أن يموت بسبب أو بغير سبب.

إن فقه السلف من الصحابة والتابعين لم يدون ولم ينشر في كتب مستقلة، وانما هو منثور في كتب الفقهاء أتباع المذاهب الفقهية مثل المغني لابن قدامة الحنبلي، والبحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، لأحمد بن يحيى بن المرتضى الزيدي، وبداية المجتهد لابن رشد المالكي.

ولا يخلو باب من أبواب الفقه، إلا ونجد فيه آراء فقهية لابن المسيب، تابعه فيها بعض أئمة المذاهب، وخالفه فيها آخرون.

إمَامَتَهُ فِي تعبير الرؤيا

كان سعيد –رحمه الله– إماما في تعبير الرؤيا، كما كان إماما في العبادة والورع والتدين والزهد، وفي التفسير والحديث والفقه، بل وفي الأخلاق والفضائل، والتاريخ والانساب.

وتعبير الرؤيا يتطلب فراسة وفطنة، وعلما وفهما، وفكرا وبعد نظر، كما يتطلب صفاء نفسيا وذهنيا، وعلاقة طيبة مع الله. فأداه كل ذلك إلى تفسير الأحلام تفسيرا دقيقا مطابقا للواقع، فصدقه الناس، وعجبوا به، لما جربوا عنه من تأويل وصدق حدس ومعرفة بظلال الأحلام في حياة كل انسان.

وبالاضافة إلى ذلك فهو فن يحتاج للتعلم والأخذ عن الخبراء.

قال محمد بن عمر: وكان سعيد بن المسيب من أعبر الناس للرؤيا، وكان أخذ ذلك عن أسماء بنت أبي بكر، وأخذته أسماء عن أبيها أبي بكر.

وعن عبيد بن نسطاس قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول للرجل إذا رأى الرؤيا وقصها عليه: خيرا رأيت.

وكان يقول: آخر الرؤيا أربعون سنة، يعني في تأويلها.

** ومن وقائع تعبيره الرؤيا ما يأتي:

عن عمر بن حبيب بن قليع قال: كنت جالسا عند سعيد بن المسيب يوما، وقد ضاقت علي الأشياء، ورهقني دين، فجلست غلى ابن المسيب، ما أدري أين أذهب، فجاءه رجل، فقال: يا أبا محمد، اني رأيت رؤيا، قال: ما هي؟ قال:

رأيت كأني أخذت عبد الملك بن مروان، وأضجعته إلى الارض، ثم بطحته فأوتدت في ظهره أربعة أوتاد، قال: ما أنت رأيتها، قال: بلى، أنا رأيتها، قال: لا أخبرك، أو تخبرني، قال: ابن الزبير رآها، وهو بعثني اليك. قال: لئن صدقت رؤياه، قتله عبد الملك بن مروان، وخرج من صلب عبد الملك أربعة كلهم يكون خليفة.

قال: فدخلت إلى عبد الملك بن مروان بالشام، فأخبرته بذلك عن سعيد بن المسيب، فسره، وسألني عن سعيد وعن حاله، فأخبرته، وأمر لي بقضاء ديني، وأصبت منه خيرا.

وقال رجل: رأيت كأنّ عبد الملك بن مروان يبول في قبلة مسجد النبي أربع مرار، فذكرت ذلك لسعيد بن المسيّب، فقال: إن صدقت رؤياك قام من صلبه أربعة خلفاء.

وعن شريك بن أبي نمر قال: قلت لابن المسيب: رأيت في النوم كان أسناني سقطت في يدي، ثم دفنتها، فقال ابن المسيب: إن صدقت رؤياك دفنت أسنانك من أهل بيتك.

وعن مسلم الخياط قال: قال رجل لابن المسيب، اني أراني أبول في يدي، فقال: اتق الله، فان تحتك ذات محرم، فنظر، فإذا امرأة بينها وبينه رضاع.

وجاءه آخر، فقال: يا أبا محمد، إني أرى كأني أبول في أصل زيتونة، قال: انظر من تحتك، تحتك ذات محرم. فنظر فإذا امرأة لا يحل له نكاحها.

وعن مسلم الخياط عن ابن المسيب قال: قال له رجل إني رأيت حمامة وقعت على المنارة – منارة المسجد– فقال: يتزوج الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.

وقال هشام بن عروة: لما تزوج الحجاج، وهو أمير المدينة بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أتى رجل سعيد بن المسيّب فذكر له ذلك، فقال: أني لأرجو ألا يجمع الله بينهما، ولقد دعا داع بذلك وابتهل؛ وعسى الله؛ فإن أباها لم يزوجها إلا الدراهم، فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان أبرد البريد إلى الحجاج وكتب إليه يغلظ له ويقصر به ويذكر تجاوزه وقدره، ويقسم بالله لئن هو مسّها ليقطعنّ أحب أعضائه إليه، ويأمره بتسويغ أبيها المهر، وبتعجيل فراقها، ففعل فما بقي أحد إلاّ سره ذلك.

وقال رجل من فهم لابن المسيب: أنه يرى في النوم كأنه يخوض النار، فقال: إن صدقت رؤياك، لا تموت حتى تركب البحر، وتموت قتلا. قال: فركب البحر، فأشفى على الهلكة، وقتل يوم قديد بالسيف.

قال الحصين بن عبيد الله من بني نوفل: طلبت الولد، فلم يولد لي، فقلت لابن المسيب: إني أرى أنه طرح في حجري بيض. فقال ابن المسيب: الدجاج أعجمي، فاطلب سببا إلى العجم، قال: فتسريت فولد لي، وكان لا يولد.

وكان ابن المسيب يقول: التمر في النوم رزق على كل حال، والرطب في زمانه رزق ويقول: الكبل في النوم ثبات في الدين.

قال مسلم الخياط: وقال له رجل: يا أبا محمد، إني رأيت كأني جالس في الظل، فقمت إلى الشمس. فقال ابن المسيب. والله لئن صدقت رؤياك لتخرجن من الإسلام. قال: يا أبا محمد، إني أراني أخرجب حتى أدخلت في الشمس، فخسلت [خسله: نفاه]. قال: تكره

على الكفر. فخرج في زمان عبد الملك بن مروان فأسر، فأكره على الكفر، فرجع، ثم قدم المدينة، وكان يخبر بهذا.

وأخرج ابن سعد عن ابن عمران بن عبد الله بن طلحة قال: رأى الحسن بن علي كأن بين عينيه مكتوبا: {قل هو الله أحد} فاستبشر به أهل المدينة، فقصوها على سعيد بن المسيب، فقال: إن صدقت رؤياه، فقل ما بقي من أجله، فما بقي إلا أيام حتى مات.

الرحيل

قال عبد الرحمن بن الحارث المخزومي: دخلنا على سعيد نعوده، ومعنا نافع بن جبير، فقالت أم ولده إنه لم يأكل منذ ثلاث فكلموه، فقال نافع بن جبير: إنك من أهل الدنيا ما دمت فيها، ولا بد لأهل الدنيا مما يصلحهم فلو أكلت شيئاً. قال: كيف يأكل من كان على مثل حالنا هذا بضعة يذهب بها إلى النار أو إلى الجنة. فقال نافع: أدع الله أن يشفيك، فان الشيطان قد كان يغيظه مكانك من المسجد. قال: بل أخرجني الله تعالى من بينكم سالماً.

قال عبد الرحمن بن حرملة: رأيت سعيد بن المسيب في مرضه يصلي مضطجعاً مستلقياً فيومئ برأسه إلى صدره إيماء، ولا يرفع إلى رأسه شيئاً.

قال عبد الرحمن بن حرملة: دخلتُ على سعيد بن المسيَّبِ، وهو شديد المرض، وهو يصلي الظهر، وهو مستلقٍ، يومئ إيماءً، فسمعته يقرأ: بـ :﴿الشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾

لما اشتد وجعه عليه، دخل عليه نافع بن جبير بن مطعم يعوده، فأغمي عليه، فقال نافع: وجهوا فراشه إلى القبلة، ففعلوا فأفاق، فقال: من أمركم أن تحولوا فراشي إلى القبلة، أنافع ابن جبير أمركم؟ فقال نافع: نعم، فقال له سعيد: لئن لم أكن على القبلة والملة، لا ينفعني توجيهكم فراشي.

وقال أيضا: عليها –أي على الارض– ولدت، وعليها أموت وعليها أبعث إن شاء الله؟

روى عبد الرزاق، عن الثوري، عن عبد الرحمن بن حرملة قال: كنت مع ابن المسيَّبِ في جنازة، فسمع رجلًا يقول: استغفروا الله، فقال: "ما يقول راجزهم هذا؟ قد حرَّجتُ على أهلي أن يرجز معي راجزهم هذا، وأن يقول: مات سعيد بن المسيَّبِ، فاشهدوه، حسبي مَن يقلِبني إلى ربي، وأن يمشوا معي بمجمرة، فإن يكن لي عند ربي خير، فما عند الله أطيب من طيبكم"

وقال سعيد في مرضه الذي مات فيه: إذا ما مت فلا تضربوا على قبري فسطاطا، ولا تحملوني على قطيفة حمراء، ولا تتبعوني بنار، ولا تؤذنوا بي أحدا، حسبي من يبلغني ربي، ولا يتبعني راجزهم هذا.

وكره أن يتبع في جنازته برجز، وقال: حسبي من يقلبني إلى ربي، وأن يمشوا معي بمجمر، فإن أكن طيبا، فما عند الله أطيب من طيبهم.

وقال: أوصيت أهلي إذا حضرني الموت بثلاث: ألا يتبعني راجز، ولا نار، وأن يعجل بي، فان يكن لي عند ربي خير، فهو خير مما عندكم.

وقال زرعة بن عبد الرحمن: شهدت سعيد بن المسيب يوم مات يقول: يا زرعة، إني أشهدك على ابني محمد، لا يؤذن بي أحداً، حسبي أربعة يحملوني إلى ربي، ولا تتبعني صائحة تقول فيّ ما ليس فيّ

وقال يحيى بن سعيد: لما حضر سعيد بن المسيب، ترك دنانير، فقال: اللهم إنك تعلم أني لم أتركها إلا لأصون بها حسبي وديني.

روى أبو نعيم عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّبِ: أنه مات وترك ألفين أو ثلاثة آلاف دينار، وقال: "ما تركتُها إلا لأصون بها دِيني وحسبي"

** توفي سعيد بن المسيب –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– أيام خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ هـ) في المدينة ودفن بالبقيع سنة ٩٤ هـ وهو ابن حوالي ثمانين سنة.

وكان يقال لهذه السنة التي مات فيها «سنة الفقهاء» لكثرة من مات فيها من عامة فقهاء أهل المدينة.

مات في أولها علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

ثم عروة بن الزبير، ثم سعيد بن المسيب، وأبو بكر سلمة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام.

وفيها قتل الحجاج سعيد بن جبير –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، لكونه خلع الحجاج وصار مع عبد الرحمن بن الاشعث. أُرسل ابن جبير إلى الحجاج من مكة فضرب عنقه، وكان من أعلام التابعين، أخذ عن عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر. وعنه روى القرآن أبو عمرو. وقال الامام احمد: قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الارض أحد إلا وهو مفتقر إلى عمله.

وقال حبيب بن هند الأسلمي: قال لي سعيد بن المسيب: إنما الخلفاء ثلاثة: أبو بكر، وعمر، وعمر بن عبد العزيز. قلت له أبو بكر وعمر قد عرفناهما، فمن عمر؟ قال: إن عشت أدركته، وإن مت كان بعدك.

قال حبيب: ومات ابن المسيب قبل خلافة عمر بن عبد العزيز وهذا هو الارجح. وكانت خلافة ابن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام من عام ٩٩ – ١٠١ هـ

من أهم المصادر

- سعيد بن المسيب سيد التابعين.. وهبة مصطفى الزحيلي.
- أعلام الإسلام.. سَعيد بنُ المسَيّب.. السيد ناجي الطنطاوي، مجلة الرسالة.
- الإمام سعيد بن المسيب وعبد الملك بن مروان.. شريف الزهيري.
- سعيد بن المسيب.. محب الدين الخطيب.
- الطبقات الكبرى لابن سعد.
- سير أعلام النبلاء.
- البداية والنهاية لابن كثير.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com